أعلام التنوير في الإسلام

د. محمد حبش

2021

مركز الدراسات
لبحوث التنوير والحضارة
الشارقة

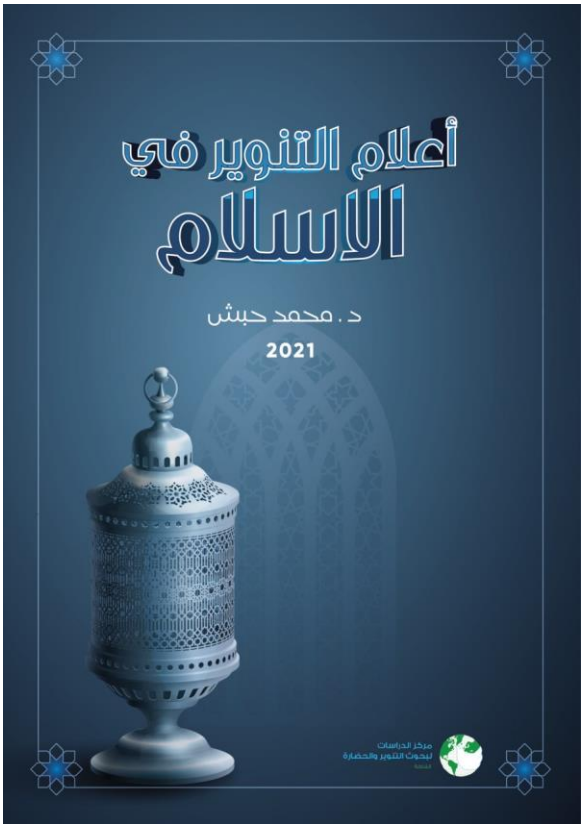

أعلام التنوير في الإسلام

دراسة في أهمِّ الرجال والنساء

الذين أسهموا في تنوير الحياة

د.محمد حبش

أعلام التنوير في الإسلام
الطبعة الأولى 2021
جميع الحقوق محفوظة
المؤلف: د. محمد حبش
هذه الطبعة من إصدار مركز الدراسات لبحوث التنوير والحضارة
دار متخصصة بالدراسات الإنسانية وإخاء الأديان
19- مدينة الشارقة للنشر- شارع الشيخ محمد بن زايد - الشارقة - الإمارات
هاتف: 0097165545544
habash2005@gmail.com
www.mohammadhabash.org

First Edition 2021
All Rights Reserved
Mohamad Habash
This edition is issued by the Studies Center for Civilization and Enlightenment Research.
The center specializes in human studies and brotherhood of religions
Address: 19- Sharjah Publishing City - Sheikh Mohammed Bin Zayed Rd - Sharjah - UAE
Tel: 0097165545544
habash2005@gmail.com
www.mohammadhabash.org

تمهيد

تهدف هذه الدراسة إلى تقديم مساهمة في التعريف بمجموعة من الرجال والنساء الذين أعدُّهم أبرز رجال التنوير خلال التاريخ الإسلاميِّ من عصر النبوة إلى عصرنا الحاضر.

وقد تمَّ اختيار الرجال والنساء في هذه القائمة من أولئك الذين قدموا شجاعة استثنائية، واستطاعوا أن يقدموا فكراً حرًّاً، يتَّبع العقل ويحترم النقل ويقدِّس الإنسان.

لا شك أن الأسماء كثيرة، والتجارب الإصلاحية متعددة ومتتابعة، وهي لم تنقطع خلال التاريخ، ومع أنها واجهت عسف السياسة ومكر التنافس وقوة النص، ولكنَّها نجحت في إحياء موجات ثقافية وعلمية وتنويرية بارزة.

ويأتي هذا الكتاب جواباً على سؤال نتعرض له كلَّ يوم ونحن نشارك في تيار الإصلاح الديني الذي يعلن بوضوح اتباع العقل واحترام النقل؛ إذ يبادرك سؤال: من قال بهذا القول من قبلك؟ وهل كان الناس جاهلين وأغبياء من قبل حتَّى فاتتهم هذه المعرفة؟

إن ما يجمع الرجال الذين نوردهم في هذه القائمة أنهم نالوا قدراً كبيراً من الاحترام خلال التاريخ، وأنهم بالفعل أعلام كبار في التاريخ، ولا نشك أنهم كانوا يستطيعون أن يقدموا ما يطلبه الجمهور ويرفلوا في العسل، ولكنهم قادوا كفاحهم على بصيرة من العقل والإرادة، واستطاعوا أن يضيئوا جانباً من الدرب للأجيال الآتية.

كما يجمع بينهم أنهم أيضاً واجهوا العناء في حياتهم، وتعرضوا للكيد والأذى، ونالهم السوء وأصابتهم المكائد، بل إنَّ بعضهم دفع حياته ثمناً لمواقفه، على أنني لا أريد

المبالغة في ذلك، ولا أرغب أن أصور المجتمع الإسلامي مجتمعاً طارداً للكفاءات ورافضاً للحريات، بل إنهم كثيراً ما حققوا النجاح والثروة، وعملوا بوصفهم وزراء وقضاة ومستشارين، وأعتقد أنه من الخطأ ربط السياسة بالتنوير أو التجهيل، فالسياسة عموماً ترحب بالتنوير وتدعم أهل العقل والحكمة، ومن شأن الحاكم الناجح أن يقدم أصحاب العقول المستنيرة وأن يكف أصوات التخلف والتعصب، ولكن خبرتي في هذا السبيل أن السياسة في بلادنا وإن زعمت أنها تدعم التنوير فهي لن تتقبل من التنوير خطابه بشأن الحرية والكرامة، والمحاسبة والمساءلة، وحين تتعرض لأدنى ضرر بسبب المبادئ فإنها تتخلى عنها على الفور، وربما تبطش بأعلام التنوير أيضاً، وهذا ما حصل في التاريخ بالفعل، وهو ما يفسر النكبات التي تعرض لها ابن رشد والفارابي ولسان الدين بن الخطيب وابن المقفع وآخرون.

وسنصدِّر الكتاب بتقديم قائمة بالرِّجال والنِّساء الذين حققوا تطوراً حقيقياً في تاريخ التنوير في الإسلام، على أنني أجد نفسي مطالباً بالاعتذار مقدماً من المرأة المسلمة التي ستكون قليلة الحضور، ويجب الاعتراف أننا لم نفعل ما يجب لتمكين المرأة في التاريخ من دورها الحضاري والرسالي، وأنها كانت بالفعل نتيجة واقع متردٍّ من اضطهاد النساء وتغييبهن عن الساحة العلمية والإدارية.

ومن المدهش أننا سنجد في عصر الصحابة فقط نماذج مقنعة من مشاركة المرأة في التنوير، فيما يتضاءل هذا الحضور تاريخياً حتى يكاد ينعدم.

ويمكن الإشارة إلى أهم المعايير التي اعتمدتها في تقييم حضور المفكرين والأحرار في هذه القائمة عبر المعايير الأربعة الآتية:

• أشخاص معروفون لهم تاريخ مدون في كتب الطبقات والتاريخ الإسلامي.

• يحظون باحترام واضح لدى جزء من أبناء الأمة الإسلامية.

• تركوا أعمالاً مكتوبة أو صدرت عنهم أعمال مكتوبة تشير إلى دورهم التنويري الواضح.

• التزموا باحترام العقل وكرامة الإنسان ولم تنقل عنهم مواقف تحقير للبشر بسبب اختلاف الدين أو المعتقد أو اللون أو العنصر.

باختصار، إنَّهم الرجال الذين يمكن عدُّهم قدوة في التاريخ الإسلامي في حقوق الإنسان، وكانوا ملهمين وحكماء وقد سبقوا عصرهم ونادوا بحقوق الإنسان وفق ما أقرته البشرية في كفاحها الطويل.

وقد أردنا بالشرط الأول تجنب الحديث عن الشخصيات الوهمية أو حتَّى الحقيقية التي ليس لها حضور في كتب الطبقات حتَّى لو تداول الناس عنهم بعض الحكايا والروايات.

وأردنا بالشرط الثاني التأكيد على أنَّ من معايير التنوير الحقيقي أنَّه يحظى بعدد من الأتباع قلُّوا أم كثروا، ويخرج بهذا الشرط الأشخاص الذين قدَّموا أفكاراً جميلة ولكنهم تورطوا في مخازٍ أو جرائم لا تليق بالعلم ولم توفر لهم أيَّ أتباع أو محبين.

وأردنا بالشرط الثالث أن نحصر القائمة بأهل الرأي والعلم، ولن يدخل فيها مشاهير السياسة والمال الذين نقلت عنهم مواقف تنويرية، ولكنهم لم يكتبوا في ذلك أو لم يحظوا بدراسات وافية تشرح فكرهم في التنوير.

وأردنا بالشرط الرابع أن نحدد المقصود بالتنوير الذي نريد، وهو بوضوح إكرام العقل واحترام النقل، وتقديس الإنسان، والقدرة على التعامل مع النص الديني باحترام بوصفه نوراً يهدي وليس قيداً يأسر.

ومع ذلك فيجب ألَّا نتصور الاتفاق التَّام مع ما روي عنهم، بل نحن نقدِّرهم لمعنى تفوقوا فيه وربما لموقف سَبقوا إليه، وربما كان فيما يروى عنهم نقيض ذلك، وفي بعضه أثرة وأنانية وضيق أفق، وهذا في الواقع شأن الرواية التاريخية وطبيعة الإنسان، فخذ ما صفا ودع ما كدر.

وليست دراسة هؤلاء الآباء الكرام محض بحث في التاريخ... إنَّها إعادة لرسم المثل الأعلى في ضمير جيل حائر بات لا يرى في تاريخنا إلا خطاب الخرافة والتخلف... بعد أن قمنا عمداً بتغييب قادة الفكر الحقيقيين من أئمة الهدى والرشاد.

ولا نشك أبداً في أنَّ أوَّل قادة التنوير وأعظمهم هو النبي الكريم عليه الصلاة والسلام فقد كان رائداً في العقل والحكمة، وقضى على الخرافة والجهل، وما حربه على الأصنام المعبودة إلا رسالة واضحة في انتصار العقل والإرادة والمسؤولية.
ولعلَّ من أروع مواقفه في المسؤولية أنه حين سئل عن الفتوى قال بصراحة وشجاعة: "استفتِ قلبك ولو أفتاك النَّاسُ وأفتوك".

عمر بن الخطاب

الاسم الكامل	عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى بن رياح بن عبد الله بن قرط بن رزاح بن عُدي بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر.
ألقاب مشهورة	الفاروق – الخليفة العادل، أوّل من سمّي أمير المؤمنين
التاريخ	40ق.هـ - 23 هـ/ 590م-644م
الولادة والارتحال والوفاة	ولد بمكة وزار الشام والقدس وتوفي في المدينة.
أهمُّ ما أُلِّف عنه	هناك مئات الكتب التي أُفردت للحديث عن عمر بن الخطاب واستعرضت عبقريته السياسية والإدارية، كما أن حياته مفصلة في كلِّ كتب التاريخ في العالم، وهذه نماذج مما كتب عنه باللغات العالمية 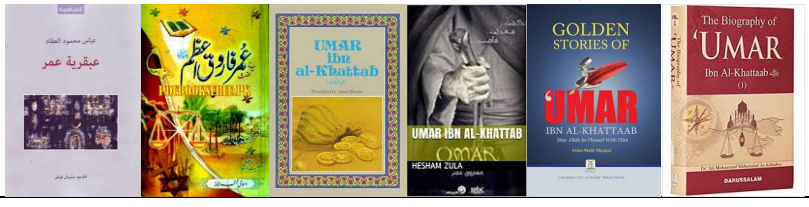
أهم من تأثر فيهم	الرسول الكريم – أبو بكر الصِّديق
أهم من تأثروا به	جيل الصحابة – التاريخ الإسلامي كلُّه
أهم القضايا التي نادى بها في الإصلاح الديني	• الاجتهاد في مورد النص • إصلاح فقه الجهاد • إصلاح فقه الحدود • إصلاح فقه العدالة • موافقات عمر
مساجد بنيت باسمه	هناك آلاف المساجد بنيت باسم عمر بن الخطاب في المدن الإسلامية كلِّها
أفلام عنه	فيلم عُمر من إخراج "حاتم علي" ونص "وليد سيف" وقام بدور البطولة "سامر إسماعيل" ويعود سبب قلة الأفلام عنه إلى فتوى الأزهر في تحريم ظهور الصحابة في الأفلام
الضريح	في حجرة المصطفى عليه الصَّلاة والسَّلام

عمر بن الخطاب أشهر خلفاء الإسلام وواحد من أبرز رموز العدالة والحكمة في العالم، وقد أنزله النبي الكريم منزلة خاصَّة، وورد فيه حديث رواه الترمذي وأحمد: "لو كان بعدي نبي لكان عمر"، ومنزلته كبيرة في الإسلام والفقه والعقيدة والشريعة.

ومع أن عمر اشتهر بالقوة والشجاعة والصلابة، ولكننا نادراً ما نروي مواقفه الجليلة أيضاً في الحكمة والبناء والتشييد، وكذلك رسالته في الإصلاح الديني.

كان على رأس الناطقين بكلمة الحق، وكان صوته في تحدي المشركين هو الصوت الأعلى، وحين هاجر المسلمون فرادى متخفين، هاجر عمر جهاراً نهاراً وقال كلمته الواضحة: "من أراد أن تثكله أمه ويبتم ولده فليلقني وراء هذا الوادي فإنني مهاجر الآن!"

وعلى الرغم من عباراته الطافحة بالتحدي ولكنه كان في الواقع عنيف اللسان رحيم القلب، وفي حياته الطويلة شهد مع الرسول الكريم المغازي كلها وكان يقترح الثأر والقصاص وارتبط اسمه بالصلابة والثبات والشدة، وستتولى هذه الصفحات التعريف بعمر بن الخطاب إدارياً حكيماً ومصلحاً دينياً في غمار الصورة المشهورة له محارباً ضارياً.

وعلى الرغم من شدته، وطلبه المتكرر من النبي أن يقتل أفراداً من المشركين، ولكن من المؤكد أن مطالباته بالقصاص كانت تنتهي دوماً بالموادعة والسلم، وكأنما كان يظهر التشدد ليضمن للناس الوسط والاعتدال، وربما كانت هذه الحقيقة هي جواب أبي بكر عندما اعترض عليه طلحة في استخلافه عمراً من بعده، وقال: "ماذا تقول لربك إذا وليت علينا فظًا غليظاً؟ فقال: أبالله تخوفوني؟! أقول: وليت عليهم خير

أهلك، إني أرى ما به من الشدة لما يراه بي من اللين، ولو قد ولي لكان للناس حلماً ورحمة."

وفي الواقع فإن الحديث عن عمر بن الخطاب لا ينتهي فالرجل مدرسة عظيمة في الحكم والعدالة والإدارة واليقين، ولكن سنختار الحديث فقط عن دوره في الإصلاح الديني

جهود عمر في الإصلاح الديني:

لا شك أنَّ عمر بن الخطاب هو أشدُّ فقهاء الإسلام شجاعة وحيوية، وقد اشتهرت موافقاته الكثيرة التي كان الوحي يأتي فيها على نسق اقتراحه، وما تزال اختياراته الفقهية ملهمَّة للفقهاء المسلمين، وقد نالت في تاريخ الفقه الإسلامي اعتباراً متميزاً نظراً لكونها المقصودة بوصية النبي الكريم: "عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي عضوا عليها بالنواجذ."

وسنفصل القول في الإصلاحات الدينية البارزة التي أطلقها عمر بن الخطاب وكان لها تأثير مباشر على حركة الفقه الإسلامي، وفي الواقع فإنه لا مبالغة في كل ما يروى عن دور عمر التأسيسي في الفقه الإسلامي ووضع أصوله ومصادره.

جمع القرآن الكريم:

تجمع كتب الرواية على أنَّ عمر بن الخطاب هو الذي بادر إلى فكرة جمع القرآن الكريم، في وقت مبكر، وقد أثار اقتراحه استغراب أبي بكر الصديق الذي قال: "إنها بدعة لم يقدم عليها رسول الله"، وقد دلت ظواهر النصوص على ترك جمع القرآن الكريم، فهو شأن الله وأمره: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ۝١٦ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ

وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ ﴾ [القيامة: ١٦ – ٧] وقوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الحجر: ٩]

وفي الواقع فقد كان عمر يقدم أول اجتهاد في مورد النص، ومع أنَّ الصديق تمسك برأيه أنه لا يوجد أيُّ أمر أو وصية لرسول الله بذلك، ولكن عمر ظلَّ يجادل في الأمر، ويقول: "هو والله خير، وهو زاد الأمة وتراثها وذكراها وينبغي أن لا يضيع منه شيءٌ"، وبعد تردد ومشاورات مختلفة وافق الصديق على اقتراح أبي بكر وجُمع القرآن الكريم.

وفي الواقع فإن جمع القرآن الكريم وفَّر للأمَّة سلامة المصدر الأوَّل للشريعة، وقد كان من الممكن أن يضيع في غبار المعارك، ولا نشك أنه قد تمَّ في الوقت المناسب، ولو تمَّ الالتزام بظاهر النص في منع جمعه وتأخر الأمر عشر سنين مثلاً لما انتهت الأمَّة إلى هذا الإجماع على حروف القرآن الكريم وسوره وآياته.

ويمكن تسجيل موقف عمر بن الخطاب في جمع القرآن بأنه أوَّل اجتهاد في مورد النص في الإسلام، ولا مبالغة في أثر هذا الاجتهاد الشجاع في قيام المصالح والاستحسان في الإسلام.

موقفه من حروب الردَّة:

وعقب موت النبي الكريم ظهر المرتدون وانقلبت قبائل كثيرة على الإسلام، واشتهر موقف أبي بكر الحازم في مواجهة الردَّة، كما سجل في التاريخ موقف عمر بن الخطاب الذي دعا إلى البحث عن خيار آخر غير الحرب.

وكان موقف أبي بكر في غاية الشدة في مقاومة الردَّة، سواء كانت امتناعاً عن أداء الزكاة أم الصلاة، وقال بوضوح: "والله لأقاتلن من فرَّق بين الصلاة والزكاة"!

وفي الواقع فإن عمر بن الخطاب أدرك بعمق وعيه خطورة المضي في موقف كهذا وما سيجلبه للأجيال الآتية من تبرير العنف للقضاء على المختلف الديني أو السياسي، وبالفعل فقد صارت قصة حروب الردة أقوى الأدلة التي يستدل بها القساة اليوم على وجوب قتل المسلم إذا ظهرت منه موجبات الردة في القول أو العمل أو إذا ما اختار التحول إلى دين آخر.

لقد أدرك أنَّ الشروع في حرب كهذه سيحمل دلالات خطرة تستمر إلى آماد بعيدة. كما نلحظها اليوم، فهي تبرر قتل الإنسان بناء على موقفه الديني، أو حتَّى على موقفه السياسي، وكلاهما أمرٌ مرفوض أخلاقياً ودينياً، وبخاصَّة في شريعة عنوانها ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦] ﴿فَذَكِّرۡ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ ٢١ لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ ٢٢﴾ [الغاشية: ٢١ – ٢٢]

﴿أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ٩٩﴾ [يونس: ٩٩]

رفض عمر بن الخطاب فكرة الحرب، وحاور بها أبا بكر طويلاً، وقال له: "قوم شحوا بأموالهم أتقاتلهم؟" حتَّى اشتدَّ الخلاف، وقال له أبو بكر غاضباً: أجبار في الجاهلية خوار في الإسلام يا عمر؟ والله لو منعوني عناقاً كانوا يؤدونه لرسول الله لقاتلتهم عليه...!

في النهاية أصرَّ كلٌّ من الرجلين على موقفه ومضى رأي الخليفة، وأطاعه عمر وشرح بذلك صدراً ودعا له أن يوفقه الله للحق...

وفي الحقيقة فإنه لا خلاف بين الشيخين في قتال من قاتل، بل كان الخلاف في قتال من شح بماله أو ترك الصلاة فكان عمر يرى حوارهم والتفاوض معهم فيما رأى الصديق وجوب قتالهم.

كان رأي الفاروق مختلفاً عن رأي الصديق، وفي النهاية رضي عمر خيار الناس وأثنى على موقف الصديق، فاجتماع الأمة أولى من شتاتها، وحفظ التاريخ رأي عمر بن الخطاب في البحث عن سبل أخرى غير الحرب.

ومع أن عمر بن الخطاب لم يخرج عن برنامج الأمة في مواجهة المرتدين، ولكنه رفض التمادي في هذه الحرب، ورأى أنَّ علينا أن ننهيها بأقل الأضرار وأن نعتمد في الحرب أخلاق الإسلام، وألَّا نسمح للسيوف أن توغل في دماء المخالفين، واشتهر في التاريخ موقفه من خالد بن الوليد، فقد اعترض أشدَّ الاعتراض على تجاوزات خالد في حق مالك بن نويره، ومع أن الصديق لم يعزل خالداً وقال: "ما كنت لأعزل سيفاً سلَّه الله على المشركين"، ولكنَّ عمر بن الخطاب لم يكتم أبداً موقفه الشديد ضدَّ خالد، واعتبر أن خالد يجيد خيار الحرب ولا يجيد خيار السلم، وقال "إنَّ في سيف خالد لرهقاً".

وهكذا فإن عمر وإن رضي قرار أبي بكر ولكنه لم يتوقف عن انتقاد هذه الحرب، وكان يتابع بقلق سلوك خالد بن الوليد الاندفاعي، وقال لأبي:بكر: "إن في سيف خالد لرهقاً"، وحين تورط خالد في قتل مالك بن نويره غضب عمر أشدَّ الغضب وطلب من أبي بكر أن يحاكمه بشدة، ولكنَّ الصديق عدَّها عثرة واكتفى بتوجيه اللوم دون عزله عن القتال...

وتدخل مراراً لمنع قتل المرتدين، وقد شفع عند أبي بكر لأصحاب طليحة بن خويلد الأسدي الذي ادعى النبوة ؛ إذ هرب إلى الشام وأسر أصحابه، ثم عاد معتذراً، وشفع لأصحاب لقيط بن مالك الذي ادعى النبوة، وشفع لمن أسر من أصحاب مسيلمة الكذاب والأشعث بن قيس وأبو مريم الحنفي، ونجح في تخفيف الأحكام وأودعهم سجناً في المدينة.

وحين عهدت الخلافة إليه كان أوَّل قرار اتخذه هو عزل خالد بن الوليد، ولم يكن عزله لسبب شخصيٍّ أو قبليٍّ بل قال بوضوح: "إن في سيف خالد لرهقاً، وإني أخشى أن يصيب من المسلمين مثل ما أصاب بمالك بن نويره"، واتخذ قراره بعزل خالد بن الوليد وسحبه من جيش الفتح على الرَّغم من شهرته الهائلة ثم حاكمه أمام الناس.

وتذهب كتب التاريخ إلى المبالغة في وصف هذا الخلاف بين عمر وخالد ولكنني أميل إلى أنه كان خلافاً محدوداً، يتصل برؤية عمر في أنَّ الحرب ضرورة، والضرورة تقدَّر بقدرها، ولا ينبغي أن تكون الحرب هي خيار الأمة بل هي قدر ندفع به الشرَّ عن الأمة، في حين كان خالداً على درجة من الإقدام والشجاعة إذ لا يهاب الحروب، وقد عاش حياته على ظهر جواده، وبكى على فراش الموت أنه يموت على فراشه وقال: "لا نامت أعين الجبناء".

وفي سياق آخر فقد قام عمر بن الخطاب أيضاً برد السبايا التي ساقها خالد وغيره من أمراء حروب الردة، وأمر بردِّ هذه السبايا إلى أهاليها، وعوضهم بإنصاف عناء ما كابدوه، ودفع الفدية لأهاليهن، وهو موقف مهمٌّ في رفض ظاهرة السَّبْي كلِّها،

أو قل هو اتباع حكيم لمنهج الرسول الكريم في رفض السَّبي كلِّه كما قدمناه في يوم حُنين.[1]

وبعد انتهاء حروب الردة عقد عمر مؤتمرات مصالحة مع المعتقلين وقال لأصحاب المتنبئ لقيط بن مالك بالحرف: "تعلمون أنني كنت ضدَّ حربكم وقد شفعت لكم، وهذا مالكم وسبيكم فخذوه، وإنه لا سبيَ في الإسلام، فسيروا حيث تشاؤون من الأرض فأنتم أحرار..."

أمَّا طليحة بن خويلد الأسدي الذي ادعى النبوة فقد عفا عنه، واستفاد منه في حربه على الفرس وتحرير العراق.

أمَّا السجناء من أصحاب مسيلمة فقد حاروهم، وكان من أجمل حواراته معهم حواره مع قاتل أخيه أبو مريم الحنفي قال له: "أنت أبو مريم! والله لا أحبك حتَّى تحب الأرض الدم! قتلت أخي". فقال أبو مريم: "أحبني أو لا تحبني إنما يأسى على الحب النساء!"

ثم قال له: "يا عمر! إنَّ الله أكرم أخاك بيدي ولم يهني بيده..."

تكرر الموقف نفسه مع طليحة بن خويلد الذي ادعى النبوة: حين قال له عمر: "أَنت قاتل الرجلين الصالحين؟" يعني ثابت بن أقرم وعكاشة، فقال طليحة: أَكرمهما الله بيدي، فقال: "والله لا أُحبك أبدًا". قال: "فمعاشرة جميلة يا أمير المؤمنين، فإن النّاس يتعاشرون مع البَغْضاء".

[1] ابن الأثير، عز الدين علي بن أبي الكرم، الكامل في التاريخ، ج18 ص 40

وهكذا فإن حروب الردة كانت العنوان العريض المؤسس لحدِّ الردة، وهو أشدُّ الأحكام التي مارستها الفصائل الجهادية المعاصرة شؤماً ودموية، وقد صار هذا الحد هو التبرير المؤسس لحقِّ الحكَّام في قتال مخالفيهم وإعدامهم.

بالطبع لم يكن عمر ليتردد قط في حرب المرتدين لو كان الأمر عدواناً على المدينة أو انفصالاً مسلحاً عنها، ومع أنَّه يمكن فهم القتال على أنَّه هجوم استباقي لمنع حصول ذلك، ولكن أبا بكر لم يستخدم ذلك في تبرير الحرب وإنما قال: "لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة".

إصلاح ثقافة الجهاد:

واشتهر في التاريخ موقف عمر بن الخطاب في إصلاح ثقافة الجهاد، فقد تلقى الصحابة الكرام ثقافة الجهاد في الحروب التي خاضها النبي صلَّى الله عليه وسلَّم ضدَّ أعداء الإسلام في قريش وخيبر وغطفان، ومن المعلوم أنَّ الآيات الأشدَّ هي آخر ما نزل، فقد كانت الأمة في طور بناء وحدتها، وكانت تواجه تحديات هائلة من الروم والفرس، والقبائل التي تعمل لحسابهما، والتي ظهرت في حروب الردة، وكان على الجيش الإسلامي أن يتصرف بصرامة وحسم، فلا مجاملة ولا مداراة قبل إنجاز وحدة الأرض واستقرار الدولة، وكان ذلك يرتبط سياسياً بوحدة جزيرة العرب، والخلاص من المحتل الرومي في الشام والفارسي في العراق.

وهكذا فقد مضى عمل الصحابة على الأشدِّ مما نزل في الكتاب العزيز في أمر الجهاد، وشاعت فيهم قاعدة: العمل على ما مات عليه الرسول... وبذلك فإنهم عملوا بعموم النصوص في الجهاد: ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ كَآفَّةٗ كَمَا

﴿يُقَٰتِلُونَكُمۡ كَآفَّةٗ﴾ [التوبة: ٣٦] وكذلك: ﴿فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ﴾ [التوبة: ٥]

واشتهر بين المفسرين كلام السلف بأن آية السيف نسخت سبعين آية، ومقتضى هذه العبارة أنَّ كل آيات السلم والموادعة والصفح والسلم قد نسخت بآية السيف.

ولكن المحققين من العلماء والأصوليين نبهوا أنَّ هذه العبارة وردت على غير المصطلح الذي استقر أخيراً لكلمة النسخ وهو رفع الحكم السابق بحكم لابق، وإنما قصد السلف بها التخصيص والتقييد والتأويل.

ولكن عمر بن الخطاب في الواقع اختار استراتيجية مختلفة تماماً في ثقافة الجهاد، ولم يتوقف عند خيارات أبي بكر، وإنما أطلق جهوداً خاصَّة في الدبلوماسية بناها على مبدأ أن الأصل في العلاقات الدولية هو السلم، وأن علينا أن نتوقف عن إطلاق الحروب الهادفة لنشر الإسلام فلن يكون هناك إيمان مع سيف، وسبيل الإيمان الحجة والقناعة، ومع ذلك فإن عمر بن الخطاب مضى في رسالته تحرير جزيرة العرب، ولكنه كان واعياً تماماً أين يجب أن تتوقف الحرب، وهو ما نستعرضه في الفقرات التالية:

في الجزية:

وفي الواقع فإن عمر بن الخطاب في وعيه بالنص القرآني لم يكن يذهب إلى نسخ بعضه ببعض في كل حال، بل يذهب إلى إعمال كلِّ نص بمناطه وسياقه وسباقه ما أمكن ولا يلجأ للقول بالنسخ إلا عند التعارض التَّام بين النصوص وهو ما استقر عليه عمل الأصوليين، فاختار عدم قتال المرتدين، ثمَّ دخل في خيار الجماعة ولكنه ظلَّ يختار الاحتياط والتحفظ في قتالهم، والتزم متابعة المجاهدين من الصحابة ومنعهم من الرهق بحق الناس، ثم اختار أن يفتح القدس صلحاً ويحافظ على الوجود المسيحي فيها، وأخذ منهم الجزية دون أن يكونوا صاغرين، بل منحهم العهدة العمرية التي تكرمهم وتحميهم وتحول دون أيِّ اعتداء عليهم.

وفي أخذ الجزية من أهل الكتاب المسالمين دون إهانة أو صَغار كتب الإمام الفقيه ابن رشد: "الجزية على ثلاثة أنواع:

1. جزية عنوية: وهي هذه التي تفرض على الحربيين بعد غلبتهم.
2. وجزية صلحية: وهي التي يتبرعون بها ليكفَّ عنهم، وهذه ليس فيها توقيت لا في الواجب، ولا فيمن يجب عليه ولا متى يجب عليه وإنما ذلك كله راجع إلى الاتفاق الواقع في ذلك بين المسلمين وأهل الصلح ...
3. وأما الجزية الثالثة فهي العشرية: وذلك أن جمهور العلماء اجتمعوا على أنه ليس على أهل الذمة عشر ولا زكاة أصلا في أموالهم.[2]

ويعدُّ اجتهاد عمر بن الخطاب في أخذ الجزية من أهل القدس دون يد ودون صغار منهجاً تأصيلياً لما انتهى إليه الفقه الإسلامي عند ابن رشد، حيث كتب عمر عقد

[2] ابن رشد، أبو الوليد محمد بن أحمد، بداية المجتهد ونهاية المقتصد ج1 ص 325

الجزية مع نصارى إيلياء في غاية الاحترام والود، ولم يكن في كل ما رويناه في أمر الصلح أيُّ هوان أو صغار أو مذلة.

في موقفه من الفتوح:

من العسير أن نستخلص موقفاً معارضاً للحرب في حياة عمر بن الخطاب وهو الرجل القوي المتين، وفي عهده وقعت أهمُّ الملاحم في تاريخ الإسلام، ولكن متابعة واعية لتاريخ عمر بن الخطاب يكشف لك أنه كان يحمل رؤية مختلفة تماماً عن الحرب، فقد كان يرى أنها أرض العرب وأن من واجبنا الدفاع عنها وإخراج الفارسي من العراق والرومي من الشام، وحين أنجز ذلك قال بوضوح: "وددت لو أن بيننا وبين فارس جبلاً من نار لا يصلون إلينا ولا نصل إليهم". كما رفض للصحابة ركوب البحر في الغزو، ونهى عمرو بن العاص عن الانسياح في مصر، وقال أيضاً: "وددت لو أنَّ الأرض بيننا وبين الروم جمرة لا يصلون إلينا ولا نصل إليهم".

لقد كتبت كتاباً مفصلاً في هذا المعنى وشرحت فيه أن عمر بن الخطاب لم ينظر قط إلى الجهاد على أنها الحرب المقدسة التي تخرج الناس من دين إلى دين بل رأى فيها الحرب الدفاعية التي يراد لها أن تحمي المسلمين من كيد أعدائهم ومكرهم، وتحقق لهم دولتهم على أرضهم التاريخية.

اجتهاده في آية الغنائم

وفي هذا السياق نذكر مواجهته للمهاجرين من الصحابة الذين ذهبوا لفتح العراق والشام وظنوا أن الفتح يمنحهم السيطرة على البلاد المغلوبة، وأن على الخليفة أن يقسم الأرض بين الفاتحين، كما فعل النبي الكريم يوم فتح خيبر حيث قسم الأرض على الفاتحين.

وكانت حجة المحاربين هي الآية الكريمة في سورة الأنفال: ﴿۞ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ﴾[الأنفال: ٤١] وبذلك نصت الآية؛ أن الخمس من الغنائم للدولة تنفقه في الوجوه المذكورة، والأربعة أخماس للمحاربين.

ولكن النبي الكريم لم يلتزم أمراً واحداً في شأن قسمة الأرض على الفاتحين، فقد قسم يوم خيبر ولم يقسم يوم المصطلق ولا يوم فتح مكة ولا يوم تبوك ولا يوم ثقيف، فقد ترك الأرض لأهلها وأصحابها، وإنما كان يقسم ما أجلب عليه الأعداء من خيل وركاب، وهو السلاح والعتاد العسكري الذي استخدمه الأعداء في محاربة الجيش الإسلامي.

وإنما قسم مال خيبر وحدها دون سائر المال؛ لأن اليهود كانوا في سبيل إعلان كانتون ديني منفصل عن الدولة الموحدة التي قامت في الجزيرة العربية، ولم يكن من العقل أن يترك هؤلاء الذين رفضوا الاندماج بالمجتمع المتوحد وأصروا على النزعات الانفصالية المؤسسة على انتمائهم الديني والطائفي، وهنا فقد كان من العقل تماماً أن تُحبط هذه المحاولة وتمنع قيامتها مجدداً، وبخاصَّة أن القبائل اليهودية التي تجمعت في فدك وخيبر ومن قبل في المدينة كانت تمارس الربا بأبشع صوره، وتحمل فكرة الشعب المختار وكانت تتوعد الأوس والخزرج وقبائل العرب بالنبي الآتي الذي سيقتلونهم معه قتل عاد وإرم.

وهكذا فقد رأى النبي الكريم أن قسمة أرض خيبر هي مصلحة اجتماعية ووطنية تقررها الأمة بمؤسساتها الدستورية، ولذلك فقد أبقاهم عليها واشترط عليهم أنهم

أجراء، وأن الدولة الإسلامية تملك حقَّ إخلائهم متى جدَّت أوضاع تتحقق فيها العدالة، وهذا ما منح عمر بن الخطاب الحقَّ في إجلائهم فيما بعد.

ومع أن النبي الكريم لم ينزع الأرض من اليهود وإنما أبقاها بأيديهم بصفة مزارعين وأجراء، ولكنه قطع بذلك أحلامهم في الانفصال بكانتون طائفي وديني داخل الدولة الإسلامية الموحدة.

وهذا التمهيد ضروري لندرك الدور الإصلاحي الفريد الذي قام به عمر بن الخطاب في أعقاب ما تحقق من فتح العراق والشام خلال خلافة عمر بن الخطاب.

فقد قام عدد من الصحابة الذين شاركوا في فتح العراق خصوصاً ،وفيهم الزبير بن العوام وبلال بن رباح بمطالبة عمر بقسمة الأراضي المفتوحة على الغانمين، قياساً على سنة النبي يوم فتح خيبر، ورأوا أن من حقهم بصفتهم محاربين أن تقسم لهم الأراضي التي فتحت، وأن يكون لهم سبايا من بنات الشام والعراق كما هو العرف المتبع في الحروب آنذاك.

وهكذا فقد كان الفاتحون يعيشون أعرافهم وعاداتهم الأولى، التي كانت قائمة على تمجيد المحارب وحقِّه في استلاب المغلوبين، واسترقاق نسائهم، وبدا لهم أن الإسلام نفسه قد فعل ذلك يوم خيبر.

ولكن عمر بن الخطاب واجه هذه الفهم السطحي لروح الشريعة بنظر عميق في المقاصد، وفي الرواية:

"كتب الفاتحون من العراق إلى عمر بن الخطاب ليقسم بينهم الأرض المفتوحة كما صنع رسول الله يوم خيبر والنضير، فاستشار عمر الصحابة، فرأى عليٌّ ومعاذ بن

جبل ألَّا تقسم الأرض في الفاتحين، وقال معاذ بن جبل: "والله إذن ليكونن ما تكره، إنك إن قسمتها صار الربع العظيم في أيدي القوم ثم يبيدون, فيصير ذلك إلى الرجل الواحد أو المرأة, ثم يأتي من بعدهم قوم يسدون من الإسلام مسدَّاً وهم لا يجدون شيئًا , فانظر أمراً يسعُ أولهم وآخرهم".

وأخذ عمر بقول معاذ وكتب إليهم أن الأرض أرض الله والمال مال الله، وأنها بلادهم قاتلوا عليها في الجاهلية وأسلموا عليها في الإسلام، وأن المحارب لا ينبغي أن يكون هدفه الغنائم، وإلا فهو قتال الجاهلية."

وعاد الفاتحون إلى المدينة يراجعون عمر بن الخطاب في ذلك، ويطالبونه بقسمة الأرض والغنائم في الفاتحين، وكان على رأسهم الزبير بن العوام وعبد الرحمن بن عوف وبلال بن رباح.

وكان أشدُّهم عليه بلال، وكان يرى المال مال الأكاسرة وأنَّ المجاهدين أولى به، حتى قال عمر: "اللهمَّ اكفني بلالاً وأصحابه"، وكان ما يزال يراجعه في ذلك ويشتد عليه، حتى غضب عمر وفتل شاربيه وكان إذا غضب فتل شاربيه، ثم قال:

"قد أشرك الله الذين يأتون من بعدكم في هذا الفيء، فلو قسمته لم يبقَ لمن بعدكم شيء، ولئن بقيتُ ليبلغن الراعي بصنعاء نصيبه من هذا الفيء، ودمه في وجهه".

وقال أيضاً: "أرأيتم هذه الثغور لا بدَّ لها من رجال يلتزمونها، أرأيتم هذه المدن العظام، كالشام والجزيرة والكوفة والبصرة ومصر، لا بد لها من أن تشحن بالجيوش وإدرار العطاء عليهم، فمن أين يعطى هؤلاء إذا قسمت الأرضون والعلوج[3]؟"

[3] ابن زنجويه، حميد بن مخلد، كتاب الأموال، ج1 ص194.

وسجلت في كتب التاريخ مساجلات وحوارات طويلة بين عمر وبين الفاتحين، ولكن عمر تمسك بموقفه العادل، وبيَّن لهم أن خيبر كانت حالة خاصَّة على غير مثال لها ظروفها، وأنه ينبغي أن ينصرف ذهن المجاهد إلى أهداف الجهاد العظيمة من ردِّ العدوان والدفاع عن المستضعفين في الأرض وإنصافهم وتحريرهم وليس إلى جمع المكاسب والغنائم.

موقفه من حقوق السكان في الأراضي المفتوحة:

وأسوق هنا هذا النص الفريد لعمر بن الخطاب وهو من رواية البخاري ومالك في حكم الحمى، والحمى: هي بعض الأراضي التي تخصصها الدولة للاستثمار أو للأغراض العسكرية، ويشتمل النصُّ على بيان حقوق أصحاب الأراضي المفتوحة وكفِّ المحاربين عن امتلاك الأرض غنائم أو فيئاً، كما يشتمل أيضاً على تحذير شديد من سلوك بعض المجاهدين في اكتناز الثروات من الحرب، واستغلال الجهاد والفتح للسيطرة على أموال الناس وأرزاقهم:

((عن زيد بن أسلم عن أبيه أن عمر استعمل مولى له يُدعى هنياً على الحمى، فقال "يا هنيّ! اضمم جناحك عن المسلمين واتق دعوة المظلوم فإن دعوة المظلوم مستجابة، وادخل ربَّ الصريمة وربَّ الغنيمة[4]، وإياك وعثمان بن عفان وابن عوف فإنهما إن تهلك ماشيتهما يرجعان إلى زرع ونخل... وأن ربَّ الصريمة وربَّ الغنيمة

[4] الصُريمة تَصْغِير الصرمة: وهو القطيع من الإبل نحو الثلاثين، والغنيمة: القطيع من عشرين شاة أو بعيراً، والمقصود أدخلهما في أرض الحمى ليرعيا فيها، لأن رزقهم قليل بخلاف ذوي الأملاك الكبيرة كابن عوف وابن عفان لان لديهم ما يستأجرون به من أرض الرعي ولا ينبغس إعطاؤهم من مال الدولة.

أن تهلك ماشيته يأتني ببنيه فيقول يا أمير المؤمنين! أفتاركهم أنا؟ لا أبالك! فالماء والكلأ أيسر عليَّ من الذهب والورق..." [5]

ثم تحدث عن حقِّهم في أرضهم ورزقهم فقال: "إنهم ليرون أني قد ظلمتهم... إنها لبلادهم قاتلوا عليها فى الجاهلية وأسلموا عليها فى الاسلام، والذي نفسى بيده لولا المال الذى أحمل عليه فى سبيل الله ما حميت عليهم من بلادهم شبراً".

وهكذا فقد قام عمر بن الخطاب بإصلاح جوهري في فقه الجهاد، وقطع تقاليد الحرب التي كانت سائدة في تلك الفترة من الزمن، وألغى مبدأ سيادة المنتصر على المهزوم، وراقب بدقة توجهات أمراء الحرب، ودعا إلى أن تكون الحروب في أضيق نطاق، وأن تتوقف كلُّ الأطماع التي تحرك المحاربين للقتال، من الغنيمة والفيء والمكاسب، وبذلك تحدد الجهاد في هدفه الرئيس وهو ردُّ الاعتداء ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ١٩٠﴾ [البقرة: ١٩٠] وهذه المعاني متصلة تماماً بهدي القرآن الكريم حيث عاب القرآن الكريم أشدَّ العيب على أولئك الذين يخرجون إلى الجهاد من أجل الغنائم وينازعون فيها: ﴿سَيَقُولُ ٱلۡمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقۡتُمۡ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأۡخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعۡكُمۡۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُواْ كَلَٰمَ ٱللَّهِۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمۡ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبۡلُۖ فَسَيَقُولُونَ بَلۡ تَحۡسُدُونَنَاۚ بَلۡ كَانُواْ لَا يَفۡقَهُونَ إِلَّا قَلِيلٗا ١٥﴾ [الفتح: ١٥]

وهي تتصل مباشرة بنهي القرآن الكريم عن اكتناز الثروات بالحروب، ووجوب أن توزع المغانم في تحقيق العدالة الاجتماعية، ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذي القربي واليتامى والمساكين وابن السبيل كيلا يكون دولة بين

[5] البخاري، محمد بن إسماعيل، الجامع الصحيح ج 4 ص 71

الأغنياء منكم.﴿ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ﴾ [الحشر: ٧]

ويعدُّ هذا الإصلاح أهم إصلاح جوهري في رسالة الجهاد، وفيه كف أيدي المحاربين عن قسمة الأموال والإدارة الاقتصادية، وأعاد الاعتبار إلى الدور المركزي للدولة في إدارة الاقتصاد، والاحتفاظ بقرار الحرب بيد الدولة، والتأكيد على دور المحاربين في حماية البلاد والدفاع عن الناس ومنع تحولهم إلى أمراء حروب.

موافقات عمر بن الخطاب:

موافقات عمر مصطلح أطلقه الرواة والمحدثون للإشارة على عدد من القضايا الاجتهادية التي انفرد بها عمر بن الخطاب، وعدَّت اجتهاداً في مورد النص؛ إذ كان عمر بن الخطاب يقترح أمراً في الشريعة، على أساس من الرأي، ثم يحاور به رسول الله فيقره الرسول الكريم أو ينزل على وفقه قرآن يتلى يؤكد صواب ما ذهب إليه عمر.

وقد سميت هذه المسائل **موافقات عمر بن الخطاب**، وكان يقول: "وافقت ربي في بضع عشرة مسألة"، وهو لون من الأدب الرفيع، إذ لم يقل وافقني ربي وإنما قال: "وافقت ربي"، وفي المآل فإن الأمر واحد وهو أن الشريعة جاءت على وفق ما طلبه الناس وفق مصالحهم على الوجه الذي اقترحه عمر بن الخطاب.

وتبلغ الموافقات التي رواها المحدثون لعمر بن الخطاب نحو عشرين موقفاً في حياة الرسول وقد جمعها عدد من المحدثين ومنهم:

- الإمام السيوطي في كتابه ((قطف الثمر في موافقات عمر)).

- بدر الدين الحسني في كتابه ((فتح الوهاب في موافقات عمر بن الخطاب))
- حامد العمادي الدمشقي في كتابه ((الدر المستطاب في موافقات عمر بن الخطاب))
- عبد الرحمن بن جعفر الكتاني في كتابه ((كشف النقاب عن موافقات عمر بن الخطاب))

وتكشف التسمية واشتهارها واهتمام الفقهاء بها إلى الدور المحوري الذي قام به عمر بن الخطاب في منح العقل دوراً أكبر في التشريع، وهي جهود صدرت من صاحبها في عهد النبوة وفي وجود الرسول الكريم، ولا شك أن اجتهاده بعد رحيل الرسول كان أكثر حضوراً وتأثيراً ومناطاً، حتَّى قال مجاهد بن جبر "كان القرآن يتنزل على وفق رأي عمر".

وفيما يلي شرح بهذه الموافقات التي ذكرها المحدثون كما أوردها السيوطي، وقد أضفت إليها ما فيها معناها:

- اجتهاده واقتراحه في ابتكار صلاة الحرم الشريف عند مقام إبراهيم.
- اقتراحه بنزول آية: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ وَأَسۡرَىٰ حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾[الأنفال: ٦٧]
- اقتراحه آية: ﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ وَجِبۡرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٞ ٤﴾ [التحريم: ٤]
- اجتهاده في منح الخصوصية لبيت الرسول واقتراح الحجاب على نسائه.
- اجتهاده في وجوب تحريم الخمر ببيان قرآني صريح.

- اقتراحه آية ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٧]
- اقتراحه آية ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾[البقرة: ٢٢٣]
- اقتراحه منع الصلاة على من يثبت نفاقه ويشتهر بين الناس.
- اقتراحه الآية في براءة عائشة.
- اقتراحه بنزول آية: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ﴾ [التوبة: ٨٤]
- اقتراحه آية: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ۝٥﴾ [التحريم: ٥] فنزلت الآية كذلك
- اقتراحه بوجوب الاحتكام لقضاء الرسول وفيه نزلت: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ﴾ [النساء: ٦٥]
- اقتراحه بفرض الاستئذان وقد نزلت فيه آية سورة النور.
- اقتراحه آية: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ۝١٤﴾ [المؤمنون: ١٤]
- نسخ آية الرجم رسماً من القرآن الكريم.
- اقتراحه في الأذان أشهد أن محمداً رسول الله.
- اقتراحه آية: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾[الأحزاب: ٤٣]

- اقتراحه آية: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [المجادلة: ٢٢]

وبعد وفاة الرسول الكريم:

- موقفه ضد حروب الردة خلافاً لظاهر الحديث: "من بدل دينه فاقتلوه"
- موقفه في وجوب جمع القرآن الكريم خلافاً لظاهر آية سورة القيامة
- موقفه في وجوب محاكمة الصحابة الذين يرتكبون الإثم خلال المعارك
- تحريمه متعة الحج لمنع تحول الحج إلى نشاط سياحي خلافاً لظاهر آية البقرة
- تحريمه نكاح المتعة حماية للفضيلة والأسرة خلافاً لظاهر آية النساء
- منع قسمة الأرض بين الفاتحين خلافاً لظاهر آية الأنفال
- أوقف إقامة الحدود وبشكل خاص حدَّ القطع في السرقة خلافاً لآية المائدة
- أوقف سهم المؤلفة قلوبهم خلافاً لآية التوبة
- حاكم عدداً من الصحابة: خالدًا وأبا هريرة وابن مسعود
- أقرَّ النصارى على حكم القدس وكنائسهم فيها خلافاً لآية التوبة

وربما كانت أوضح صيغة تكشف لك عن رؤية عمر في تطور الشريعة وتغير الأحكام بتغير الأزمان، هو موقفه في مواجهة نكاح المتعة الذي انتشر خلال حج المتعة، وحين سأل الصحابة في ذلك كانوا يحتجون بأنهم فعلوا ذلك في عهد أمير المتقين صلى الله عليه، وحين درس عمر المشكلة بعمق وأيقن أن الأمر بات حيلة شرعية ماكرة يتم فيها استغلال حج التمتع للترويج لنكاح المتعة وقف بحزم وقال:

"متعتان كانتا على عهد رسول الله حلالاً، أنا أحرمهما وأعاقب عليهما!"

وفي الواقع فإنها شجاعة نادرة ترويها الأمة بإعجاب عن الخليفة الفاروق تحت عنوان عريض هو **موافقات عمر** او **اجتهادات عمر** التي كانت في الحقيقة اجتهادا شجاعاً في مورد النص، وهي التي أسست للقواعد الفقهية الذهبية مثل لا ينكر تغير الأحكام بتغير الأزمان وحيثما كانت المصلحة فثمَّ شرع الله. ولكلِّ زمان فقه ورجال. والحكم يدور مع علته وجوداً وعدماً. وغير ذلك من كلام المذهب للأئمة الفقهاء وفق الشعار الذي أطلقه رسول الله بقوله: "أنتم أعلم بأمور دنياكم".

لا يرتوي القلم من روائع فقه عمر بن الخطاب واجتهاده في بناء الحياة والعدالة، بعد أن صارت إصلاحاته مدرسة مضيئة في الفقه الإسلامي، وأصبحت معلم إبداع ونور في الفقه الحقوقي العالمي.

عائشة بنت أبي بكر

نسبها	عائشة بنت أبي بكر بن أبي قحافة بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم القرشية
ألقاب أخرى	أُم المؤمنين، حبيبة رسول الله، حبيبة المصطفى، حبيبة الحبيب، المبرَّأة، الطيِّبة، الصِدّيقة، مُوفَّقة، عائش، أُم عبد الله، الحُميراء ابنة الصِدّيق
الولادة والوفاة	604-678 م/19 ق.هـ-58هـ
ارتحالها	ولدت بمكة وهاجرت إلى المدينة وخرجت للحج بمكة وللقتال في الكوفة بالعراق وعادت إلى المدينة
روايتها	لها 2213 حديثاً منها 315 حديثاً في البخاري ومسلم
أهم الكتب التي أُلفت عنها	
أهم الأفكار	• تمكين حقِ المرأة من حقوقها الاجتماعية والسياسية. • تمكين المرأة في العلم ومصادر المعرفة • تأكيد مكانة المرأة في الأسرة والفن والموسيقا • تشجيع الرأي الحر والنقد البنَّاء وردُّ الوراية التي تخالف العقل
مساجد بنيت باسمها	مئات المساجد والمدارس والجمعيات اختارت اسم عائشة الصدِّيقة
الضريح	في البقيع بالمدينة المنورة

ونختار في الواقع السيدة عائشة رضي الله عنها من سيدات بيت النبوة تقديراً لدورها الكبير في الوعي الإسلامي، ونختار عائشة؛ إذ هي أولى النساء بالتزام قيم الإسلام ومناهجه، ويقول مسروق: "رأيت المشيخة من أصحاب محمد إذا أشكل عليهم الأمر من العلم يسألون عنه عائشة، وكان الأكابر من أصحاب النبي يسألون عائشة في الفرائض."

وكان الأحنف بن قيس يقول: "سمعت خطبة أبي بكر وعمر وعثمان وعلي والخطباء هلم جرا فما سمعت الكلام من فم مخلوق أفخم ولا أحسن منه من عائشة". وقال عطاء: "كانت عائشة أعلم الناس وأفقه الناس وأحسن الناس رأياً في العامة".

وقد أورد الذهبي في ((سير أعلام النبلاء)) أسماء أكثر من مئة وستين رجلاً تتلمذوا على يد عائشة، وأخذوا عنها العلم والرواية منهم إبراهيم التيمي وطاوس والشعبي وسعيد بن المسيب وسعيد بن العاص وسليمان بن يسار وزر بن حبيش وعكرمة مولى ابن عباس وقيس بن أبي حازم وغير هؤلاء كثيرون.

وقال عروة بن الزبير: "لقد صحبت عائشة فما رأيت أحداً قط كان أعلم بآية نزلت، ولا بفريضة، ولا بسنة، ولا بشعر، ولا أروى له، ولا بيوم من أيام العرب، ولا بنسب ولا بكذا ولا بكذا، ولا بقضاء، ولا بطب، من عائشة."

وكانت عائشة ربما روت القصيدة ستين بيتاً وأكثر، فلم يكن لها فيها عثرة أو عكة. وقد كانت عائشة حرَّة الرأي، جريئة في الفتيا، ومراراً خالفت رأي صحابة كبار، وصوبت آراءهم وأفكارهم ومروياتهم، حتَّى إن الإمام السيوطي صنف كتاباً خاصَّاً أسماه: ((عين الإصابة في استدراكات عائشة على الصحابة)).

وقال الزركشي في مقدمته: "هذا كتاب أجمع فيه ما تفردت به عائشة أو خالفت فيه سواها برأي منها، أو كان عندها فيه سنة بينة، أو زيادة علم متقنة، أو أنكرت فيه على علماء زمانها، أو رجع فيه إليها أجلة من أعيان أوانها أو حررته من فتوى، أو اجتهدت فيه من رأي رأته أقوى".

وقد بلغ عدد الذين استدركت عليهم عائشة فردَّت أقوالهم أو فتاويهم أو مروياتهم ثلاثة وعشرين من أعلام الصحابة فيهم عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب وأبو هريرة وعبد الله بن عمرو وعبد الله بن عباس وذلك في تسع وخمسين مسألة مختلفة.

ولا بأس أن ننقل هنا ما كتبه الأستاذ سعيد الأفغاني في مقدمة تحقيق الإجابة: "سلخت في دراسة السيدة عائشة سنين عدداً، كنت فيها أمام معجزة لا يجد القلم إلى وصفها سبيلاً، وأخصُّ ما يبهرك فيها علم زاخرٌ كالبحر بعد غور، وتلاطم أمواج وسعة آفاق، واختلاف ألوان، فما شئت إذ ذاك من تمكن في فقه أو حديث أو تفسير أو علم بشريعة أو آداب أو شعر أو أخبار أو أنساب أو طب أو تاريخ إلا وأنت واجد ما يروعك عند هذه السيدة".

وقد بلغ عدد تلاميذ عائشة من الصحابة والتابعين: مئتان وتسعة وتسعين تلميذاً منهم سبعة وستون امرأةً ومئتان واثنان وثلاثون رجلاً.

ومع أنها عاشت في القرن الأول الهجري، ولكنها استطاعت أن تناضل لتعزيز مكانة العقل والحرية في الإسلام، وفي حين يروى عن عائشة دورها كزوجة للرسول الكريم، فإنني هنا سأتجاوز ذلك وأكتفي ببيان دورها كامرأة حرة مؤسسة لتيار عقلاني رشيد له امتداده وحضوره في التاريخ الإسلامي.

مشاركتها السياسية

ويمكننا التماس أوضح صورة لمشاركة المرأة في الحياة السياسية من خلال مواقف السيدة عائشة بنت أبي بكر، زوجة النبي الكريم، فقد كان رأيها السياسي حاضراً في المواقف كلِّها بدءاً من عهد النبوة وهي لم تكن تتجاوز الثامنة عشرة مروراً بأيام أبي بكر وعمر، إلى مشاركتها في النضال السياسي أولاً ضدِّ عثمان بن عفان في بعض مواقفه، حول مسائل توليه قراباته وتردد إدارته، وهي معارضة سلمية ديمقراطية كانت تتوخى فيها المصلحة العامة، حتَّى إذا عدا الثائرون على عثمان وقتلوه، وتحولت المعارضة إذن إلى ميليشيا مسلحة، وأصبح مستقبل الأمة على كف عفريت، تقرره تلك الميليشيا الهائجة قامت السيدة عائشة لتنهض بدور رسالي آخر؛ إذ توجهت من فورها إلى البيت الحرام، وحشدت جموعاً فاعلة من القوى المؤثرة، وألقت خطبة نارية في القوم، تحشد التأييد لتكوين جبهة سياسية ذات نشاط مسلح بغرض مقاومة التمرد والانتصار للشرعية.

وبالفعل فقد قادت السيدة عائشة جيشاً قوامه أكثر من عشرة آلاف مقاتل، وفق أدنى التقديرات، وفيهم كبار الصحابة أمثال طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام ومحمد بن أبي بكر ومحمد بن جعفر، وتوجه الجيش صوب البصرة، وغلب عاملها عثمان بن حنيف وبدأت الإعداد لمواجهة عسكرية فاصلة.

وليس المطلوب هنا تفصيل تلك الأحداث الدامية أو تحديد المخطىء والمصيب فيها، بقدر ما يتطلب الأمر التماس الدلالات الشرعية التي كانت الأمة تقرؤها في تصرف زوجة النبي، وهي بلا ريب من أهل العلم اللائي تندرج أقوالهن وأفعالهن في منزله رفيعة من الاحترام.

إننا إذن أمام وعي مبكر بمقاصد القرآن الكريم، يظهر على لسان أقرب الناس إلى الرسول، وهي السيدة التي شهد لها النبي الكريم، أنه تلقى الوحي في فراشها، وشهد لها بقوله: «فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام»[6].

ولا زالت السيدة عائشة تتبوأ أعلى منزلة من الاحترام في الفقه الإسلامي، وينظر إلى روايتها وفتاواها في أعلى درج الاحترام والمنزلة الفقهية الرفيعة.

والسيدة عائشة من جانب آخر هي المقصود مباشرة بالآية ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ﴾ [الأحزاب: ٣٣] إذ هي من زوجات الرسول اللاتي جاء الخطاب أصلاً بخصوصهن، ولكنها مع ذلك لم تفهم من هذا النص القرآني أكثر من لزوم اهتمام المرأة ببيتها، وقيامها بشؤونه فيما رأت أن ذلك لا يتعارض مع دورها الرسالي في الحياة في الجوانب التي تتطلب خروجها ومشاركتها.

ومن المناسب هنا أن نذكر أن الآية الكريمة (وقرن في بيوتكن) قرئت على وجهين بالتواتر: وقَرن[7] بالفتح من الاستقرار، وقِرن[8] بالكسر من الوقار، ولا شك أن المعنيين مرادان جميعاً، وغير متعارضين، والقاعدة هنا أن تعدد القراءات ينزل منزلة تعدد الآيات.

وهكذا فقد كان خيار عائشة في فهم الآية واضحاً، واطِّراح مطلقيتها في الزمان والمكان، وعدَّها مسألة أولويات؛ إذ لا ينبغي أن تكون مشاركة المرأة في الحياة العامة على حساب بيتها وأطفالها ومسؤولياتها، وهي المسؤوليات التي رأت عائشة نفسها

---

[6] أخرجه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي عن أنس، انظر البخاري، رقم 3230.
[7] وهي قراءة عاصم ونافع، وهي متواترة إلى النبي صلى الله عليه وسلم.
[8] وهي قراءة الباقين وهي متواترة إلى النبي صلى الله عليه وسلم.

في حلٍّ منها بعد وفاة زوجها الرسول؛ إذ لم يكن لها أولاد تتطلب خدمتهن القرار في البيوت.

ولست أزعم هنا أن الفهم الذي تخيرته عائشة ومن كان معها من خيار الصحابة كان محل إجماع واتفاق بين علماء الصحابة وسيدات بيت النبوة، حيث أنكرت بعض نساء النبي على عائشة خروجها هذا استدلالاً بالآية المذكورة «وَ قَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ » ومضى خيارهن في اتجاه إطلاق حكم النص في تحريم كل خروج.

وهكذا فإن مشاركة المرأة في النشاط السياسي العام لم تكن محل اتفاق بين زوجات الرسول، ولكن ذلك على أقل تقدير رأي أكثرهن علماً وأطولهن صحبة باتفاق وهي السيدة الكريمة عائشة.

ويمكن عدُّ موقف عائشة بمثابة فتوى في حقِّ المرأة في بلوغ منصب رئيس أركان جيش، وقيادتها لنشاط سياسي وعسكري ينضوي تحته أكثر من ألف من أصحاب النبي، فيهم نصف أهل الشورى، مجلس الحل والعقد، اثنان من أصل الأربعة المرضيين الذين عاصروا الأحداث وهما طلحة والزبير اللذين كانا مع عائشة، وكذلك فإن علي بن أبي طالب خصمها السياسي الذي لم ينازعها في مشروعية الخروج وإنما نازعها في مبرراته وغاياته.

مشاركتها في دعم الفن والموسيقا والجمال:

تصدت عائشة بشجاعة ووضوح لبيان موقف متحضر من الفنون والموسيقا، وخصوصاً في بيان إباحة الغناء والفن للنساء، وارتبط اسمها الكريم بعدد من الأنشطة الفنية الهامة في المدينة، وعن عائشة قالت: "دخل علي النبي صلَّى الله عليه وسلَّم وعندي جاريتان تغنيان بغناء بعاث، فاضطجع على الفراش وحول وجهه، ودخل

أبو بكر فانتهرني وقال: مزمارة الشيطان عند النبي، فأقبل عليه رسول الله فقال: دعهما، فلما غفل غمزتهما فخرجتا».[9]

وفي رواية أخرى قال لأبي بكر: "يا أبا بكر إنَّ لكلِّ قوم عيداً وهذا عيدنا".[10]

وفي رواية أخرى قالت عائشة: "وعندي جاريتان تدففان وتضربان".[11]

وقد ورد حديث غناء الجواري وضربهما بالدف أمام النبي الكريم أكثر من اثنتي عشرة مرَّة في صحيحي البخاري مسلم، وأكثر من خمسين مرَّة في الكتب التسعة، وأشار ابن حجر العسقلاني في كتابه ((الإصابة)) إلى المغنية، وترجم لها باسم: حمامة المغنية.

وعلى الرغم من هذه الروايات المتواترة الكثيرة فإن دلالات هذا الحديث تبدو غير موجهة في عمل كثير من الفقهاء، وظلَّ غناء المرأة الملتزم مطارداً كأنه سبة أو عار، وأغلق هذا الباب بضراوة الأمر الذي فسح السبيل أمام فن منحط لا يبالي بالقيم ولا بالفضائل، ولا يتورع عن فعل أيِّ شيء في سبيل إثارة الغرائز.

وأخرج الطبراني من حديث عائشة أنَّ النبي مرَّ بنساء من الأنصار في عرس لهن وهن يغنين:

وأهدى لها كبشاً تنحنح في المربد
وزوجك في البادي وتعلم ما في غد

[9] رواه البخاري في الجامع الصحيح جـ1 كتاب العيدين ـ باب الحراب والدرق في العيد.
[10] مصدر نفسه ـ باب سنة العيدين لأهل الإسلام حديث رقم 909.
[11] المصدر نفسه ـ حديث رقم 944.

فقال: لا يعلم ما في غد إلا الله.[12]

وعن عائشة أنها زفت امرأة إلى رجل من الأنصار، فقال لها النبي صلى الله عليه وسلم: "يا عائشة هل معكم لهو فإن الأنصار يعجبهم اللهو".[13]

وفي رواية قال: "هل بعثتم معها جارية تضرب بالدف وتغني؟ قلت: تقول ماذا؟ قال: تقول:

أتيناكم أتيناكم فحيانا وحياكم
ولولا الذهب الأحمر ما حلت بواديكم
ولولا الحنطة السمراء السمراء ما سمنت عذاريكم

ثم قال: أدركيهما يا زينب، لامرأة كانت تغني بالمدينة.

ومن المعلوم أنَّ هذا الغناء والدف كان في براح المدينة بحيث يراهن الرجال وهن يزففن الفتاة إلى زوجها.

واشتهرت عائشة كمعلمة فريدة للنساء في دروس الفن والجمال، وأجابت امرأة سألتها عن بعض فنون العرب في التجمل من الحناء والنمص فقالت: إذا استطعت أن تنزعي عينيك من موقهما فتجعليهما أجمل مما كانا رضىً لزوجك فافعلي.

[12] نقلاً عن فتح الباري حـ11 ص109
[13] رواه البخاري، كتاب النكاح، باب النساء يزففن العروس لزوجها.

مشاركتها في التنوير الديني:

يمكن أن نشير إلى الدور القيادي الذي قامت به عائشة الصديقة من خلال تصديها للعلم والرواية، وقدرتها على مواجهة التصورات المحافظة والاندفاع نحو تصورات أكثر عقلانية ووعياً في الفقه الإسلامي

ولا نحتاج في هذا السياق أكثر من الإشارة إلى كتابين مهمين:

- ((الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة)) للزركشي.
- ((عين الإصابة في استدراكات عائشة على الصحابة)) للسيوطي.

وقد رصد فيهما الزركشي والسيوطي إلى غاية واحدة وهي استدراكات عائشة على الصحابة وردها على عدد من الروايات التي نسبها الصحابة للنبي الكريم، وفيها تظهر شخصية عائشة الرائدة في النهوض برسالة العقل، ومواجهة الفهم الظاهري للنصوص.

وقناعتي أن عائشة ردت عدداً من النصوص وهي تعلم أنها من كلام الرسول نفسه، ولكنها ردتها لاعتبارات وجيهة منها ما يتصل بتطور الزمان ومنها ما يتصل بطبيعة الخطاب وخصوص السبب الوارد فيه.

ومع أن الزركشي والسيوطي لم يقصدا قط إلى إظهار هذا المعنى في السيدة عائشة وإنما كانا يخدمان علم الرواية المحض، ولكن الغاية التي نشير إليها لا يخطِئها باحث موضوعي.

ومن استقراء مسائل الكتابين نشير إلى طائفة من فتاوى السيدة عائشة الجريئة في تقديم العقل على النقل، والشجاعة في رفض الرواية إذا اشتملت على تمييز ضد النساء أو استهانة بكرامة الإنسان.

- ردها على حديث أبي هريرة: "يقطع الصلاة الكلب والحمار والمرأة"! والحديث في صحيح مسلم، والحديث هنا من رواية أبي هريرة عن رسول الله، ولا شكَّ عند المحدثين في سند كهذا، ولكن عائشة اعترضت أشدَّ الاعتراض على المضمون وغضبت غضباً شديداً وقالت: شبهتمونا بالكلاب والحمير؟ لقد كان رسول الله يصلي إلى السرير وأنا عليه مضطجعة وكان السرير بينه وبين القبلة.
- ردها على حديث: "الشؤم في ثلاث المرأة والدابة والدار"، والحديث محفوظ في كتب الرواية من رواية البخاري عن أبي هريرة.

ويشير الرواة أنَّ عائشة حين علمت بهذا الحديث غضبت أشدَّ الغضب، وفي مسند أحمد قال: فطارت منها شقة في السماء وشقة في الأرض، وقالت غاضبة مستنكرة: "لم يحفظ أبو هريرة"، وفي رواية "نسي أبو هريرة"، وفي رواية "كذب أبو هريرة".

ثمَّ راحت عائشة تشرح أنَّ ذلك من شأن أهل الجاهلية وأنَّ الإسلام رسالة تحرر وكرامة، فما معنى بقاء هذه الأوهام؟ وقد أبطل الإسلام ذلك كله!
وفي رواية: "لم يحفظ أبو هريرة"، إنما قال رسول الله: "قاتل الله اليهود، كانوا يقولون: الشؤم في ثلاث: المرأة والدابة والدار".

وقد أظهرت عائشة موقفاً جريئاً في تمكين المرأة ورفض تهميشها ورفض التشاؤم بها.

- كما ردَّت عائشة على ابن عمر وهو فقيه جليل وصحابي كبير روايته لحديث "إن الميت ليعذب ببكاء أهله عليه"، والحديث اليوم في الصحاح رواه البخاري

في الصحيح، وقالت: والله ما قال رسول الله هذا، وقرأت: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾[الإسراء: ١٥] وبذلك انتصرت لمبدأ مسؤولية الإنسان عن فعله، ورفضت أن يحاسب الإنسان على جناية غيره.

- وردت على حديث أبي هريرة عن النبي الكريم: "من غسل ميتا اغتسل ومن حمله توضأ"، والحديث من رواية عبد الرزاق الصنعاني في مسنده عن أبي هريرة، فبلغ ذلك عائشة فقالت: أو ينجس موتى المسلمين؟ وما على رجل لو حمل عوداً؟"
- وردت عائشة على حديث رواه مسلم عن عبيد بن عمير، وفيه أن ابن عمر يأمر النساء إذا اغتسلن أن ينقضن رؤوسهن، وكان ابن عمر إذا أفتى في المسألة رفعها الناس للنبي الكريم لمكان دقته في الاتباع والتأسي، وحين بلغ الحديث عائشة غضبت أشدَّ الغضب وقالت: "أفلا أمرنا أيضاً أن نحلق رؤوسنا؟!" وكانت تشير بضيق إلى تدخل الرجال في حاجات النساء، فما عسى يأمر الشرع امرأة تبحث عن التزين والتجمل وهي أدرى بذلك، ولماذا يتدخل الرجال حتى يمنعونا من التزين فيما فيه رغبة النساء وحاجتهن.
- وكذلك ردت على ابن عمر حديثه: "إن موت الفجأة سخطة على المؤمنين"، وهو حديث أخرجه الطبراني، ولكن عائشة رأت فيه موقفاً تربوياً غير أخلاقي، فالموت قدر إلهي يصيب المؤمن وغير المؤمن، ومن الضلال الأخلاقي أن ننسب إلى ميت الفجاة سخط الله، وأن نربط هذه الأقدار التي لها أسباب فيزيائية وعلمية معروفة بأقدار من الغيب.
- وكذلك ردت عائشة على حديث أخرجه الحاكم في المستدرك عن أبي هريرة أن رسول الله قال: "ولد الزنى شرُّ الثلاثة"، وقد غضبت عائشة من هذه الرواية

غضباً شديداً وهاجمت أبا هريرة بقولها: إنّ أبا هريرة أساء سمعاً فأساء فهماً، وذلك أن ولد الزنى طفل لا ذنب له، وعلى المجتمع أن يقوم بواجبه حيال هذا الطفل وألَّا يعاني من أيِّ تمييز ضدَّه بسبب ذنب لا يد له فيه.

- وردت كذلك على حديث عروة بن الزبير الذي رفعه للرسول الكريم: "لأن أمتع بسوط في سبيل الله أحبُّ إلي من أعتق ولد الزنى"، فأنكرت ذلك كله وقرأت فيه موقفاً تمييزياً ضدَّ طفل لا ذنب له في شيء، إلا أن أبويه كانا طائشين فأنجباه من حرام، وبدا الرسول هنا كما يتحامل على المولود ولا ذنب للمولود.
- وردت كذلك على حديث: :"لا يحل لامراة أن تسافر إلا ومعها ذو محرم"، وهو من رواية أبي سعيد الخدري وقد أخرجه أبو داوود وابن حبان والبيهقي، ولكن عائشة ردت هذه الرواية التي تقيد حياة المرأة وتفرض عليها رهقاً، وقالت: "أولكلكم محرم"؟ وقد سافرت عائشة إلى الحج وإلى القتال وليس معها محرم، وبذلك فقد اختارت رفض التمييز ضدَّ المرأة في السفر، وأرشدت إلى توفير الأمن للمرأة بوسائل أخرى ليس بالضرورة أن تكون اصطحاب الأرحام.
- وردت كذلك حديث أبي طلحة عن رسول الله: "لاتدخل الملائكة بيتاً فيه كلب أو تمثال"، وهو حديث مشهور أخرجه النسائي، ورأت في ذلك تضييقاً على الناس وجحوداً للفن والموهبة، وأشارت أنَّها كانت تطرز الوسائد في بيت الرسول بالتصاوير، وأما الموقف المتشدد من الكلاب فقد رأت أنه لا مبرر له، فالكلب طواف عليكم وهو حيوان أليف يحرس ويصيد، وقالت: "كانت الكلاب تقبل وتدبر في مسجد رسول الله ولم يكن ينهاهم".

- وردت كذلك على شيبة بن عثمان، وكان حاجب الكعبة المشرفة، وقد منحه الرسول الكريم هذا المنصب في حديث مشهور، وحين أخبرها شيبة بأنهم إذا أرادوا تجديد ثوب الكعبة ينزعون الثوب القديم فيدفنونه في جوف الأرض حتى لا تلبسه الحائض والنفساء، وهنا أنكرت عائشة ذلك غاية الإنكار، ورأت فيه امتهاناً للمرأة وتبخيساً لمكانها، وقالت: وما يضر ثوب الكعبة أن تلبسه النساء؟ وبذلك فقد أرادت بيان كرامة المرأة ونزع الصنمية عن الكعبة المشرفة التي يتوهما الناس.

عمر بن عبد العزيز:

الاسم الكامل	عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف
ألقاب مشهورة	خامس الخلفاء الراشدين
التاريخ	60-101 هـ /682-720م
الولادة والارتحال والوفاة	ولد بدمشق وحكم خناصر قرب حلب ثم المدينة ثم عاد إلى دمشق وأصبح خليفة المسلمين من 99-101 هجرية، ومات في إدلب
أهم ما ألف عنه	تاريخياً كتب ابن الجوزي وابن عبد الحكم كتاب سيرة عمر بن عبد العزيز، وصدرت عنه مئات الكتب وفيما يلي بعضها باللغات العالمية المختلفة 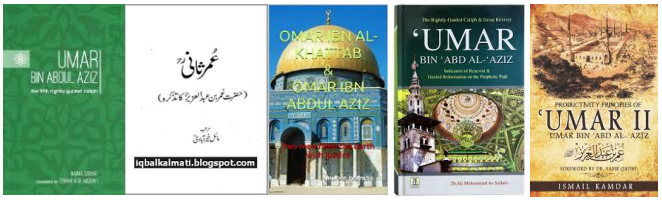
أهم من تأثر فيهم	الصحابة، والخلفاء الأمويون، ورجاء بن حيوة، ويوحنا الدمشقي، وغيلان الدمشقي
أهم من تأثروا به	الأجيال الإسلامية التالية كلها
أهم القضايا التي نادى بها	• العدالة الاجتماعية • منع امتيازات السلطة الحاكمة • الاجتهاد الجماعي • وقف الفتوح العسكرية
مساجد بنيت باسمه	هناك آلاف المساجد التي بنيت باسمه في العالم الإسلامي
أفلام عنه	مسلسل عمر بن عبد العزيز بطولة "نور الشريف" إضافة إلى عشرات الأفلام والحلقات الوثائقية عن عمر بن عبد العزيز
الضريح	الأشهر أن ضريحه في دير شرقي عند معرة النعمان، ويقال: بل في حمص، ويقال: بل في القنوات بدمشق.

لا يختلف اثنان على مكانة عمر بن عبد العزيز وإمامته وأهليته لما وصفته به الأمة من أنه الخليفة الراشدي الخامس.

ومع أن سياسته في الحكم كانت صارمة إلى الغاية في مكافحة الفساد، ولكنه تميز بمواقف دقيقة جداً في مواجهة ممارسات الفاتحين، فقد كان الحجاج بن يوسف الثقفي الرجل القوي في الدولة الأموية قد تبنى خيار الفتوح والحروب تأسيساً على ضلال الأمم ووجوب اجتثاثها أو إرغامها على دفع الجزية وهي صاغرة، وقد سار في هذا الركاب محاربون كثر، وبخاصَّة في شرق العالم الإسلامي، واشتهر بخاصَّة قتيبة بن مسلم الباهلي ومحمد بن القاسم الثقفي، ومن المحزن أننا ندرس الرجلين كأبطال فتح ومجد، في حين أنَّ كلَّ سطر في الحروب التي خاضوها كان يمثل انتهاكاً عميقاً لقيم السلام والتراحم وإخاء الإنسان والأديان.

كان عمر بن عبد العزيز شديد النقد لسلوك الفاتحين، وبخاصَّة أولئك الذين كانوا يرتبطون بالحجاج وبرامجه التوسعية القائمة على الإكراه والتوسع، وكان الحجاج يمكر بعمر بن عبد العزيز وقد نجح في عزله عن المدينة أيام الوليد، وكان عمر يتوعده، حتَّى كان الحجاج يدعو "اللهم اقبضني قبل أن يلي عمر"، وبالفعل ومن حسن ظنه أنه مات قبل سنوات من تولية عمر.

لقد كان يعدُّ حروب الفتح حروب سيطرة وغلبة، تسيء إلى جوهر الإسلام في بناء إخاء إنساني، وكان لا يرى أي بركة في دخول الشعوب في الإسلام بلا قناعة ولا حوار، ولذلك فإنه أوقف الفتوح على الفور، ونجح في إقامة علاقات متميزة مع المسيحيين خصوصًا، فاستوزر يوحنا الدمشقي وهو كاهن مسيحي بارز طوبه المسيحيون قديساً فيما بعد، وشكا له نصارى دمشق ضمَّ كنيستهم إلى المسجد

أيام الوليد فما زال يحاورهم ويستمع منهم حتى أرضاهم ببناء كنيسة كبرى في دمشق ما زال مكتوباً عليها كنيسة مار يوحنا الكبرى بناها الخليفة الراشدي عمر بن عبد العزيز، وأنشأ علاقات متميزة مع رجال الدين المسيحي في دمشق والقسطنطينية.

ومن عجائب ما قام به أنه استقدم وفداً من البنائين من نصارى الروم إلى المدينة المنورة حين كان والياً عليها لتجديد المسجد النبوي، وقد كان ذلك برأي الوليد وأمره، ويشير ابن الجوزي أنَّ الوليد بعث إلى صاحب الروم يعلمه أنه أمر بهدم مسجد رسول الله صَلى اللهُ عَلَيه وَسَلَّمَ، وأن يعينه فيه، فبعث إليه بمئة ألف مثقال من ذهب، وبمئة عامل، وبأربعين حملا من الفسيفساء، فبعث به إلى عمر، وتجرّد عمر لذلك[14]، وبالفعل تمَّ ذلك له، ولم نقرأ اعتراضاً في التاريخ على دخول النصارى إلى المدينة المنورة وقيامهم ببناء المسجد النبوي، ولا شك أن هذا يعكس موقفاً متقدماً من التسامح وإخاء الأديان.

ومن الواقعي تماماً أن نطرح اعتراضاً على ما يجري اليوم من منع غير المسلمين من دخول مكة والمدينة، وذلك استناداً إلى فتاوى متشددة للحنابلة، مع أن السلف كانوا لا يرون هذا كما رأيناه في هدي عمر بن عبد العزيز، وبالإمكان أن يتم التحول إلى فتوى عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، وهو المشهور عند الحنفية.

عمر بن عبد العزيز (الخليفة الإنسان)

لم يوافق قط على أن العالم عدو كافر ماكر، يجب قتاله، بل أمم أمثالنا، خلقهم الله ليتعارفوا، ولدينا كتاب مصدق لما بين يديه، ولديهم قيم مشتركة نبيلة، وعلينا أن

[14] ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ج6 ص284

نؤسس العلاقات الدولية على أساس من القانون والاحترام، وأن الحرب والثأر ليس شكل العالم المتحضر، بل السلام والحب والرحمة...

وحين ولي الخلافة أنجز مراجعات عميقة لحركة الفتوح ونصب محكمة دستورية هائلة في الشرق برئاسة القاضي جميع بن حاضر، وقد قامت المحكمة باستدعاء الحكام والجنرالات الكبار من رجال قتيبة، وبعد محكمة عظيمة أصدر القاضي أمره ببطلان الفتح وتناقضه مع قيم الإسلام العظيمة، وأمر عمر واليه على ما وراء النهر عبد الرحمن بن نعيم أن يقفل راجعاً بالمسلمين من بلاد ما وراء النهر إلى مرو، وأمر الجيوش الفاتحة أن تخرج من سمرقند وفرغانة وأعاد البلاد إلى أهلها، يختارون ما يشاؤون، وألغى على الفور الرسوم التي فرضها عليهم الفاتحون ومنها رسم الأعياد ورسم الزواج ورسم الفتوح التي كانت تجنيها الدولة من السكان، وهو ما كان يشكل مغنماً للمحارب وللدولة على حساب الشعوب المغلوبة...

لم تكن المحاكمة مجرد مصادفة بل كانت منهجاً عمرياً راشدياً، وحين كانت الجيوش تخرج من المدن، وتعيد للناس الغنائم المسلوبة منهم، كان الناس يدخلون في الدين أفواجاً، إن الناس لم تسلم بسيف قتيبة ولا بسيف محمد بن القاسم ولا ببطش الحجاج، وإنما أسلمت بعدل عمر.

وجعل على رأس أولوياته وقف نار العداوة مع النصارى وأمر الجيوش أن تنسحب على الفور وكان مسلمة بن عبد الملك وهبيرة بن عمر يحاصران القسطنطينية قبل توليه فأمرهم بالرجوع فوراً إلى دمشق، وأطلق علاقات دبلوماسية مسؤولة مع الروم، ونشأت بينه وبين الإمبراطور ليو الثالث علاقة احترام ومودة.

وتعدُّ العلاقة المدهشة التي قامت بين عمر وبين الامبراطور البيزنطي في غاية النجاح والغرابة، فقد جاءت عقب حملة دامية خاضها المسلمون لغزو القسطنطينية واستمرت سنين طويلة، وتذهب دراسات بيزنطية مهمة نشرها الدكتور عبد الوهاب القرش إلى تأثير هائل لعمر بن عبد العزيز على الأكلوجيا (التشريع البيزنطي) الذي أنجزه الامبراطور ليو الثالث والذي أسس فيه نظام أسرة شبيهاً بالشريعة الإسلامية، ومن المدهش أن المراسلات كانت تتم حول أدق تفاصيل العبادة وثبوت القرآن الكريم وخطه وشكله ونقطه، وكذلك في موقفه الصارم من منع عبادة الأيقونات حيث أعلن أن الأيقونات تفسد التوحيد ويجب أن تنزه عنها الكنائس كما هو الحال في المساجد...

ومن المدهش أن يوحنا الدمشقي الذي كان وزيراً في دولة عمر بن عبد العزيز رفض بالمطلق رأي الامبراطور ورأي عمر وتحداهما، وأطلق حملة معاكسة لتعظيم الأيقونات ومع ذلك فقد استمر في وزارته للأمويين إلى أيام هشام بن عبد الملك.

وأحسن عمر بن عبد العزيز في النصارى واستوزر منهم يوحنا الدمشقي، وحين اعترضوا على ما قام به الوليد من ضم الكنيسة الصغيرة للمسجد الكبير أنصفهم في كنيستهم وبنى لهم كنيسة مار توما الكبرى في دمشق، ولكنه منعهم من السلاح كله، وأمر أن لا يكون سلاح خارج الدولة.

ولعلَّ أكثر الأمور إدهاشاً أن عمر بن عبد العزيز اختار بنفسه أن يدفن في دير سمعان الشرقي قرب معرة النعمان[15]، وهو ما يطرح تساؤلاً مباشراً كيف يمكن أن

[15] حقق ياقوت الرومي في معجم البلدان أن ضريح عمر بن عبد العزيز في دير قرب المعرة يقال له دير سمعان، ولم يعد اسم سمعان يطلق على هذا الدير اليوم بل يقال له دير شرقي، ولكن يبدو أنه كان يسمى في الماضي بدير سمعان، ومما ذكره ياقوت في ذلك:
وقال كثير عزة:

نفهم ذهاب عمر بن عبد العزيز إلى معرة النعمان ليدفن في دير مسيحي وهو خليفة المسلمين ودولته تمتد من تخوم الصين إلى الأندلس؟

حتَّى إن بعض الظرفاء من النصارى قالوا إنَّ عمر قد استبصر واختار الخلاص بيسوع وطلب أن يدفن في دير ومات على الملة النصرانية!

والحقيقة فإنَّ الروايات كثيرة: إنَّ عمر بن عبد العزيز أصابه المرض أو السم على المشهور فيما كان في طريقه إلى حلب واشتدَّ المرض به عند معرة النعمان... ومن الطبيعي أن يأوي إلى الدير الموجود هناك حيث كان على صلة براهب الدير منذ

سقى ربنا من دير سمعان حفرة بها عمر الخيرات رهنا دفينها
صوابح من مزن ثقال غواديا دوالح دهما ماخضات دجونها

وقال الشريف الرضي الموسوي:

يا ابن عبد العزيز لو بكت العيـ ـن فتى من أمية لبكيتك
أنت أنقذتنا من السب والشتم فلو أمكن الجزا لجزيتك
دير سمعان لا عدتك العوادي خير ميت من آل مروان ميتك

وفيه يقول أبو فراس بن أبي الفرج البزاعي وقد مر به فرآه خرابا فغمه:

يا دير سمعان قل لي أين سمعان وأين بانوك خبرني متى بانوا؟
وأين سكانك اليوم الألى سلفوا قد أصبحوا وهم في الترب سكان
أصبحت قفرا خرابا مثل ما خربوا بالموت ثم انقضى عمرو وعمران
وقفت أسأله جهلا ليخبرني هيهات من صامت بالنطق تبيان
أجابني بلسان الحال: إنهم كانوا، ويكفيك قولي إنهم كانوا

وسمعان هذا الذي ينسب الدير إليه أحد أكابر النصارى ويقولون إنه شمعون الصفا، والله أعلم، وله عدة أديرة، الحموي، ياقوت الرومي، معجم البلدان ج 2 ص517

أن كان والياً على خناصر قبل عشرين عاماً وكانت لأمه أرض قريبة من أراضي المعرة، وبينها وبين مزارع خناصر بطريق الخيل نحو 60 كم...

غيلان الدِّمشقيّ

الاسم	غيلان الدمشقي
المولد والوفاة	حوالي 30 هجرية والوفاة 106هجري – الموافق 724م
الارتحال	ارتحل من مصر مع والديه فسكن العراق والمدينة ثم استقر في دمشق
المنصب	كان أمين المال وقاضي المحاسبات في زمن عمر بن عبد العزيز
أهم الأفكار التي عمل لها	• التأكيد على الحرية الإنسانية ورفض القدر • محاربة الفساد الإداري والسياسي • نزع الصفة الإلهية عن الحكام ووجوب اختيارهم شعبياً ومساءلتهم
كتب عنه	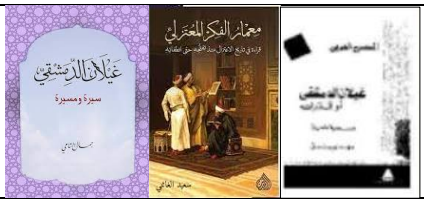
الوفاة	تمَّ إعدامه بأمر من هشام بن عبد الملك بتهمة الزندقة

غيلان الدِّمشقيّ

شهيد الحرية في دمشق

غيلان الدمشقي المتوفى 106 هـ ثائر من الطراز الأول قدَّم أنموذجاً فريداً للحرية الثائرة، وواجه الاستبداد وانقض على براهينه وحججه، ودفع حياته ثمناً للدفاع عن الحرية.

ولد غيلان في عائلة قبطية، ارتحلت إلى دمشق، وقد دخل أبوه في الإسلام أيام عثمان بن عفان، ونشأ الفتى في مشهد من التحولات الصاخبة، فاختيار دين دون دين ليس حدثاً عادياً، ولكنه قرار مصيري صارخ يحتاج إلى شجاعة ورؤية ووضوح.

نشأ غيلان موهوباً ذكياً، وبالفعل فقد ارتحل في طلب العلم وظهر نبوغه طفلاً، وسافر إلى البصرة وأخذ عن الحسن البصري، واعترض بشدَّة على تبرير مظالم الحجاج بأنها أقدار الله وقضاؤه، وأنها ذنوبنا، وكان غيلان يرفض ذلك كلَّه ويرى أنها مظالم ومآثم لا يبررها قدر الله بل تعالجها ثورة تحطم عروش الطغاة.

ثم تحول إلى المدينة وأخذ العلم عن الحسن بن محمد بن الحنفية، ولا شك أن الرجل ترك في نفسه أثراً من الاعتقاد بمظلومية أهل البيت، واعتراضاً على سلوك بني أمية، وبالفعل بات غيلان معروفاً بموقفه المنكر للقدر، وبخاصَّة في الاستخدام السياسي لعقيدة القدر فقد كان بنو أمية يكرسون حكمهم بثقافة القدر التي يتولى الواعظون نشرها في الشعب، بأن ما أصابكم هو قدر الله وأنَّ حكامهم هم أمر الله وقدره وأن عليكم أن تسمعوا وتطيعوا ولو أكلوا أموالكم وضربوا أبشاركم، أعطوهم حقهم

وسلوا الله حقكم، ولا يكون من ملكٍ ولا سلطان إلا هو قدر الله وقضاؤه، ويا عبادي لا تشغلوا أنفسكم بالدعاء على أمرائكم، فإن قلوبهم بيدي أصلحوا ما بيني وبينكم أصلح لكم حكَّامكم، وهذه هي معالم الخطاب السياسي الذي استخدمه الحجاج في قمع العراق :أنا قدر الله وحكمه وأمره، وقد ابتلاكم الله بي بذنوبكم، وإن أهل العراق قد بغوا وطغوا وأكثروا فيها الفساد فصبَّ عليهم ربك سوط عذاب، وأنا عذابه وانتقامه!

عاد غيلان إلى الشام وهو يمتلئ غضباً وثورة، وكان أستاذه الحسن بن محمد بن الحنفية يقول: ما رأت عيني مثل هذا الشاب توثباً وشجاعة، إنَّه حجة الله على بني أمية، ولكنه مقتول!

وفي الواقع فإن غيلان كان واحداً من فلاسفة الحرية في العصر الأموي، ومن الواجب أن نذكر أسماءهم فقد ظلمهم التاريخ وذكروا في باب الزنادقة والمضلين، ودفعوا حياتهم ثمن هذه الاتهامات في حين أنهم كانوا فريقاً نبيلاً يناضلون من أجل الحرية ويحصرون كفاحهم ضدَّ ثقافة الاستسلام والوهن المجللة بعقيدة القدر، ومن أبرزهم: ابن المقفع، وسهل بن هارون، وعبد الحميد الكاتب، ومعبد الجهني، والجعد بن ردهم ،وجهم بن صفوان وكلهم قد تكلموا في القدر، فقد كانوا يرون عقيدة القدر أكثر ما يبرر به الاستبداد مظالمه، وكان خيار غيلان وأصحابه هو مواجهة جذور الاستبداد الكامنة في عقيدة الجبر، ورفع الصوت بأن الإنسان هو سيد قدره وليس من حقِّ أحد أن يمارس المظالم ثم يسند شرَّه وظلمه إلى الله تعالى.

ومن المحزن أننا تلقينا في التعليم التراثي أنَّ هذه الأسماء محض مؤامرة على الإسلام وهدم لأركانه، وبات الإيمان بالقدر على الشكل الذي اختاره الأشاعرة والسلفية معاً ركناً من الدين، يلزم المسلم اعتقاده وحكم كثيرون بالردة؛ لأنهم أنكروا القدر، وعُدَّ ذلك إجماعاً، مع أن الجدل حول مسائل القدر لم يتوقف يوماً في العصر الذهبي للإسلام.

في الشام تحدث الرجل بوضوح عن الحرية الفكرية وحرية الاختيار، ويمكن عدَّه أبرز مؤسسي القدرية في الإسلام، ومن العجيب أن مصطلح القدرية مستخدم في التاريخ الإسلامي لمن ينكرون القدر وليس لمن يؤمنون به، فيما كان المؤمنون بالقدر يسمون الجبرية، أو يكتفى باسم الجماعة.

ويمكنك حين تقرأ تراث غيلان الدمشقي أن تنسب إليه ما تشاء من فكر نيتشة وأوجست كومت وجان بول سارتر ومحمد إقبال في الحرية فالرجل لم يكن يقل عنهم عبادة للحرية وبغضاً للجبر والقهر، وكان يستوي عنده قهر الحاكم وقهر الدين، وكان عدواً بالمطلق لكل فكر تبريري يقتل روح الإرادة في الإنسان.

وهكذا صُنف على الفور معارضاً عنيداً لبني أمية ولامس السيف عنقه مرات عدِّة ، وظهر له أعداء واضحون من المشاهير أبرزهم ربيعة الرأي والأوزاعي.

ومع قدوم عمر بن عبد العزيز إلى الخلافة أرسل غيلان رسالة قوية وشهيرة ومباشرة إلى عمر بن عبد العزيز ومن حقها أن تعدَّ من وثائق الحرية النادرة في التاريخ وفيها كتب له:

"أبصرت يا عمر وما كدت، ونظرت وما كدت، اعلم يا عمر! أنك أدركت من الإسلام خلقاً بالياً، ورسماً عافياً. فلا تكن ميتاً بين الأموات، لا ترى أثراً فتتبع، ولا تسمع صوتاً فتنتفع".

وربما نجت الأمة بالإمام، وربما هلكت بالإمام، فانظر أي الإمامين أنت، فإنه تعالى يقول: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ [الأنبياء: ٧٣]

فهذا إمام هدى ومن اتبعه شركه هداه، وأما الآخر فقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾﴾ [القصص: ٤١]

وقسوة الرسالة وجرأتها ولكنها وقعت من عمر بن عبد العزيز موقعاً حسناً، وقد دعاه إليه وعينه على الفور رئيس ديوان المظالم، وخصَّصه بمحاسبة بني أمية الذين كانوا يجمعون ثروات طائلة بغير وجه حق.

ويبدو أن عمر بن عبد العزيز نهاه بشدة عن الخوض في مسائل الاعتقاد وأمره أن يكف عن ربط المسألة بعقيدة القدر، وأخذ عليه عهداً أن لا يتكلم في القدر، وكان ذلك وعياً إدارياً عميقاً، فأنت موظف دولة والدولة لكلِّ رعاياها ولا ينبغي أن ندخل في جدل مع الناس في اللاهوت ولكن علينا ألَّا نتهاون أبداً في محاربة الفساد، مهما كانت براهينه وحججه.

وانطلق غيلان في حملة ماحقة لمواجهة الفساد، بأمر عمر بن عبد العزيز، وقام بمصادرة أموال خيالية لأمراء بني أمية، وكان يعرضها للبيع في مزاد علني ويقول: "هَلُمُّوا إلى متاع الظَّلَمَة! هَلُمُّوا إلى أموالهم وتراثهم، يزعمون أنهم أئمة هدى ويكنزون المال والناس تموت من الجوع!

بالطبع أغضب ذلك أمراء بني أمية أشدَّ الغضب وأقسم هشام بن عبد الملك لئن ظفر به ليضربنَّ عنقه، وهكذا كان، وبعد موت عمر بن عبد العزيز ولي يزيد بن عبد الملك ووجد غيلان فرصة لمغادرة دمشق وهاجر إلى أرمينيا، أما هشام الذي ولي بعد يزيد بسنوات قليلة فقد أرسل على الفور إلى ولاته في أرمينيا واستطاع أن يأسر هذا المهاجر الهارب بطريقة هرموشية وجيء به إلى دمشق، وأعدت محكمة صورية عبر مشايخ السلطان، وتكاد الروايات تجمع أن هشاماً قطع يده بنفسه بالسيف، ثم قطع رجله وألقاه في بعض سكك دمشق، وفي اليوم التالي أرسل له من يشمت به أرأيت كيف كتب الله عليك قدره، فهل ما زلت تنكر قدره؟ صرخ غيلان: ويلك ... وهل أتهم ربي؟ إنما أتهم هشاماً وأعوانه من الظلمة عليهم لعنة الله، ولم يتأخر هشام بأن أمر بصلبه وقتله من يومه.

هكذا قضى غيلان في معبد الحرية، وقد رحلت أيامه وبقي إلهامه، ومن المؤسف أن سلفنا الصالح لم يبخلوا على غيلان وأصحابه بألقاب الزندقة والانحراف والضلال العقائدي، وقاموا عن عمد بتغييب هذه المبادرات الشجاعة التي كانت تستنطق أروع ما في الإسلام من دعوة للحرية والكرامة، ومحاربة للفساد، واستبدلوا منها نماذج الخنوع للمتغلب ووجوب طاعته والسير في هواه، وتبرير جرائمه بتعلل الأقدار.

ليس المراد رواية التاريخ، ولكننا نستبصر بالماضي للحاضر، ونحتاج أن نقترب أكثر من قادة الحرية في التاريخ الإسلامي الذين وجدوا أنفسهم في مواجهة مع ثقافة الخنوع والموت، المنقولة بنصوص مقدسة، يقوم على تخومها شرَّاحٌ وفقهاء يزينون للسلطان ويخونون كلَّ ثائر.

أبو حنيفة

الاسم الكامل	النعمان بن ثابت بن زوطي بن ماه
ألقاب مشهورة	الإمام الأعظم، عالم الثريا، فقيه فارس أمَّا خصومه فقد كالوا له التهم ومنها: ناقض عرى الإسلام، والضال المضل، وفرعون هذه الأمة
التاريخ	80-150هـ / 699-676م
الولادة والارتحال والوفاة	ولد بالكوفة ومات ببغداد
أهم الكتب التي ألفها	الفقه الأكبر، الفقه الأبسط، العالم والمتعلم، الوصية
أهم ما ألف عنه	لا يوجد إحصاء دقيق لما كتب عن أبي حنيفة ولكن من المؤكد ان أكثر من 1000 كتاب مطبوع تحدث عن حياة أبي حنيفة، منها نحو 100 كتاب كانت بعنوان أبي حنيفة 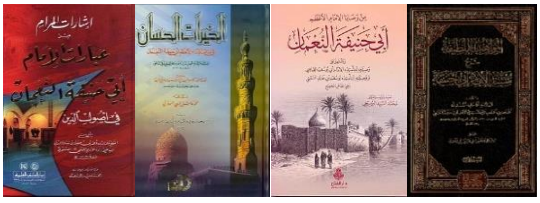
أهم من تأثر فيهم	عطاء بن أبي رباح، وحماد بن أبي سليمان والشعبي وطاوس بن كيسان، والإمام جعفر الصادق وابن شهاب الزهري
أهم من تأثروا به	محمد بن الحسن الشيباني والقاضي أبو يوسف وزفر بن الهذيل والحسن بن زياد اللؤلؤي وألوف الفقهاء الذين شرحوا مذهبه
أهم القضايا التي نادى بها	• الاستحسان: تقديم العقل على القياس • الكفاح ضد ذهنية التحريم • المساواة وتحرير فقه العتق • الحد من دور النص خاصة في روايات الآحاد
مساجد بنيت باسمه	يمكن تقدير المساجد المسماة جامع أبي حنيفة بأكثر من ألف مسجد حول العالم
أفلام عنه	مسلسل مصري باسم أبو حنيفة النعمان 1997 قام بدور البطولة محمود ياسين
الضريح	في بغداد وقد بني عليه مسجد كبير ويسمى الحي كله باسم حي الأعظمية نسبة للإمام الأعظم أبي حنيفة

أبو حنيفة... التنوير في مواجهة التكفير

إنه إمام التنويريين والمجددين، وهو أول من طرح بشكل مباشر أزمة العقل والنقل، واختار دون تردد الاستحسان، والاستحسان هو الأخذ بالعقل وتأويل النقل في مصلحة الناس، أو هو ترك القياس والأخذ بما هو أوفق للناس، أو هو ترك حكم النص لدليل ينقدح في عقل المجتهد يعسر التعبير عنه.

وهذا هو بالضبط ما عرفه أبو حنيفة بقوله: "ما استحسنه المجتهد بعقله"

وهو بالضبط ما عرفه الشافعي بقولــه: "من استحسن فقد شرع"

وهو بالضبط ما عرفه ابن العربي بقولـه: "هو ترك الدليل على سبيل الاستثناء"

وهو بالضبط ما نقله ابن قدامة: "دليل ينقدح في عقل المجتهد يعسر التعبير عنه"

إنه مصدر ثوري بكل تأكيد، أمَّا ما ذهب إليه المتأخرون من صيغ توفيقية فهو عودة تلقائية لظاهر النص، هو تلفيق لن يرضاه أبو حنيفة.

وبعيدًا عن العقل الانفعالي الإطلاقي الذي يحاكم الأشياء بعواطفه ويحجم عن حكم العقل وبرهانه، فإن الأمة منذ عصر عمر بن الخطاب أعلنت عن الحاجة إلى مصدر إضافي على النص يحقق أهدافه وهو القياس، ونصُّ عبارة عمر بن الخطاب لأبي موسى الأشعري: "الفهم الفهم فيما تلجلج في صدرك، مما ليس في كتاب الله تعالى ولا سنة نبيه، اعرف الأمثال والأشباه وقس الأمور بنظائرها".

ولكن القياس على النص نفسه لم يصمد أكثر من قرن واحد؛ إذ أعلن أبو حنيفة أن القياس لا يأتي دوماً بالحلول المناسبة وأنه يجب العدول عن القياس إلى الاستحسان وأعلن بالفعل بداية عصر العقل وانتهاء عصر القياس على النص، وأن الاستحسان هو السبيل لمعرفة الأحكام والحكم على الأحداث والشعوب والمستجدات في كل زمان ومكان، وعرفه تعريفاً يقطع كل جدل بقوله:

"الاستحسان ما يستحسنه المجتهد بعقله"، وفي عبارة أخرى: "هو دليل ينقدح في عقل المجتهد يعسر التعبير عنه".

لم تكن ثورة أبي حنيفة سهلة، فقد تضمنت الإعلان الصريح أننا أمة العقل لا أمة النص، ولم تمر من دون حفلة تخوين هائلة، كان أهونها كتاب الإمام الشافعي الغاضب ((إبطال الاستحسان))، ومن استحسن فقد شرع، وقول سفيان الثوري: "إنه ينقض عرى الإسلام عروة عروة، وقول الإمام مالك إنه يكيد الدين ومن كاد الدين كاده الله"!

ومع ذلك فقد ثبت أبو حنيفة وأصر على الاستحسان المذهل الذي هو في الواقع احتكام إلى العقل والبرهان والشورى بمعايير تتجاوز ظاهر النص إلى مقاصده.

بالطبع ذهب بعض الفقهاء –فيما بعد– إلى اختراع تعريفات للاستحسان لا يرضاها أبو حنيفة ولا ترضي طموحه، وتعيد طموح العقل إلى قفص النص، وتجعله نوعاً من القياس، وهو أبعد ما يكون عن طموح أبي حنيفة.

لماذا لا نعدّ اليوم أنَّ هذا العالم الذي اكتشفناه في القرون الأخيرة وما فيه من نظم وقوانين ووسائل هو من المسكوت عنه وسبيل الحكم عليه هو الاستحسان لا القياس؟

شعوب الأرض التي لم يرد ذكرها في الكتاب والسنة وأنظمة الحكم التي لم يرد ذكرها في الكتاب والسنة، والنظم الاقتصادية والمصرفية الحديثة، ووسائل النقل وقوانين الهجرة والضرائب والشحن والعلاقات الدولية والدبلوماسية، وكل ما أحدثه الإنسان في الأرض فإن سبيل الوصول إليه هو الاستحسان العقلي الذي تمارسه كل الأمم باحترام وتداول وواقعية.

والاستحسان في أجلى صوره هو العقل الجماعي وهو الرجوع إلى الشورى والاستماع من أهل الخبرة والمعرفة في كلِّ اختصاص، وهو الأمر الذي تطبقه كلُّ نظم العالم المتحضرة اليوم، ومن دون تردد، يمكنني القول: إن الاستحسان هو عنوان التشريع في سويسرا والنمسا واليابان وسنغافورة والدول الإسكندنافية والعالم الأوروبي والأميركي والعالم الديمقراطي كله؛ إذ يقدم كل عاقل حجته وبرهانه، ويأكل بعض الفكر بعضاً وتحكم عليه قاعدة الله في قرآنه ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الرعد: ١٧]

وكان أبو حنيفة يصرُّ على تغير الأحكام بتغير الأزمان، وأنَّ النصوص محكومة بظروفها، وفي نهاية جدل طويل قال أبو حنيفة بصراحة: "لو كان رسول الله حياً لقال مثل قولي"، وقد نقلها ابن عدي الجرجاني بعبارة أشدُّ جراءة: "لو أدركني رسول الله وأدركته لأخد بكثير من قولي وهل الدين إلا بالرأي الحسن"!.

أمَّا خصومه فقد نقلوها عنه بصيغة كاذبة: "لو كان رسول الله حياً ما وسعه إلا اتباعي"!

كانت هذه الخيارات الجريئة صادمة في مطلع القرن الثاني الهجري، وقد صنف الإمام الشافعي كتاباً إضافياً في الرد عليه وسمَّاه ((إبطال الاستحسان))، وقال فيه: "من استحسن فقد شرع، والاستحسان إلغاء الدين والحكم بالهوى".

وقد واجه أبو حنيفة بشجاعة الثقافة المشهورة بأنه لا اجتهاد في مورد النص، وأن ختم النبوة هو نهاية دور العقل في الإسلام، وأننا أمة اتباع ونص، ولا يحل لنا أن نجتهد في شيء مما رواه لنا رجال الرواية.

وفي موقف متقدم حدد أبو حنيفة بوضوح موقفه من ظاهر النص، وأن من المستحيل أن نعتمد ظاهر النص مصدراً للأحكام وهو حمال أوجه، وبعضه ناسخ لبعض،

وفيه المقيد والمخصص وغير ذلك، وقد ناقش الأمر بآلة علمية واضحة حيث قسم النص الديني إلى نصوص واضحة ونصوص غير واضحة، وهو ما شرحه عنه فيما بعد تلميذه البزدوي الحنفي:

"إن النص الديني يدور في ثمانية أبواب أربعة في (الوضوح)، وهي: الظاهر والنص والمفصل والمحكم، وأربعة في (عدم الوضوح) وهي الخفي والمشكل والمجمل والمتشابه، كما أفردوا المنسوخ في باب مستقل". وقد فصّل القول في هذه الأبواب الإمام الحنفي البزدوي، ونشر نصه كاملاً تلميذُه العلاء البخاري في كتاب مهم ينبئ عنوانه عن معناه: ((كشف الأسرار عن أصول فخر الإسلام البزدوي)).

وفي هذا السياق تندرج مئات الكتب العلمية التي صنفها الأصوليون، تحت عنوان ((درء تعارض العقل والنقل))، و((تنزيه القرآن عن المطاعن))، و((مشكل القرآن))، وغير ذلك، وكذلك ما كتبوه في باب المقاصد القائمة على استخدام العقل في إعمال النص وإهماله.

إن هذه الحقيقة في النص القرآني هي التي تفرض مكانه كتاب هداية إرشاد، وليس كتاب كيمياء وفلك وتاريخ وقانون، ولأجل ذلك؛ فإن الرسول نفسه لما أراد أن يحكم المدينة كتَب دستوراً وضعياً اتفاقياً بلغة القانون وليس بلغة الأدب، ولم يقل ما يقول إخوتنا السلفية: "دستورنا القرآن والسنة"!

سيقولون" إنها وصفة جاهزة للتخلي عن القرآن، وجوابي: بل هو السبيل الوحيد لدرء تعارض العقل والنقل، إنها العودة إلى ما انتهجته الدول الإسلامية الناجحة كلُّها خلال التاريخ، قبل قيام الحركات السلفية الظواهرية، وإنها الاعتدال والكف عن الغلو في الدين الذي ذمّه القرآن في عشرات النصوص.

قناعتي أنها الوصفة الوحيدة لاحترام القرآن وترتيله وتقديسه وإجلاله، ليس كنص سحري فوق العقل وفوق العلم، بل كنص تاريخاني أدبي فيه هداية وحكمة ونور تحتاج إليه الأمة، حين تقتحم المشهد الحضاري بعقول منفتحة وإرادة بصيرة وشورى ديمقراطية صحيحة.

وتعرض الإمام أبو حنيفة لأشرس هجمة تكفيرية على شخصه الكريم، وتمَّ تكفيره وتفسيقه ورميه بالزندقة والكيد للدين...

النصوص التي ننقلها هنا مأخوذة من ستة كتب أساسية في علوم الرجال سنذكرها تفصيلاً، وهي صادمة بكل تأكيد، ولكننا نرويها هنا ليعلم الناس أن رجال التنوير والتجديد دفعوا أثماناً غالية وهم يقتحمون رسالتهم في الإصلاح الديني، وأن الناس تحارب دون وعي من يدعو إلى حكم العقل، وتجاوز ظاهر النقل.

أول الكتب التي ننقل عنها كتاب الإمام البخاري ((الضعفاء)):

قال الإمام البخاري: "عن سفيان الثوري أن أبا حنيفة استتيب من الكفر مرتين"!

قال الإمام البخاري: "عن الفزاري قال: لما نعي أبو حنيفة كنا عند سفيان الثوري فقال الحمد لله وسجد لله وقال: لقد كان ينقض عرى الإسلام عروة عروة".

قال الإمام البخاري : "قال سفيان الثوري: ما ولد في الإسلام أشأم من أبي حنيفة".

قال الإمام البخاري: "قال محمد بن مسلمة دخل فقه أبي حنيفة البلدان كلها إلا المدينة لأن رسول الله قال: لا يدخلها الدجال، وهو دجال من الدجاجلة!"[16]

قال الإمام ابن حبان: "ما ولد في الإسلام مولود أشأم من أبي حنيفة"![17]

---

[16] تم نقل هذه الاقتباسات من كتاب الإمام البخاري الضعفاء ج 1 ص 132 وما بعدها.

[17] من كتابه ((المجروحين)) ج 3 ص 66

وننقل عن الإمام ابن عدي في كتابه ((الكامل في ضعفاء الرجال)): قال المقري: لا تروا عن أبي حنيفة فقد كان مرجئياً يدعو إلى الإرجاء... والإرجاء: هو وصف من يمتنع عن تكفير الناس ويقبل صالح أعمالهم!.

وعن الخطيب البغدادي في كتابه تاريخ بغداد: عن أيوب السختياني وقد سئل عن أبي حنيفة فقال: يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم!! وكان في أصحابه في الحرم، فدخل أبو حنيفة فقال أيوب: قوموا بنا! لا يعرنا جربه!

تاريخ بغداد قال الأوزاعي مرات كثيرة: "عمد أبو حنيفة إلى عرى الإسلام فنقضها عروة عروة"!

والنصوص التالية أيضاً من ((تاريخ بغداد)):

عن ابن عون قال: إن فيكم صدادين يصدون الناس عن دين الله وأبو حنيفة يصد الناس عن دين الله!

وعن الوليد بن مسلم قال: قال لي مالك بن أنس: أيتكلم برأي أبي حنيفة عندكم؟ قلت: نعم، قال: ما ينبغي لبلدكم أن تسكن.!

قال الإمام مالك بن أنس: إن أبا حنيفة كاد الدين كاد الدين، ومن كاد الدين فلا دين له، وقال: إن أبا حنيفة هو الداء العضال هو الهلاك في الدين!

قال عبد الله بن المبارك: من نظر في كتاب الحيل لأبي حنيفة أحلَّ ما حرم الله، وحرَّم ما أحلَّ الله، ومن كان عنده كتاب الحيل فقد بطل حجه وطلقت منه امرأته!

وقال له قائل: إن كتاب الحيل من وحي الشيطان، فقال بل هو شر من الشيطان!

قال حماد الراوية أستاذ ابي حنيفة: بلغوا عني أبا حنيفة أني بريء منه!

وقال ابن عون: ما ولد في الإسلام مولود أشأم من أبى حنيفة .

وقال أبو سلمة الخزاعي: سعمت حماد وسمعت الشعبي يلعنان أبا حنيفة.

وقال ابن عياش: كان أبو حنيفة صاحب خصومات ولم يعرف إلا بالخصومات.
وقال عبد الله بن المبارك: اضربوا على حديث أبي حنيفة.
وقال معاذ بن معاذ العنبري: استتيب ابو حنيفة من الكفر مرتين!
وقال عبد الرحمن بن مهدي: بين أبي حنيفة وبين الحق حجاب.
ومر ابو حنيفة بيحيى بن سعيد في اصحابه فقال لهم هذا تيس القياس ابو حنيفة.
وقال الحجاج بن أرطأة: ومن أبو حنيفة ؟ ومن يأخذ عن أبي حنيفة ؟
وقال ابن عون: كيف تأخذون دينكم عن رجل قد خذل في عظم دينه؟
وقال ابن الحسن الترمذي سمعت أحمد بن حنبل يقول: أبو حنيفة يكذب.
وقال عبد الله بن حنبل عن أبيه قال: إن أبا حنيفة كاد الدين ، كاد الدين.
وسئل أيوب السختياني عن أبي حنيفة فقال: يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم، ويأبى الله إلا أن يتم نوره، ولو كره الكافرون
وروى الخطيب عن أبي بكر ابن أبي داود أنه قال لأصحابه: "ما تقولون في مسألة اتفق عليها مالك وأصحابه والشافعي وأصحابه والأوزاعي وأصحابه و الحسن بن صالح وأصحابه وسفيان الثوري وأصحابه واحمد بن حنبل وأصحابه ؟ فقالوا: يا أبا بكر! لا تكون مسألة أصح من هذه. فقال: هولاء كلهم اتفقوا على تضليل أبي حنيفة."[18]

ولأنه قاد ثورة العقل، وهدم أساطير الكهنة، وأخلص لله دينه وقصده، ولم يكتب لإرضاء الناس، بل لتنويرهم وإصلاح عقولهم، فقد تولى رجال الجرح التعديل ذمه وجرحه واتهامه بما لا يتصور، منها أنهم جاؤوا بوثيقة مكتوبة فقرأها شيخه وأستاذه

[18] تمَّ نقل هذه الأقوال اقتباساً من كتاب الخطيب البغدادي تاريخ بغداد ج4 ص 17 وما بعدها

حماد بن أبي سليمان وقال علناً أمام الناس: اشهدوا أني بريء من تلميذي أبي حنيفة.

ومن أهم الكتب التي جرحت أبا حنيفة:

- الضعفاء للعقيلي
- المجروحين لأبي الفتح البستي
- الكامل في الضعفاء لابن عدي
- تاريخ بغداد للخطيب البدادي
- المعرفة والتاريخ لابي يوسف البسوي
- حلية الأولياء لأبي نعيم الأصفهاني
- المجروحين للتميمي
- الضعفاء الصغير للإمام البخاري
- كتاب المجروحين لابن حبان

بالطبع لم نقصد إلى حصر كل ما ورد في الروايات، ولم نقصد بالطبع إلى تأييدها، بل إنني أعتبره من أروع أئمة الهدى في الإسلام، ولكنني أجد فيه بعض العزاء حين أسمع ألسنة حداداً تقع في كل من ينادي بالتنوير والتجديد واحترام العقل وإخاء الأديان وكرامة الإنسان.

لقد قالوا ذلك كله، ولكنه لم يلبث أن أثبت صواب منهجه وصار يعرف في العالم الاسلامي باسم الإمام الأعظم.

يؤلمني اليوم أن أرى ملايين الأحناف، ولا أرى فقيهاً في مثل جرأة أبي حنيفة.

وبعد دراسة عميقة أجزم أن موقف الإمام أبي حنيفة يقوم على أمور أساسية عدة:

– النص نور يهدي وليس قيداً يرشد، ويمكن للأمة تأويله وتخصيصه وتقييده ونسخه إذا تأكدت في ذلك مصالح الناس

– النص من كتاب أو سنة هو خطاب لأهله، فإذا مات رسول الله وتوقف الوحي صار قياساً في من بعده، فالمواجهة في ظاهرها عند أبي حنيفة مع القياس وليست مع النص.

– إنَّ أهل الأديان على اختلاف مللهم ونحلهم متروك أمرهم إلى الله، وإن علينا الإرجاء فلا نحكم لهم بمآل في الآخرة، والله يفصل بين عباده فيما كانوا فيه يختلفون

– الاستحسان تسعة أعشار العلم وهو تقديم العقل على النقل، وترك القياس والأخذ بما هو أوفق للناس.

والاستحسان في جوهره علاج ثوري لمشاكل الأمة، يتيح للبرلمان ولأهل الحل والعقد في الأمة تشريع ما يحتاجه الناس مما أذن به الله من العدل والإحسان والخير والحرية والديمقراطية والمساواة. ولو كان النص بخلافه.

ويؤكد أبو حنيفة باستمرار أن ما يرويه في العلم هو باب من الرأي وليس لأحد أن يلزم به الناس، يجب أن يعلم الفقهاء والمفتون والأئمة والخطباء أنهم يقدمون للناس قراءاتهم واجتهاداتهم ولا يقدمون لهم أوامر ملزمة ولا وصايا إلهية مقدسة.

الفتوى نصيحة وموعظة، واجتهاد ورأي، لا يلزم أحداً، ويمكن أن يصدر عن كل أحد، وقد يتأثر بمزاج المفتي تسامحاً أو تشدداً وكذلك ببيئته وقومه وشيوخه وتلاميذه...

قانون الفتوى تحكمه سنة الله، فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض

القضاء هو الأخطر، والقضاء ليس رأياً واجتهاداً إنه قانون والتزام، ولا يجوز أن يتصدى له إلا من هو أهله، ومن عينته الدولة العادلة حصراً ووفرت له قانونها وتشريعها.

وفي سياق الحديث عن فقه أبي حنيفة فإنني أؤكد أن الإسلام عقيـدة وفقـه.

ومذهبي في العقيدة هو ما شرحه الامام ابن عربي وابن سينا وجلال الدين الرومي وأهل العرفان، وهو فيض من الحب والرحمة والإخاء للأديان والأمم والإنسان.

ومذهبي في الفقـه هو قواعد أبي حنيفة التي طورها الفقهاء إلى السنهوري ومصطفى الزرقا، وهي فيض من القوانين الحديثة الناضجة في القانون المدني والجنائي والأحوال الشخصية.

وأنا على يقين أن على هذه العقيدة وعلى هذا الفقه جمهور الإسلام الشعبي. وهذا الفقه وهذا الاعتقاد متصالح مع العالم، وهو محل احترام الأمم المتحضرة كلِّها، أما المشكلة مع جماعة ظاهر النص فهي لا تزال معقدة، تستعصي على الحل.

ومن استحسان أبي حنيفة الرائع الذي نحتاجه في زماننا:

- الإذن للمرأة البالغة الراشدة بمباشرة عقد نكاحها بخلاف ظاهر الأثر المروي: لا نكاح إلا بولي.
- الإذن بدخول المشركين إلى حرم مكة خلافاً للسائد المشهور بمنع المشركين من دخول مكة، وذلك لمصلحة حقيقية للأمة، للتعريف بالإسلام، ولئلا يبدو الإسلام ديناً غامضاً مرعباً، وليعلم الناس أن لا شيء نخفيه.
- أذن لغير العرب بالصلاة بلغتهم، وأذن بقراءة الفاتحة بالفارسية لما رأى ذلك مفيداً للناس ليعبدوا الله بما يفهمون، ولا يخرّوا على آيات ربهم صماً وعمياناً..

- ألغى خيار الشرط في البيع الذي ورد به الأثر، وذلك لما رأى تلاعب التجار ومكرهم وكيدهم في إلغاء العقود بعد إبرامها
- أجاز صرف قيمة المال في صدقة الفطر خلاف ظاهر النص من وجوب صاع تمر أو برٍّ أو شعير
- أوقف صرف الغنائم لذوي قرابة النبي، وخصَّه بأهل الحاجة، وبذلك منع احتكار الثروة وألغى امتيازات طبقة النبلاء.
- أفتى بمنع القياس في الحدود، وبذلك تحتاج الجرائم الجديدة إلى اجتهاد جديد قائم على العقل، وهناك اليوم ألف جريمة غير مصنفة في الكتاب والسنة ومدارها على قول علماء القانون وشورى الأمة.
- وأفتى بجواز صرف الكفارة إلى مسكين واحد، وظاهر النص يوجب صرفها إلى ستين مسكيناً.
- وأفتى بجواز صرف الزكاة إلى مصرف واحد من الثمانية والنص يوجب بذلها في الثمانية.
- ولعل أكثر آرائه جراة هو قوله بخلق القرآن، ومع أن الرواية ترددت عنه ولكنني أرجح أنه سبق إلى ذلك، كما يدل فقهه واستحسانه.

إنه بحق الإمام الأعظم!

بالطبع سيقول بعض الأصدقاء إنَّ أبا حنيفة لم يرد هذا وسيتأولون له استحسانه على أنه لون من القياس، وقناعتي أن هذا تلبيس معاند للحقيقة، ولو كان ذلك كذلك لما أنكر عليه الأئمة وعلى رأسهم الشافعي الذي هو أولى الناس بمعرفة مقامه وعلمه.

ولا بدَّ في النهاية من تحفظين اثنين:

- الأول : إن كثيراً من هذه الاتهامات العنيفة كانت بمكر من السياسيين الذين اصطدم بهم أبو حنيفة حيث دخل السجن مرتين أيام هشام بن عبد الملك وأيام أبي جعفر المنصور.
- الثاني: إن كل هذه الاتهامات العنيفة لم تكن إلا عنف كلام وألفاظ، وباستثناء السجن فإن أبا حنيفة لم يتعرض لأي عنف من مخالفيه وإنما تعرض لذلك من الاستبداد السياسي فقط.

على كلِّ حال، لقد ذويت هذه العبارات وانحسرت إلى كتب أهل التعصب والتطرف، واستقر اسم هذا الإمام المجدد في تاريخ العالم الإسلامي باسم واحد شهير: وهو الإمام الأعظم!

المعتزلة

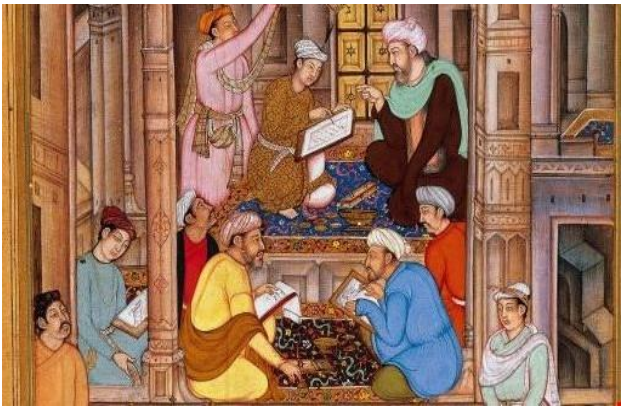

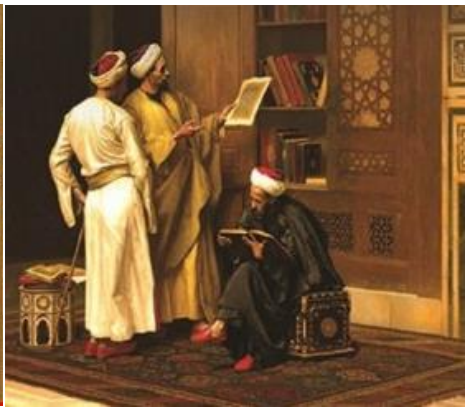

الاسم الكامل	أهم أعلام المعتزلة في التاريخ الإسلامي الذين تركوا آثاراً علمية واصل بن عطاء، غيلان الدمشقي، الجعد بن درهم، القاضي عبد الجبار، بشر المريسي، جهم بن صفوان، بشر بن المعتمر، عمرو بن عبيد، ثمامة بن اشرس
ألقاب مشهورة	التيار العقلي في الإسلام
التاريخ	ظهروا في القرن الأول وما زال منهجهم مستمراً
بعض ما ألف عنهم	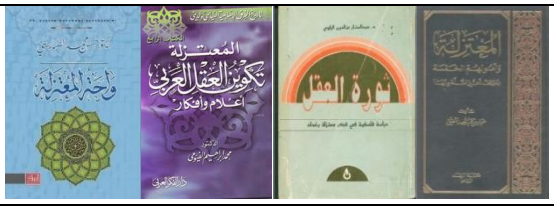
أهم من تأثر فيهم	الخلفاء العباسيون
أهم من تأثروا به	الفلاسفة اليونانيين وحواراتهم مع المسيحيين
أهم ثلاث قضايا نادوا بها	• العدل الإلهي ووجوب تأويل القرآن بما يتفق مع عدل الله • إنكار القدر وتأكيد مسؤولية الإنسان وحريته • القول بخلق القرآن وتاريخانيته

يعدُّ المعتزلة قادة التفكير العقلي في التاريخ الإسلامي، وقد كافحوا خلال تاريخهم الفكري طويلاً من أجل تكريس المذهب العقلي الذي يتجاوز ظاهر الكتاب والسنة إلى مقاصدهما الكبيرة، ولم يتوقفوا عند ظاهر التأويل.

ومن الضروري في البداية أن نشير بحزن إلى تورط المعتزلة في فتنة خلق القرآن، التي كانت نتيجة التوجهات الديكتاتورية للخليفة العلماني المأمون، ومن بعده بالطبع المعتصم والواثق، وعلى الرغم من الغايات النبيلة التي استهدفتها نهضة المأمون العلمية والثقافية والفكرية ولكن تورطها في استخدام السياسة وموافقة عدد من أئمة المعتزلة على لعب هذا الدور المشين وأبرزهم أحمد بن أبي دؤاد وبشر المريسي وثمامة بن أشرس هو أمر لا يمكن تبريره، وقد أساء مرتين: الأولى إلى فقهاء أهل السنة الذين تعرضوا للاضطهاد بسبب آرائهم، والثانية: هي الإساءة الكبيرة لتراث المعتزلة أنفسهم الذي أصبح تراثاً مرجوماً بعد الانقلاب السياسي الذي قام به المتوكل بعد أن ولي الخلافة.

ولا بدَّ من هذه المقدمة حتى نستطيع أن ندلل بالضبط على المعنى المقصود بمواقف المعتزلة بعيداً عن السياق السياسي والحزبي الغاشم الذي ما دخل الفكر إلا أفسده.

فهل أستطيع أن أكتب إذن بمعزل عن الفترة المريرة لتورط المعتزلة في السياسة؟

لقد ظل المعتزلة منذ ظهورهم يعانون الاضطهاد وكانت هذه المعاناة أبرز الأدلة على مشروعهم الثوري في الفكر الإسلامي السائد، وسعيهم الدؤوب لتقديم تأويل عقلي للإسلام، في قضايا الغيب وقضايا الشهادة على السواء، وإثبات أن القرآن مخلوق، وأنه غير معدٍّ لكلِّ زمان ومكان، وأن بالإمكان التعامل معه كنص تاريخاني مخلوق العبرة فيه بخصوص السبب وليست بعموم اللفظ، وأن أسباب نزوله تحكم أفق دلالاته، وأن الخلط بين القرآن وبين الله، واعتبار القرآن هو الله ذاته، أو هو صفة

قائمة فيه هو غلو في الدين، وأن عامَّة الفقهاء قد وقعوا في الغلو بالقرآن ومزجوا بينه وبين الله، كما وقع النصارى في الغلو بالسيد المسيح.

إن القرآن كلام من الله، وليس هو الله عينه، وهو وحي من الله وليس الله عينه، وأنه نزل متسقاً مع الحوادث، ولا يوجد سبب منطقي لافتراض أزلية نصِّ ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١﴾ [المسد: ١] أو نص ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا﴾ [الأحزاب: ٣٧] فهي كلها نصوص حال جاء القرآن الكريم مخبراً عنها بعد وقوعها، وهذا أمر لا يحتاج إلى افتراض أي غيب، بل هو وثيق الصلة بعالم الشهود.

ولا بد من أن أقول بأن اسم المعتزلة لا يصح تبريره بأن واصل بن عطاء اعتزل حلقة الحسن البصري في مسجد البصرة، حين خالفه في مسألة المنزلة بين المنزلتين، وفيه قال الحسن البصري اعتزلنا واصل، فصارت التسمية غالبة على القوم، وهذه الحكاية على افتراض صحتها لا تحمل سبباً كافياً لتمسك المعتزلة بهذا الاسم، حيث حافظوا في كتاباتهم ودراساتهم على هذه التسمية باستمرار.

وقناعتي أن المعتزلة سموا بهذا الاسم في سياق الواقع الرباعي الذي كان يعيشه العالم الإسلامي آنذاك حيث لا يمكنك فهم أي نشاط اجتماعي أو ديني إلا في سياق القسمة الرباعية السائدة: السنة والشيعة والخوارج والمعتزلة.

فالسنة هم من انحاز لصف الشيخين والخلفاء من بعدهم، أما الشيعة فهم من رفض الشيخين والخلفاء من بعدهم إلا علياً، والخوارج هم من رفضوا الجميع وقاتلوهم، أما الموقف الاعتزالي فهو واضح وهو اعتزال الفتنة كلها، وتحرير الصراع كله على أساس أنه صراع سياسي قائم على المطامع ولا يوجد سبب ديني يدفعك للقتال في أي من الأطراف المتحاربة، وأن المطلوب هو اعتزال الفتن كلها، وبالفعل لا تجد معتزلياً إلا وقد اعتزل الفتن كلها ولم يكن فيها طرفاً، وبذلك يستقيم اختيارهم الاسم كما

تشهد له أحوالهم وسلوكهم ونشاطهم، وليس في حياتهم سلوك مشين إلا تورطهم في هوى المأمون في فتنة خلق القرآن.

وهذا ما اختاره أهم فلاسفة الاعتزال القاضي عبد الجبار الهمذاني بقوله: "إن الاعتزال ليس مذهباً جديداً أو فرقة طارئة أو طائفة أو أمراً مستحدثاً، وإنما هو استمرار لما كان عليه الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته"، وقد لحقهم هذا الاسم بسبب اعتزالهم الشر لقوله تعالى: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴿٤٨﴾﴾ [مريم: ٤٨] ولقول الرسول صلى الله عليه وسلم: "من اعتزل الشر سقط في الخير" [19]

ومن أهم أئمة الاعتزال واصل بن عطاء الذي ارتبط ظهور الاعتزال باسمه توفي 131 هـ، وابراهيم بن سيار النظام، وأبو الهذيل العلاف وبشر بن المعتمر، ومعمر بن عباد وأشهرهم القاضي عبد الجبار قاضي الري وكذلك الجاحظ وكتابه الأهم ((البيان والتبيين)).

كما يمكن اعتبار عدد من الثائرين على الأمويين كأبان بن سمعان والجعد بن درهم وجهم بن صفوان وكذلك غيلان الدمشقي أصحاب مقولات اعتزالية وإن كانوا أسبق من واصل بن عطاء.

وحتى لا نذهب بعيداً في الحديث عن المعتزلة فإننا سنقتصر على موقفهم من إخاء الأديان الذي هو جوهر البحث في هذا الكتاب.

ويمكن القول إن المعتزلة في الإسلام هم مؤسسو الثيوديسيا في الإسلام وهو ما شرحه الفيلسوف الألماني لايبتنز وبعده إيمانويل كانط كما سنشرحه في موضعه،

[19] الجهني، مانع، موسوعة الأديان والمذاهب المعاصرة، دار الندوة العلمية ، الرياض، ج1 ص 64

والثيوديسيا هي تبرير أفعال الله وتفسيرها تفسيراً يستند إلى العدل، بعيداً عن دلالات ظاهر النصوص وهو ما يمكن اكتشافه في كل موقف اعتزالي من المسائل اللاهوتية، وسنجده بوضوح في اختيارت فلاسفة الإسلام جميعاً كما سنوضحه أيضاً عند ابن سينا والقارابي وابن رشد وغيرهم.

لم يتردد المعتزلة في تأكيد أن عدالة الله أصل في الدين بل إن كل الذين تحدثوا عن أصول المعتزلة صدروها بأصل التوحيد والعدل، والكلمتان متلازمتان، فالتوحيد يعني أن نمتنع من إضافة أي مخلوق إلى الخالق سبحانه، وقد بلغ بهم التنزيه حداً كبيراً حتى أنكروا قدم الصفات كلها إلا صفة الوجود، وذلك كله لتنزيه الله تعالى، وبالتالي لمنع إسقاط العصمة على غير الله تعالى من صحابة وتابعين وفقهاء وحتى أنبياء وكتب مقدسة، فالكل غير الله، والكل له ظروفه التاريخانية الطارئة التي تنزع عنه صفة العصمة والخلود، إنك ميت وإنهم ميتون، إنما أنا بشر مثلكم، وما أدري ما يفعل بي ولا بكم.

أما العدل، فهو الصفة المحورية لله تعالى، ولا يمكن فهم أي تكليف شرعي إلا إذا تحقق فيه عدل الله، وفي هذا السياق قاموا بنفي القدر المكتوب لأنه يتعارض مع العدل الإلهي، والأدلة على عدل الله تعالى في الكتاب والسنة أكثر من أن تحصى، إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤتِ من لدنه أجراً عظيماً.

وفي سياق ذلك فقد أنجز المعتزلة مواقف متقدمة في إخاء الأديان ودعوا إلى إعذار الخلق في اختلافهم تأسيساً على عدل الله تعالى، وأعلنوا بصراحة رفضهم لما يذهب إليه العامة من اختيار الله تعالى لأمة دون الأمم وزمن دون الأزمنة، وشخص دون الأشخاص، ليكون محلاً لرضوانه ورحمته، وأن الرسول يشفع لأمته دون الناس، ومن ذلك الإيمان بنسخ الإسلام للشرائع كلها، دون أن تقوم على الناس حجة بذلك؛

إذ لا يمكن أبداً التسوية بين من شهد النبوة والمبعث وهو في مكة أو المدينة وبين من شهد ذلك وهو في أدغال الهند ومجاهيل الصين، وكذلك من جاء بعدهم ولو سمعوا أن نبياً ظهر في الحجاز قال إنه أوحي إلهي وصدقه الناس من حوله، ولكنهم لم يشاهدوا ما شاهده الصحابة ولم يحاوروا حوارهم ولم يتلى عليهم الكتاب ولم يأنسوا بالرسول الكريم، وغير ذلك، ولا يستقيم عدلاً ولا عقلاً أن يحاسب هؤلاء حساباً واحداً.

وقد كتب المعتزلة طويلاً في الحسن والقبح العقليين، ورأوا أن العقل قادر أن يستقل بنفسه في معرفة الحسن والقبيح، وأن الوحي نور يهدي وليس قيداً يأسر، وأن الأمم قادرة بالنظر المحض على الوصول إلى معرفة الحسن والقبيح، وأن النبوة ضرورية وواجبة لإرشاد العامة، ولكن أهل النظر والحكمة، يسترشدون بالنبوات ولكنهم يبلغون مقاصدها بالنظر، ولن تضل الأمم الصادقة دربها في الإيمان بالواحد الذي ليس كمثله شيء.

ومع أن أصول المعتزلة كافية لتأسيس فهم واضح في إخاء الأديان وإعذار المخالفين الذين لم تقم عليهم حجة الله كما قامت على العرب بوجود الرسول وخيار الصحابة والدولة الإسلامية، ولكن لم يرشح من كتاباتهم في هذا الشأن إلا القليل، وسبب ذلك بالطبع أن معظم ما نقل عنهم في هذا الباب من نقل خصومهم عنهم، ومن ذلك ما نقله الغزالي عن الجاحظ بقوله :

"ذهب الجاحظ إلى أن مخالف ملة الإسلام من اليهود والنصارى والدهرية إن كان معانِدًا على خلاف اعتقاده فهو آثم، وإن نظر فعجز عن درك الحق فهو معذور غير آثم، وإن لم ينظر من حيث لم يعرف وجوب النظر فهو أيضًا معذور؛ وإنما الآثم

المعذب هو المعاند فقط، لأن الله تعالى لا يكلف نفسًا إلا وسعها. وقد عجزوا عن درك الحق ولزموا عقائدهم خوفًا من الله تعالى إذ استد عليهم طريق المعرفة[20] "

ونقل الكوفي عن الجاحظ والعنبري قوله: "لا إثم على من أخطأ الحق مع الجد في طلبه مظلقاً، حتى مخالف الملة والظاهرية".[21]

وقد ردَّ الغزالي على الجاحظ وسفَّه رأيه، ومن العجيب أنه استدل على بطلان رأي الجاحظ بأن رسول الله كان يقتل غير المسلمين إذا ثبت بلوغهم! وهو على يقين أنهم مقلدون لم تقم عليهم حجة! وهذه عبارته :

"وَلِذَلِكَ قَاتَلَ جَمِيعَهُمْ (أي اليهود والنصارى) وَكَانَ يَكْشِفُ عَنْ مُؤْتَزَرٍ مَنْ بَلَغَ مِنْهُمْ وَيَقْتُلُهُ، وهوَ يَعْلَمُ قَطْعًا أَنَّ الْمُعَانِدَ الْعَارِفَ مِمَّا يَقِلُّ، وَإِنَّمَا الْأَكْثَرُ الْمُقَلِّدَةُ الَّذِينَ اعْتَقَدُوا دِينَ آبَائِهِمْ تَقْلِيدًا وَلَمْ يَعْرِفُوا مُعْجِزَةَ الرَّسُولِ – عَلَيْهِ السَّلَامُ – وَصِدْقَهُ ".[22]

ولا يسعني بالطبع إلا أن أعترض أشد الاعتراض على ما ذهب إليه الغزالي في وصف الرسول الكريم بأنه كان يقتل الناس حين يبلغون، بل وينص أيضاً أنهم كانوا غير معاندين ولم تقم عليهم حجة! فيا سبحان الله! كيف يأخذ التعصب الظاهري بأهله إلى اتهام الأنبياء الكرام بما لا يفعله إلا المستكبرون الغاشمون المفسدون في الأرض. وبالجملة فإنني أشير إلى المعتزلة هنا لأن سياق اختيارهم في العدل يلزمهم القول بإعذار أهل الأديان، ولكنني أعترف بأنني لم أقف على ما يكفي من أقوالهم لإثبات هذ الموقف بشكل مباشر في الفروع كما يدل له كلامهم في الأصول.

---

[20] الغزالي: أبو حامد محمد بن محمد، المستصفى ص 349

[21] الطوفي، سليمان بن عبد القوي، مختصر شرح الروضة، ج3 ص 502 مؤسسة الرسالة 1983

[22] الغزالي: أبو حامد محمد بن محمد، المستصفى ص 349

الفارابي

الاسم الكامل	أبو نصر– محمد بن محمد بن أوزلغ بن طرخان الفارابي
ألقاب مشهورة	المعلم الثاني
التاريخ	260-339هـ/ 874-950م
الولادة والارتحال والوفاة	ولد في فاراب بكازاخستان وانتقل إلى بغداد ثم حلب واستقر وتوفي في دمشق
أهم الكتب التي ألفها	له نحو خمسين كتاباً من أهمها: آراء أهل المدينة الفاضلة، وآراء المنطق، والجمع بين الحكيمين وكتاب الملة ورسالة السياسة المدنية وإخصاء العلوم والموسيقى الكبير
أهم ما ألف عنه	ظهرت عشرات الكتب عن الفارابي بلغات مختلفة منها: 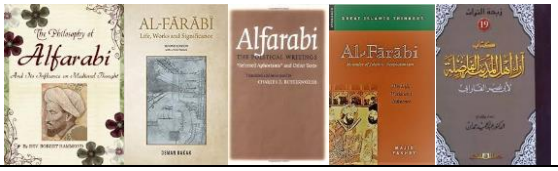
أهم من تأثر فيهم	أرسطو وأفلاطون وسقراط وبطليموس والكندي ومتى بن يونس ويوجنا بن جيلان
أهم من تأثروا به	شهاب الدين السهروردي ابن باجة موسى بن ميمون وملا صدرا
أهم ثلاث قضايا نادى بها	• الفلاسفة ينصحون الدولة والأنبياء ينصحون العامة • الأصل في الإنسانية الخير والمحبة • الفيض مستمر والإنسان أهل للفيض في كل زمان
مساجد بنيت باسمه	عشرات الجامعات والمشافي والأكاديميات ومراكز البحث والطوابع البريدية
ضريح	 (في باب الصغير في دمشق)

الفارابي... إخاء الأديان وكرامة الإنسان

لو سألت أي مسلم عن الفارابي فسيقول لك على الفور: إنه الفيلسوف الأشهر في الإسلام، وهو مفخرة للحضارة الإسلامية، وفي أيِّ حوار عن الحضارة الإسلامية في العالم فإن اسم الفارابي فخر ومجد للإسلام...

هكذا هي الصورة عبر التاريخ، ولكن مع قيام العصر السلفي المناهض للعقل تم استحضار فتاوى متعصبة مركونة منذ قرون، وفيها ذكر ابن تيمية نقلا عن التهافت أن الفارابي خالف في عشرين مسألة كفر في ثلاث وتزندق في سبع عشرة، وقال ابن العماد في ((شذرات الذهب)): أكثر العلماء على تكفير الفارابي.!

ولا ندري من هم أكثر العلماء فأنت تجد الرجل محل احترام وتبجيل في كتب الرجال في التاريخ الإسلامي كلِّها إلا في ((الشذرات)).

الفارابي أبو نصر أشهر فلاسفة الإسلام 260-340 هجرية، إنه الرجل الهائل الذي طبقت شهرته العالم، وأطلق عليه فلاسفة العالم اسم المعلم الثاني، وعدَّ أشهر الفلاسفة بعد أرسطو.

من وجهة نظري فالفارابي أول من قدم فلسفة إسلامية عميقة لإخاء الأديان وكرامة الإنسان، تأسيساً على معنى توحيدي خالص وهو انبثاق الكائنات عن الله، وبذلك فقد تجاوز الفهم التقليدي لرجال الدين القائم على تصور أن الله خلقنا للجنة وخلق غيرنا للنار.

وربما كان الفارابي أول من سبق إلى ترسيخ مبدأ المجاز في تفسير النص الديني، وقال إن الديانات تشرح الحقائق العميقة للناس على شكل حكايات وروايات قائمة على الرمز!

يقدم الفارابي رؤية أخرى للخلق لا تشبه قصة آدم وحواء وشجرة التفاح، لقد تحدث عن الخلق على أنه الفيض ،هو الفيض يصدر من الخالق سبحانه، فينتج ذاتاً جديدة، ويقدم هذا المخلوق كوكباً أو بشراً أو حجراً على أنه أثر من العقل الفعال الأول سبحانه، فالمخلوق فيض من الخالق وهو كالنَّفَس من المتنفس والكلام من المتكلم والظل من الذات... وهذ الاندغام بين الخالق والمخلوق يوجب على الحكيم احترام الخلق كاحترام الخالق، ويكرس صورة الذات المترقية في المخلوق، ويسميها العقل.

المخلوق ليس عند الفارابي حجراً أبله، إنه مشروع وجود جديد، إنه العقل الثاني الصادر عن العقل الأول، إنه ديالكتيك ينتج نفسه من جديد، في دورة كاملة، ففيه من عقل الله وروحه، وهو يقاوم نوازع الشر بفيضان ذاتي ينتخب أحسن ما في الأشياء ويهمل الرديء منها...

ولم يكن يرى في ذلك تناقضاً مع الوعي الإسلامي، فقد كان يرى ذلك غاية النص المباشر: ثم سواه ونفخ فيه من روحه، وكرر مراراً قل كلٌ من عند الله فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً...

وفي كتابه ((آراء أهل المدينة الفاضلة))، شارحاً أفلاطون، كتب الفارابي تصوره للمدينة الفاضلة، وكان ملهماً لفلاسفة الغرب وبخاصَّة توماسو كامبانيلا الذي كتب ((مدينة الشمس)) والسير توماس مور في مشروعه «يوتوبيا» وفرنسيس بيكون وهوبز، ولكن الفارابي تميز عنهم جميعاً بأن مدينته الفاضلة هي مدينة السعادة لا اللذة، والسعادة هنا قائمة على اجتماع حضاري للعقول الفعالة الناشئة من العقل الكلي، وهذا ما يميزها عن المدينة الجاهلة والمدينة الفاسقة والمدينة المتبدلة، لقد كان يتحدث عن تحضر إنساني وأخلاقي وقيمي قبل التحضر العمراني المدني، و يرى ان

ملك المدينة الفاضلة هو أكمل أهلها أخلاقاً وعلو كعب في العقل والفضيلة، وأكثرهم اتصالاً بالعقل الفعال، ويترجح أنه يقصد هنا دولة الرسول في المدينة؛ إذ كان الرسول الكريم أقدر الناس اتصالا بالعقل الفعال، وحين لا يتوفر هذا الكمال في رجل واحد، فإنه دعا إلى هيئة ديمقراطية حاكمة.

وأما ما نقله ابن تيمية من قول الفارابي بتفضيل الفيلسوف على النبي فهو **وهمٌ** لم يقله الفارابي، وإن كان قد أشار مراراً أن النبي أفضل من الفيلسوف للعامة، وأما الفيلسوف فهو الأنسب للخاصَّة، لقد أراد أن يقول إن الأنبياء لم يكتبوا فلسفة عميقة ولكنهم عزفوا على أوتار صحيحة وكانوا أقرب لقلوب الناس من الفلاسفة. يؤكد الفارابي أن الخير هو صفة الإنسانية الغالبة وأن الشر قليل، وأن إرادة الخير تطفئ نوازع الشر وأن مشروع الله على الأرض ناجح ومتنام، وأن الغاية الله والموعد الله.

وقد صنف الفارابي كتاباً خاصَّاً بعنوان الملة، يتحدث فيه عن عقيدة المجتمع في المدينة الفاضلة، ويقول فيه: "الملة؛ هي آراء، وأفعال مقدرة ومقيدة بشرائط يرسمها للجمع رئيسهم الأول، ويلتمس أن ينال باستعمالهم لها غرضًا محدّدًا له، فيهم أو بهم، والجمع، ربما كان عشيرة، أو مدينة، أو صقعًا، أو أمة عظيمة، أو أممًا كثيرة. والرئيس الأول، إن كان فاضلًا، وكانت رئاسته فاضلة، في الحقيقة؛ فإنه يلتمس بما يرسم، أن ينال، هو وكل من تحت رئاسته، السعادة القصوى؛ التي هي، في الحقيقة، سعادة. وتكون تلك الملّة فاضلة"[23]

ويؤكد الفارابي في كتابيه الأساسيين آراء أهل المدينة الفاضلة، وكتابه الملة أن الملة الإنسانية الأفضل هي تلك الملة التي تتأسس في ذروة تطور الصناعات الفكرية

[23] الفارابي، أبو نصر، كتاب الملة، تحقيق محسن مهدي، ص 43، دار المشرق، 1991

والعملية[24]، وبذلك فإنه يظهر احتراماً واضحاً لخيارات الناس في التدين والفلسفة طالما أنها تأتي في سياق القبول الاجتماعي والاعتماد بقانون.

ومن الواضح أن الفارابي يلتزم موقفاً بالغ الحيادية في تعريف الملة، ولا يتخذ موقف المبشر بالإسلام، أو الناسخ لسواه، وإنما يتحدث عن الدين على أنه وضع اجتماعي، يستند إلى قيم عليا، ومقتضاه أن يتاح للناس التعبد بأديانهم واختياراتهم وفق ما يقره القانون، أو الرئيس بتعبيره، وهذا في الواقع سبق كبير يتيح لنا أن نكرر ما نقوله دائماً إن إعلان حقوق الإنسان هو نتاج جماعي لكل فلاسفة التاريخ وأنبيائه وعقلائه وحكمائه، والفارابي هنا واحد من أبرزهم.

وأما موقفه من عذاب الأمم في الدار الآخرة وفق ما قرره القرآن الكريم، فهو لا يكتب في ذلك شيئاً ولكنه يؤكد مرات عديدة في كتابه آراء أهل المدينة الفاضلة أن البعث الأخروي هو بعث روحي وليس جسمانياً، وأن الحياة الآخرة هي حياة فكرية، وأن نعمة الحكمة والفلسفة التي يؤتاها الفلاسفة هي أعظم نعم الله، وهي الحياة المثلى في عالم الخلود[25]، وهو ما كرره بعده بكثرة محمد إقبال بقوله: الجنة والنار حالتان وليستا مكانين[26].

وفي سياق ما كتبه الفارابي من دور الفيلسوف في قيادة الأمة فقد كتب ابن باجة الأندلسي 1085-1138م تأكيداً لمواقف الفارابي في آراء أهل المدينة الفاضلة، وأشار إلى أن العمل الصالح ينبغي أن يتجرد من النوازع النفعية والربحية، واعتبر من هذه المنافع ما ينتظره الناس من جنة ونار، وأكد أن المطلوب في العمل الصالح

---

[24] مهدي، محسن، الفارابي وتأسيس الفلسفة السياسية الإسلامية، ص 107

[25] الفارابي، أبو نصر، آراء أهل المدينة الفاضلة، ص 56 دار المشرق بيروت

[26] انظر الفصل الخاص بإقبال في هذا الكتاب

هو بلوغ الكمال الذي يجعله راضياً عن نفسه، قريباً من ربه، وهو فهم عابر الأديان والأوطان، يشترك فيه كل أبناء الإنسانية على اختلاف أديانهم وأفكارهم وأعراقهم.
عاش الفارابي حياة مدهشة، وعلى الرغم من شهرته التي طبقت الآفاق واصطفاه لأجلها الملوك، ولكنه كان يؤثر حياة بسيطة للغاية وقد خصص له سيف الدولة أربعة دراهم كل يوم كان يقتات منها، وكان يمضي سائر يومه في غرف النواطير، في بساتين دمشق والربوة، وكان الأمراء والوجهاء يدعونه لقصورهم باستمرار فيتعفف ويعتذر، ولكنهم كانوا تصدمهم الدهشة حين يجدونه مع نواطيرهم في أطراف البستان!
وفي الربوة كتب قاموس الموسيقى الخالد: ((صنع بسحر)) وهي مقامات أهل الأذواق والأشواق، الصبا والنهاوند والعجم والبيات والسيكاه والرصد.
نظر إليه فقهاء عصره كحكيم كبير، وتغنى به المسلمون عبر التاريخ، قبل أن تطهر فتاوى التعصب، وقد صاحب سيف الدولة في حلب وانتقل معه إلى الشام، وحين توفي صلى عليه سيف الدولة مع أربعة من خاصته ودفن بالباب الصغير.

ابن سينا

الاسم الكامل	أبو علي الحسين بن عبد الله بن الحيسن بن علي
ألقاب مشهورة	الشيخ الرئيس
التاريخ	963-427هـ/ 980-1037م
الولادة والارتحال والوفاة	ولد في بخارى وسافر إلى العراق وتوفي بإيران – همدان
أهم الكتب التي ألفها	له نحو ثلاثين كتاباً ومن أشهرها:
أهم ما ألف عنه	صدرت مئات الكتب عن ابن سينا باللغات المختلفة، وهذه بعضها
أهم من تأثر فيهم	أرسطو وأفلاطون وأبقراط والفارابي والكندي والرازي وواصل بن عطاء
أهم من تأثروا به	ابن طفيل وابن باجة والبيروني
أهم القضايا التي نادى بها	–عدالة الله في الآخرة ووجوب تأويل نصوص العذاب –خلود الروح وسرمديتها –نفي سبق القلم وتأكيد المشؤولية والإرادة –تقديس النفس الإنسانية وحقوق الإنسان
مساجد بنيت باسمه	بنيت باسم ابن سينا عشرات الجامعات والمستشفيات ومراكز البحث العلمي في العالم
أفلام عنه	فيلم روسي 1956 بعنوان ابن سينا، وفيلم الطبيب للمخرج الألماني فريديك شتوتسل
الضريح	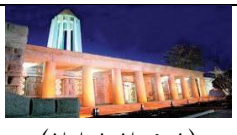 (في همدان في إيران)

ابن سينا... الشيخ الرئيس

إخاء الأديان وكرامة الإنسان.

لم يزعم نفسه فقيهاً ولا محدثاً ... ولم يكن يفتي في صلاة ولا صوم ولا بيع ولا رهن...

ولكنه أستاذ العقيدة الأكبر في الإسلام، وأكثر من قدم الله لعباده عدلاً وحباً ورحمة، وهو واضع عقيدة برهان الصديقين على وجود الله تعالى....

وإنما نلجأ لهؤلاء الأئمة؛ لأنهم يقدمون عقيدة تلتزم بالعدل ويقبلها العقل، فيما بات مشايخنا يقدمون عقيدة التسليم والخضوع، اترك عقلك وتعال! الإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة... أراك ضالاً أخرجوه!

عاش ابن سينا 370-427 في أوزبكستان، وانتقل في حواضر الإسلام بين نيسابور وأصفهان وبخارى وهمدان، وابتسم له الحظ فنجح كطبيب طامح في شفاء الأمير نوح الساماني وهو في سن الثامنة عشرة، وأصبح بالتالي طبيب البلاط وتوفرت له فرص النجاح والمعرفة بشكل خيالي... ونجح الفتى في ترقي المناصب حتى صار وزيراً للسامانيين، ولكنه بالطبع بعد سقوط الدولة السامانية تعرض للاضطهاد والهرب مراراً أيام الغزنويين .

وبعيداً عن تاريخه السياسي والطبي، فالرجل كتب في العقيدة أدق ما يمكن أن يكتبه عارف بالله، بصير بأقداره، معظم لجلاله، وقد بنى عقيدته على أساس إخاء الأديان وكرامة الإنسان، فعدَّ الإنسان روحاً مقدسة، هبطت إليك من المحل الأرفع ورقاء ذات تعزز وتمنع، وأن هذه الروح فيها طيف الله وأثر الله وسر الله، وأن تعظيم روح كل إنسان وتوقير كل الأديان هو طاعة لله تعالى واحترام لخلقه وأمره.

وفي النفس يقدم ابن سينا قراءة تمزج بين الطب والفلسفة والدين، فالنفس ثلاثة: نباتية وحيوانية وإنسانية، أو الأنا والهو والأنا الأعلى وفق فرويد، أو النفس المطمئنة والنفس اللوامة والنفس الأمارة بالسوء، وهو يرى أن النفس مفطورة على الخير وأن الإيمان في كل نفس، إلا النادر الذي يوبقه الشر.

وفي كل تأويل للنفس فقد كان حريصاً على تقديس النفس الإنسانية بوصفها روحاً إلهية في الإنسان، وأن احترام النفس هو احترام لله تعالى، وهي تترقى وتتهذب بتعاليم الأنبياء وهدي الأديان ونور الفلسفة

أما جوابه على السؤال الذي يعصف بكل حائر، وهو ظاهر النص فيما يكون في الآخرة من عذاب وانتقام وزقوم وغسلين ونار سوداء، كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب، فقد اختار أن هذه النصوص كلها من باب المتشابه الذي نرتله ولا يلزمنا الاعتقاد بظاهره وإنما هو على المجاز في ذلك كله، وأن الأصل عدل الله تعالى ورحمته وغفرانه وما أمرنا به من العفو والإحسان، وأن البعث يكون للأرواح على وجه يعلمه الله وأنه قرَّب إلينا المعاني بعبارات من الظاهر وسبيلها المجاز.

وأما جوابه على أكثر الأسئلة قلقاً وهي عدالة الحساب في الآخرة مع تمكن الأقدار المكتوبة من سلوك ابن آدم، فقد ملك قدراً من الجرأة جعله يقول: "إن علم الله تعالى لا يتعلق بالزمان، وهو يشبه ما قالته الأشاعرة: إن قدرة الله تعالى لا تتعلق بالمستحيلات، وهكذا فليس من لازم الاعتقاد أن القدر مكتوب على ابن آدم قبل أن يخلق، فإن الله تعالى قال: ستكتب أعمالهم، وقال: ﴿وَنَكۡتُبُ مَا قَدَّمُواْ﴾ [يس: ١٢] فكتابة الأقدار تكون بعد وقوعها وليس قبل وقوعها حيث ينفي التكليف والمسؤولية.

وفي الواقع فإن ما ذهب إليه ابن سينا واللاحقون من الفلاسفة حول عدل الله تعالى، ووجوب تأويل كل نص يوهم الظلم لصرفه عن ظاهره تأسيساً على وجوب تنزيه الله عن كل نقص، هو مذهب سائر الفلاسفة في الإسلام وفي الأديان الأخرى، وقد تطورت هذه المدرسة في عصر الأنوار تطوراً كبيراً وقد كتب فيها الفيلسوف ليبنتز أطروحة فلسفية كاملة بعنوان ((الثيوديسيا))، صارت عنواناً لكلِّ جدل فلسفي يركز على سؤال التناقض والشر في العالم الأول والعالم الآخر، ووجوب تنزيه الخالق عن إرادة الشر في الدنيا والآخرة.

وقد ظهرت الثيوديسيا في الفكر الإسلامي بوجه خاص لدى المعتزلة الذين تمسكوا بمبدأ العدل والتوحيد في الذات الإلهية.

ومع أن ابن سينا لم يكتب مباشرة في إخاء الأديان، ولكن مذهبه واضح من تقديس النفس الإنسانية واعتبار أثر الله تعالى فيها وأنها حرية بالخلود، وأنها في دار النعيم إلى جوار الله تعالى، وهذا عام في كل أهل الملل والأديان.

ويمكن عدُّ ما روي عن الناسكين الأوائل في الإسلام مؤسساً لهذا اللون من الوعي، قال أبو سليمان الداراني: "إن لله عباداً لا يشغلهم عن الله رجاء الجنة ولا خوف النار"[27]، وقال الفضيل بن عياض: "إني لأستحي من ربي أن أعبده خوف ناره[28]"، وقالت رابعة العدوية: "إن قوماً عبدوه خوف ناره فتلك عبادة العبيد، وقوماً عبدوه رجاء جنته فتلك عبادة التجار، وإن قوماً عبدوه لأنه الله فتلك عبادة الأحرار"[29]، وقال إبراهيم بن أدهم: "اللهمَّ إنك تعلم أن الجنة لا تزن عندي جناح بعوضة إن آنستني بذكرك ورزقتني حبك وسهلت علي طاعتك"[30].

---

[27] الغزالي أبو حامد، محمد بن محمد، إحياء علوم الدين ج4 ص 310

[28] المصدر نفسه.

[29] الأصفهاني أبو نعيم، أحمد بن عبد الله، حلية الأولياء، ج8 ص 35

[30] المناوي، محمد عبد الرؤوف بن علي، الكواكب الدرية ج1 ص288

حقق ابن سينا أعظم نجاح لعالم مسلم، وصار رمز الحضارة الإسلامية، وظلَّ كتابه ((القانون في الطب)) أحد أبرز كتب العلم في الأكاديميات الأوربية، وتحتفل به اليوم تركيا وإيران والعراق وأوزبكستان بوصفه بطلاً قومياً ورمزا سامقاً لحضارة الإسلام.

من المؤسف أن الرجل نال نصيبه من التكفير، ولم يشفع له كل ما قدم للحضارة الإسلامية وكل ما قدم من براهين علمية على وجود الخالق سبحانه وعدالته في المعاد، فتواتر على تكفيره عدد من رجال الدين أبرزهم الغزالي وابن القيم وآخرون، ولكن الرجل بقي حاضراً في الضمير العالمي، وفي عام 2018 استيقظ العالم كله على صفحة غوغل التي يتوسطها ابن سينا كرمز عالمي أكبر للإخاء الإنساني والعلم والحضارة والتفوق، أما اليونسكو فقد خصصت عام 1980 لإقامة مؤتمرات دولية عن ابن سينا في الذكرى 1000 عام لمولده.

ترك ابن سينا نحو 264 كتاباً في العقيدة والحكمة والطب، أهمها ((النجاة)) و((الشفاء)) و((الإشارات))، وفيها كتب عقيدة العدل والحق، ونزه الله عن كلِّ عبث وظلم، وألقى القلم وقال: بهذا ألقى الله...

إخوان الصفا

الاسم الكامل	مجموعة من الباحثين الأحرار الذين تبنوا تياراً عقلياً فلسفياً، وطالبوا بالحريات والمساواة، الأمر الذي اضطرهم للتستر والاختفاء
المكان	عاشوا في البصرة وترحلوا بين العراق والشام ومصر في خفاء
التاريخ	القرن الثالث والرابع الهجري
أشهر رجالهم	أبو حيان التوحيدي، أبو سليمان محمد بن مشير البستي، وأبو الحسن علي ابن هارون الزنجاني، ومحمد بن أحمد النهرجوري، والعوفي، وزيد بن رفاعة.
أهم الكتب التي ألفوها	رسائل إخوان الصفا
أهم ما ألف عنهم	
أهم من تأثر فيهم	الدولة الفاطمية – التيارات العقلانية في الإسلام
أهم من تأثروا به	جعفر الصادق – أئمة اهل البيت
أهم ثلاث قضايا نادوا بها	• إخاء الأديان • التأويل الباطني والمقاصدي للدار الآخرة • قدسية الإنسان ومنزلته

ظهر إخوان الصفا في البصرة في العصر العباسي، في مدَّة شهدت الصراع بين المعتزلة وأهل السنة، وهي الصراعات التي عانى منها الفقهاء أيام المأمون والمعتصم والواثق، ثم عانى منها الفلاسفة أيام المتوكل والمنتصر والمستعين، وتحددت ملامح الصراع الاعتقادي بين تيارين واضحين: تيار يرى ثبات النص وأزليته، وتيار يرى تحرك النص وتاريخيانيته.

ومن المؤكد أن إخوان الصفا كانوا يميلون للرأي الثاني، وكانوا أقرب إلى الفلسفة الاعتزالية، ولعل ذلك يفسر غيابهم وتخفيهم وحرصهم على كتابة أفكارهم ونشرها دون التصريح باسمائهم، وفي الواقع فإن الأسماء الحقيقية لكتاب إخوان الصفا لا زالت محل شك وقد ذكر منهم أبو حيان التوحيدي في الإمتاع والمؤانسة خمسة وأثنى عليهم طيب الثناء وهم: محمد بن مشير البستي المشهور بالمقدسي، وأبو الحسن علي ابن هارون الزنجاني، والعوفي، وزيد بن رفاعة، والنهرجوري، ويعتبر كثير من الباحثين أن أبا حيان التوحيدي منهم، ومنهم من يضيف ثابت بن قرة وأبا إسحق الصابئي إلى مجموعة إخوان الصفا باعتبارهم أيضاً دعاة للإنسانية.

ويعدُّ الإسماعيليون أن إخوان الصفا هم أئمة أهل البيت الذين كانوا يعيشون مرحلة الستر في البصرة قبل أن يقدموا من البصرة إلى تدمر ثم إلى سلمية ومصياف، قرب حمص، حيث يقام ضريح جليل لقبورهم على رأس تلة خضراء في وسط غابة غاية في النقاء والجمال.

ويسمي أهل مصياف إخوان الصفا بأنهم الإمام التقي والوفي والزكي، وهم النسب الذي بين عبيد الله المهدي مؤسس الدولة الفاطمية وبين إسماعيل بن جعفر الصادق مؤسس البيت الإسماعيلي.[31]

ويمكن فهم الظاهرة بأنها كانت منصة يلتقي فيها من يؤمن بالتفكير العقلاني الحر، والمذهب الإنساني، ويؤمن بكمال الله تعالى ويتأول كل نقص أو وهن أو جهل توهمه ظواهر النصوص بحق الخالق سبحانه، ويجمعهم أيضاً أنهم كانوا معارضين للدولة العباسية ولم يكن يمكنهم الظهور للعلانية.

ومع أن المذكورين من إخوان الصفا لا يزيدون عن عدة أفراد ولكن من المؤكد أن مئات المفكرين والباحثين كانوا ينتمون إلى هذه المنصة المعرفية النخبوية، التي كانت تستخدم الحمام الزاجل في التراسل والتواصل، وقد نجحت في إيصال رسائلها ونشرها عبر مراحل متطاولة من التاريخ.

وقد كتب إخوان الصفا قراءتهم في سلسلة من الدراسات نشرت بشكل سري وخفي، أبرزها رسائل إخوان الصفا وخلان الوفا.

وتشتمل رسائل إخوان الصفا على اثنتين وخمسين محاضرة شرح فيها إخوان الصفا عدداً من القضايا الفكرية المتصلة بتهذيب النفس والعلاقة بين الشريعة والحقيقة، والمشترك الإنساني، وتعتبر من الدراسات المتقدمة في الإسلام التي تؤسس لفكرة الإخاء الإنساني بين الأديان والثقافات والقوميات، حيث يشترك الخلق جميعاً في انتمائهم إلى الله واقتباسهم من نوره وروحه، فيتعين إكرام الإنسان لمكان سرِّ الله تعالى فيه بغض النظر عن دينه وجنسه.

---

[31] فيكون نسب عبيد الله الفاطمي مؤسس الدولة الفاطمية 297 هـ كالتالي: عبيد الله بن عبد الله الزكي بن محمد التقي بن أحمد الوفي بن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق.

وفي اختيار طريف يقدم إخوان الصفا صورة الإنسان الكامل برسم مزيج من الأمم يتخير أجود ما فيها: العالم الخبير الفاضل، الذكي المستبصر، الفارسي النسبة، العربي الدين، الحنفي المذهب، العراقي الآداب، العبراني المخبر، المسيحي المنهج، الشامي النسك، اليوناني العلوم، الهندي البصيرة، الصوفي السيرة.

وبغض النظر عن هذا الانتقاء فإن الفكرة واضحة وهي أن لكل أمة مزايا وفضائل، وأن بلوغ الكمال يقتضي الاقتباس من الأمم جميعها ، ويصرُّون على اكتشاف ما أودع الله في المسيحيين والهنود واليونان من العلم والحكمة والنور.

ويقدم إخوان الصفا رؤيتهم في إخاء الأديان في عبارة واضحة: إنَّ جميع الأديان في جوهرها واحد، لأن لها غاية واحدة هي التعلق بالمثل العليا الفاضلة والتشبه بها على قدر الطاقة الإنسانية.

ويؤكد إخوان الصفا أن الاختلاف في الرأي والشكل واللون من طبيعة الإنسان، ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم، ولو شاء الله لجعل الناس رأياً واحداً، وديناً واحداً ولا يزالون مختلفين، ولذلك خلقهم، ومما ورد في الرسائل:

وينبغي لإخواننا أيدهم الله تعالى، ألَّا يعادوا علماً من العلوم أو يهجروا كتاباً من الكتب، ولا يتعصبوا على مذهب من المذاهب.

ويقسم إخوان الصفا الناس إلى أربعة أقسام:

- الذين لم يؤتوا العلم ولا الإيمان، الجهلة المفرطون لا اهتمام لهم إلا لذائذهم وغرائزهم.
- الذين أوتوا الإيمان وهم المصدقون بالرسل ولا يملكون برهاناً ولا معرفة

- الذين أوتوا العلم وهم الفلاسفة الذين جمعوا المعارف من مظانها ولم يتفتوا لوحي ولا كتاب.
- الذين أوتوا العلم والإيمان وهم الذين جمعوا بين العلم الإنساني والفيض الروحاني.

وتؤكد الرسائل بتفصيل شديد أن الاختلاف بين الناس هو إرادة الله تعالى، وأنه ليس من العقل العمل على إنهاء الاختلاف، ولاختلاف الشرائع فوائد كثيرة، أهمها إنها أيقظت النفوس من نوم الجهالة ونبهتها من السهو والغفلة، واختلاف الناس في المذاهب والآراء يمنحك مشاهدة الخير والشر، ويدعو إلى ترك الرذائل واكتساب الفضائل، واختلاف العقائد هو الطريق الواحد المستقيم الذي يوصل الإنسان إلى الكمال والهدف المطلق.

وتؤكد الرسائل أن اختلاف الأديان ناشئ من أسباب موضوعية يعدون منها: اختلاف الأبدان، والطباع، والمناخ، والنجوم، وأن الرسل جميعاً يحملون دعوة واحدة للفضيلة الخير وتختلف الشرائع بين عصر وعصر وأمة وأمة ودين ودين: ﴿ لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗا ﴾ [المائدة: ٤٨]

فدين الأنبياء دين واحد، ومسلكهم جميعاً مسلك واحد، ومقصدهم مقصد واحد وغرض واحد، وإن اختلفت شرائعهم، صلوات الله عليهم.[32]

[32] مجموعة من المؤلفين، رسائل إخوان الصفا وخلان الوفاء، ج2 ص66 دار مؤسسة الأعلمي بيروت.

ابن طفيل

الاسم الكامل	أبو بكر محمد بن عبد الملك بن محمد بن طفيل القيسي الأندلسي
ألقاب مشهورة	فيلسوف وطبيب وشاعر
التاريخ	505-581هـ/ 1110-1185م
الولادة والارتحال والوفاة	ولد في وادي آش بالأندلس وارتحل إلى المغرب ومات بمراكش
أهم الكتب التي ألفها	حي بن يقظان – مراجعات بين ابن رشد وابن طفيل، وأرجوزة في الطب
أهم ما ألف عنه	
أهم من تأثر فيهم	أفلاطون وأرسطو والفارابي وابن سينا والغزالي وابن باجة
أهم من تأثروا به	أبو إسحق البطروجي، ابن النفيس، ابن رشد، توماس هوبز، جون لوك، دانييل ديفو، إسحاق نيوتن، إيمانويل كانت، غوتفريد لايبنتس، فولتير،جورج كيث وروبرت باركلي
أهم ثلاث قضايا نادى بها	• الثقة بالعقل وقدرته على اكتشاف الحقائق • العقل والنقل مختلفان مناطاً ومقاصد وغايات • دور النبي ودور الحكيم
مساجد بنيت باسمه	هناك عشرات من الجامعات والمدارس والشوارع بنيت باسم ابن طفيل
أفلام عنه	تم إصدار أكثر من فيلم عن فكرة ابن طفيل منها ماوكلي وروبنسون كروزو وحي بن يقظان

هو محمد بن عبد الملك بن طفيل القيسي الأندلسي 1110-1185م فيلسوف أندلسي اشتهر برائعته الكبيرة حي بن يقظان، كما حقق سبقاً واضحاً بين الفلاسفة والأطباء وعلماء الفلك والفلسفة والأدب.

وقد ركز ابن طفيل فلسفته في روايته الشهيرة ((حي بن يقظان))، التي اقتبسها كما يقول عن ابن سينا وسماها **الحكمة المشرقية**.

وتحمل رواية حي بن يقظان مضامين فلسفية عميقة، وقد ترجمت بصيغ كثيرة إلى لغات مختلفة، وخلاصتها أن طفلاً ولدته أميرة محترمة على وجه مشروع في دينهم، ولكنها خافت الافتضاح فألقته في صندوق في البحر، فساقته مياه البحر وأمواجه إلى جزيرة خالية، معتدلة الهواء طيبة الثمر عذبة الماء، فلما وقع بشاطئها بكى فأغاثته ظبية فقدت رضيعها، وما زال يرضع من ثديها حتى حبا ومشى ونشأ وحيداً في الجزيرة، وبعد تفاصيل موحية ينتهي الأمر بحيّ إلى التأمل والإشراق والعرفان، فيصل بتأمله ونظره إلى الحقائق الكبرى في الوجود ومنها التوحيد والمعاد والعدل، وغيرها من الحقائق التي يدركها العقلاء بنور العقل والفطرة دون الحاجة لنبي أو كتاب.

وتضيف الرواية فصلاً آخر حيث وصل إلى الجزيرة إياها فتى يقال له أبسال كان قد آمن بالوحي الذي جاء به نبي ذلك الزمان ثم انصرف ليعتزل الخلق في العبادة والتأمل فوصل إلى جزيرة حي بن يقظان، وكان أول لقاء لحي بإنسان مثله، وكان قد بلغ الخامسة والعشرين وهو لا يتقن اللغات ولا الكلام ولم يسمع بنبوة ولا وحي ولا كتاب، وبعد أن استأنس حي بالوافد الجديد على الجزيرة، راح أبسال يحدثه بأمر الوحي وراح حي يحدثه بأمر العقل، وكانت المفاجأة أن الرجلين تطابقاً فكراً

ومنهجاً فقد بدا لحي أن كل ما أخبر به أبسال من أمر الوحي قد هداه إليه العقل، وبدا لأبسال أن كل ما أخبر به حي قد دل عليه الوحي.

ومراد ابن طفيل أن يقول بوضوح إن كليات الإيمان يمكن بلوغها عن طرق التأمل المحض، وأن اختلاف الناس في بعض تفاصيلها هو اختلاف مرصد وزاوية رؤية، وهو اختلاف رتبة وليس اختلاف نوع، وبات المنهج الذي يبشر به ابن طفيل كما سماه جان لوك منهج الصفحة البيضاء وفيه أن الإنسان قادر أن يبلغ المعارف العليا والحقائق الفاضلة بالتأمل والنظر.

وتنطلق مساهمة ابن طفيل في رسم صورة مختلفة للدين من الصفحة البيضاء للذات التي يملؤها الوحي او العقل بالحكمة والنور، وان الناس في اختلافهم مأجورون مبرورون؛ لأنهم يبتغون الوصول إلى الحق، وقد يبلغوه أو يضلون عن بعض تفاصيله، وأن الرسوم والشعائر والمظاهر والكعبة والمشعر والحجر والأيقونات ضرورية لربط العامة بحقائق التوحيد التي لا تدرك إلا بتأمل عميق يختص بالحكماء ولا يدركه العامة.

ويمكن القول: إن الأساس الفلسفي لهذه القصة هو بيان الطريق الذي كان عليه فلاسفة المسلمين من تطابق العقل والنقل، وإمكان الوصول إلى مشترك عرفاني بين الأديان لتأكيد القيم العليا للدين من التوحيد والعقل والنبوة والمعاد.

وقد تأثر كثير من فلاسفة عصر الأنوار بفكرة حي بن يقظان وإيقاظ الإنسان الجواني للوصول إلى درك الحقائق وممن أشار إلى تأثره المباشر بحي بن يقظان جون لوك وديفيد هيوم وبيركلي، وهناك عشرات الإشارات إلى القصة في الأدب الفلسفي الأوروبي في عصر الأنوار وما بعده.

ولعل أوضح الإشارات المباشرة لهذه الرواية في الأدب الأوروبي كتاب إدوارد بوكوك 1671م بعنوان ((الفيلسوف الذي علم نفسه))، وكانت دراسة بوكوك هي منطلق اهتمام الفلاسفة الأوربيين بالرواية ومقاصدها الفلسفية العميقة، وفي هذا السياق يمكننا قراءة رواية جان جاك روسو ((عقيدة قس من جبل سافوا)) وكذلك رواية ((ربونسون كروزو)) للكاتب دانييل ديفو و((ماوكلي)) فتى الأدغال، وكلُّها تشتمل على محاولات للوصول إلى المعرفة دون أيِّ تأثير تلقيني، ومن خلالها يمكن تلخيص المشترك بين الأديان من القيم المدركة بالعقل والتأمل والعرفان.

ومن الواضح أن ابن طفيل كان لا يرى في الأديان إلا نسقاً معرفياً متوازياً، فلم يشغله خلاف الأديان وتنابذ أتباعها بل اعتبر أن الغاية التي تبشر بها الأديان واحدة، وأنه لا مبرر ولا معنى لانقسام الناس واختلافهم حول حقائقها المتقاربة، وأن التشابه كبير بين النقل والعقل، وبين الوحي والنظر، وهو ما يخدم في النهاية مبدأ إخاء الأديان وكرامة الإنسان.

البيروني

الاسم الكامل	أبو الريحان محمد بن أحمد
ألقاب مشهورة	بطليموس العرب (كان يتحدث ثمان لغات)
التاريخ	362-440هـ/ 973- 1048م
الولادة والارتحال والوفاة	ولد في الري ورحل على الهند وتوفي في جرجان بإيران
أهم الكتب التي ألفها	الآثار الباقية عن القرون الخالية، تحقيق ما للهند من مقولة معقولة في العقل أو مرذولة، الجماهر في معرفة الجواهر، القانون المسعودي
أهم ما ألف عنه	
أهم من تأثر فيهم	أولاد موسى بن شاكر
أهم من تأثروا به	ابن سينا ابن النفيس ابن الهيثم
أهم ثلاثة قضايا نادى بها	• الدعوة إلى الحياد في البحث العلمي • الكشف عن عقائد الهندوس في الإيمان وتصحيح الأوهام حولهم • تأكيد الحاجة لاختلاف الشرائع
مواقع بنيت باسمه	عشرات الجامعات والمشافي ومراكز البحث والشوارع سميت باسم البيروني
أفلام عنه	تم إنتاج فيلم عن حياة البيروني في الاتحاد السوفييتي عام 1974، كما تم إطلاق اسمه على إحدى الفوهات البركانية على سطح القمر، وعلى الكويكب 9936 -Al Biruni.

البيروني... إخاء الأديان وكرامة الإنسان...

أبو الريحان البيروني 362-444 هجرية كان أبرز علماء الدولة الغزنوية، التي سيطرت على الخلافة العباسية، كان يتقن سبع لغات، وهو أول من شرح دوران الأرض حول محورها، ويعتبر من أعظم العقول عبر التاريخ...

ولو كتبت عن البيروني كعالم فلك وكيمياء وجغرافيا لما اعترض أحد فالرجل محل إعجاب الجميع بعقله ووعيه وبحثه الموضوعي.، وقد اختارته وكالة ناسا ليكون اسماً لكوكب جديد، كما أطلقوا اسمه على موضع بركان في القمر، فبات في تاريخ العلم في العالم أشهر من نار على قمر.

ولكنني أتحدث عن الامام البيروني كواحد من أعظم علماء العقيدة في الإسلام، وهو أستاذنا وإمامنا في إخاء الأديان، فأولئك الذين يملكون أسرار العلم أولى الناس بمعرفة أسرار الدين، والفائض الحضاري ينتج فائضاً إنسانياً، وهو أحد الرائعين الذين قدموا لنا عقيدة التوحيد في وفاق مع الأديان والملل، وسبقوا عصورهم وزمانهم، ونزهوا الخالق سبحانه عن العبث والظلم وظن الجاهلية تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً.

أما الجانب الأهم من حياته فهو موقفه من أديان الهند، فقد كلفه السلطان محمود الغزنوي ان يزور الهند ويتعرف إلى فلسفتها، وبعد سنوات عديدة أمضاها في الهند تعلم فيها اللغة السنسكريتية، كتب رؤيته في أديان الهند في كتاب خاص بعنوان تحقيق ما للهند من مقولة في العقل أو مرذولة... وكان مدهشاً أنه أكدَّ أنَّ الأصل في العقيدة الهندوسية التوحيد، وأن المثقفين منهم لا يعرفون خالقاً ولا رازقاً إلا الله، وأن جوهر فلسفة الهند هي الإيمان، وأكدَّ أن الاعتقاد لدى حكماء الديانة الهندوسية يتجه إلى التوحيد، فيما يرتع العامة بالتعدد والشرك وعبادة الأيقونات!

وفي عبارة دقيقة يكتب البيروني شارحاً المعتقدات الهندوسية بقوله: "واعتقاد الهند في الله سبحانه انه الواحد الأزلي من غير ابتداء ولا انتهاء، المختار في فعله، القادر الحكيم أي المدبر المبقي، الفرد في ملكوته... لا يشبه شيئاً ولا يشبهه شيء".

ومن النصوص السنسكريتية أدهش البيروني العالم بالكشف عن التوحيد في عقيدة الهندوس، عرفاناً صوفياً خالصاً، الله طاهر، وغير متجسد، ولا صورة له، وهو واحد أحد لا ثاني له، ولا يمكن رؤيته ولا تجسيده وكل ما خطر ببالك فالله خلاف ذلك.

وأشار البيروني أن حكماء الهند يقفون بجلال وهيبة أمام حضرة الله تعالى، ويسمونه البراهما، ولا يقدمون له أي وصف أو تمثال، ويقولون نحن أقل من أن نتوجه إليه وهو أكبر من أن يصغي إلينا، والعجز عن الإدراك إدراك والبحث في ذات الله إشراك.

أشعر بالعار أن يكون هذا خطابنا الإسلامي في أزهى عصور الحضارة، وأن يكون خطابنا اليوم عنهم لا يعدو شتائم وظنون وأنهم محض عُبَّاد بقر!

والهندوسية ليست ديناً واحداً بل هي أديان كثيرة، وبخلاف ما تعلمناه وعلمناه...فإن الهندوس في الأصل أهل توحيد ومعرفة بالله ... وإيمانهم بالله تعالى عظيم، ومكان الفطرة فيهم ما زال عميقاً ومتيناً، بخاصَّة بين حكمائهم وعلمائهم، وهم يبالغون في تنزيه الله تعالى حتى يقولون بالضبط: كل ما خطر ببالك فالله خلاف ذلك، ويقولون بالضبط: العجز عن الإدراك إدراك والبحث في ذات الله إشراك.

ويعتقدون أنه الواحد الأزلي، الأول من غير ابتداء والآخر من غير انتهاء، والمختار في فعله القادر الحكيم المدبر، المنفرد في ملكوته عن الأضداد والأنداد، لذلك فهم يعظمون الخالق ويعترفون بالعجز عن فهمه.

ويرون أنَّ لله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله.

ويسمونه البراهما، ويرون أن الخالق له أسماء كثيرة أكثر من ورق الشجر وأكثر من زبد البحر وأكثر من قطر المطر، وأن لله طرائق بعدد أنفاس الخلائق، ويصفونه بأنه رب الأرباب وإله الآلهة وأحسن الخالقين.

هذا بالضبط ما يمكن فهمه من نصوص الفيدا المقدسة التي تتحدث عن أصل العقيدة.

وفي عبارة دقيقة يكتب البيروني شارحاً المعتقدات الهندوسية بقوله: "واعتقاد الهند في الله سبحانه أنه الواحد الأزلي من غير ابتداء ولا انتهاء، المختار في فعله، القادر الحكيم أي المدبر المبقي، الفرد في ملكوته... لا يشبه شيئاً ولا يشبهه شيء".[33]

وفيما يلي نصوص من الفيدات والأوبانيشادات في وصف الخالق، الإله الأعلى:

"لا صورة له" [yajurveda ، 32 الآية 3]

"هو طاهر وغير متجسد" [yajurveda ، 8/40]

"اهدنا الصراط القويم واغفر الذنوب التي تجعلنا نضل ونضيع" [yajurveda ، 16/40]

"أيها الأصدقاء لا تعبدوا سواه، القدوس، ادعوه هو وحده" [Rigveda ، 8/ 1]

" واحد أحد لا ثاني له" [Chandogya ، 2/6]

لا والدين له ولا سيد فوقه" [Shvetashvatara، 9/6]

لا يمكن رؤيته ولا تجسيده"[34] [Shvetashvatara، 9/4]

---

[33] البيروني، أبو الريحان محمد بن أحمد، تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة، ج1 ص 22

[34] قمنا بتحديد النصوص من مصدرها الأصلي في الفيدات الهندوسية باللغة الإنكليزية وأشرنا إلى مواضع ورودها

ثم ينقل البيروني صفة الله عندهم عن كتاب من كتبهم يسميه باتنجل: " وهو وإن غاب عن الحواسّ فلم تدركه فقد عقلته النفس وأحاطت بصفاته الفكرة وهذه هي عبادته الخالصة وبالمواظبة عليها ينال السعادة؛ فهذا كلامهم في هذا الكتاب المشهور"[35]

ولكن اعتقاد التوحيد تغير مع الأيام، ودفعتهم التصورات الحرفية للنصوص إلى تصور طبقات من الآلهة تحت الإله الكبير، ويبدؤون من تصور الإله الكبير براهما والآلهة الصغيرة فشنا وسيفو وغيرها...

والحقيقة أن وعيهم بهذه الكائنات يطابق وعي المسلمين بفئة الملائكة فهم جنود الله وأعوانه وهناك ملاك الرعد وآخر للمطر وثالث للموت ورابع النفخ في الصور ولكن من المؤسف أن لغتهم تترجم هذه الفئة من المخلوقات إلى آلهة وليس كملائكة ويتعلقون بكائنات من الطبيعة يحبونها ويعظمونها، ويعبدها جهالهم، ويرون أنها قريبة من الله تعالى، ويؤلفون في ذلك الحكايات والأساطير.

أما البقرة فقد دعاهم حكماؤهم لإجلالها واحترامها لأن الهند مجتمع زراعي والبيت الذي فيه بقرة لا يجوع ولا يعطل، ولا يوجد عاقل في الدنيا يعتقد أن البقرة تخلق وترزق وتحيي وتميت، وليست هذه قطعاً عقيدة الهنود.

على كل حال فأنصح قبل الردِّ بقراءة ما كتبه عن عقيدتهم كلٌّ من العلماء المسلمين الراسخين في العلم : البيروني في كتابه: ((تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة))، وقد قرأها بأصولها السنسكريتية وبخاصَّة بهاغوت غيتا والمهاباهاراتا وبهاغها فاديتا، وبعض عباراتي منقول بالحرف من كتابه، وشمس الدين المقدسي في كتابه أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم وقد نقل سبعة عشر نصاً عنهم في التوحيد.

---

[35] البيروني، أبو الريحان محمد بن أحمد، تحقيق ما للهند، ج1 ص21 طبع عالم الكتب

أما ما قدمه ابن النديم والشهرسستاني والمسعودي في مروج الذهب فهو لا يتجاوز الانطباع الشعبي العام دون الدخول في المنهج الموضوعي القائم على دراسة نصوصهم وتعليهلها.

وتحدث البيروني ببالغ الاحترام عن الصابئة الحرانية، وقال في كتابه ((الآثار الباقية في الأمم الخالية)) الصابئة أناس يوحدون الله وينزهونه عن القبائح، كقولهم: "لا يحد، ولا يُرى، ولا يظلم ولا يجو"ر، ويسمونه بالأسماء الحسنى مجازاً.

وأفرد في كتابه تفسيرا مختلفا لعقيدة النصارى في الأب والولد، وتحدث عن أثر اللغات في تغير المصطلح وأن الأبوة هنا أبو الكل: أصعد إلى أبي وأبيكم، وأظهر إنصافاً غير معتاد أبداً في حوار الأديان في تلك المرحلة من التاريخ.

وبمثل هذا تحدث عن الديانة الزرداشتية والبوذية واليهودية، وكان مدهشاً في روايته لأقوال الأديان بكل احترام، فكان يظهر أجمل ما في هذه الأديان ويلتمس لأصحابها المعاذير، في حيادية مدهشة لم يكن العالم يعرفها آنذاك.

كان أبو الريحان يرى أن الأديان كلها تدل على الله، ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله، وأن على الأديان أن تدرك أنها صادرة من ذات واحدة، وأن على أتباعها أن يتعاونوا في القضاء على الفقر والتسول والمرض والظلم، وأنه يجب وقف التبشير القائم على تسخيف دين الآخرين، وتشويه انبيائهم..

لقد ألزم البيروني نفسه ألَّا يُقحم نفسه في خطاب حجاجيّ يقوم أساسًا على مجموعة من الثنائيات من قبيل التقبيح والتزيين والحمد والذمّ والتصويب والتخطيء، وأكد أنَّ ذلك شان الانفعاليين وليس شأن العلماء الموضوعيين.

لقد تحدث عن الأديان باحترام بالغ، وعدّها إلهية المصدر، وأكدَّ دور الإنسان في تطورها واستكمالها، ورسم صورة جميلة للمانوية واليهودية والهندوسية، وهذا قدر من

الإنصاف لا تعرفه الأمم التي ظلت تتقاتل بعد البيروني ألف عام لإثبات صحة عقائدها.

نحاول أن نبني الوعي وأن نقول للناس إن العالم بيت الجميع، وأن علينا أن نعيد تصوراتنا عن الناس، وعلى الأقل أن نسن بهم سنة أهل الكتاب.

يجب أن ينتهي هذا الجنون... أليس عاراً أن يقول رجال الدين باسم مليار إنسان عن مليار آخر بأنهم مجانين يعبدون البقر، فيجيبهم مليار آخر بل أنتم مجانين تعبدون الحجر!

سأل المروزي أحد كهنة الهندوس: "إذا كنتم تعلمون أنه _أي الله_ ليس كمثله شيء، فلمَ تعبدون الأصنام من دونه؟ فأجابه البراهمي:إنه قبلتنا ... كما أن قبلتكم حجارة مبنية.... يقصد الكعبة أفأنتم تعبدونها؟"

حين تقرأ عبارات البيروني في الأمم والأديان تسمع في ثنايا خطابه: أمة بين الأمم وليس أمة فوق الأمم، ونبي بين الأنبياء وليس نبياً فوق الأنبياء، ودين بين الأديان وليس ديناً فوق الأديان.

ابن حزم

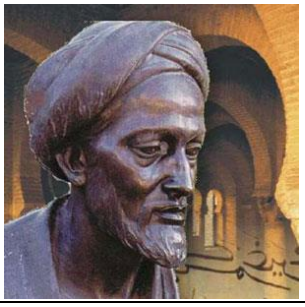

الاسم الكامل	علي بن أحمد بن حزم القرطبي الأندلسي
ألقاب مشهورة	إمام الظاهرية
التاريخ	384-456هـ/ 994-1064م
الولادة والارتحال والوفاة	عاش في الأندلس وعمل كأبيه وزيراً لأبناء المنصور بن أبي عامر وأمضى آخر حياته في قرية أبيه في بيت منشم وفيها فرض عليه المعتمد بن عباد عليه الإقامة الجبرية
أهم الكتب التي ألفها	
أهم ما ألف عنه	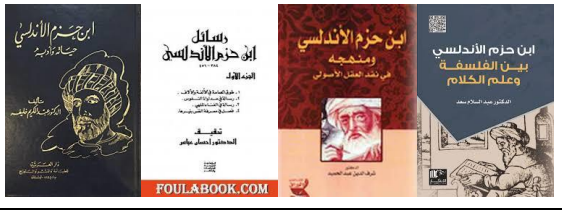
أهم القضايا التي نادى بها	• إلغاء القياس وفتح فضاء الاجتهاد • القول بإباحة وفضل الغناء والموسيقا والفنون • فضل الحب والشوق والمودة • الدفاع عن منزلة المرأة وحقوقها وحريتها • التأكيد على النسخ في القرآن والسنة
مساجد بنيت باسمه	قامت عدة مدارس ودور نشر ومراكز بحث علمي تحت اسم ابن حزم

ابن حزم الأندلسي... الفقيه العاشق... المجتهد الحر

ابن حزم.. 996-1064 فخر الحضارة الإسلامية في الأندلس، تعده إسبانيا اليوم واحداً من أعظم علماء أوروبا عبر التاريخ، وقد أقامت له احتفالات كبيرة في الذكرى الألفية لميلاده وخلدته بطوابع البريد ومتاحفها وجامعاتها.

ولعلك تقول على الفور: كيف تصنف ابن حزم من أعلام التنوير في الإسلام، والرجل هو مؤسس مدرسة ظاهر النص؟

في الواقع كان موقف ابن حزم من النص مختلفاً للغاية عن موقف الظاهرية اليوم، لقد كان ببساطة يرى أن للنص دلالة ظاهرة يجب اتباعها بدون تأويل، ولكن النصوص في معظمها محكومة بأسبابها، وهي تتناول جزءاً صغيراً من الحياة، فيما تبقى أحكام الحياة على الإباحة الأصلية، وهو مذهب الاستصحاب، أما القياس على النص القرآني والسنة وإعادة استخراج الأحكام منهما لكل زمان وكل مكان فهو لون من العبث، وفي رد ماحق على منهج عبادة النص قال ابن حزم: "القياس منهج إبليس؛ إذ قال: أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين!"

فالنص محكوم بظروفه وزمانه ومكانه ولا ينبغي التوسع فيه، ولا تحميله ما لا يطاق، والمطلوب فيما يستجد من مسائل إعمال نور العقل وليس ليّ أعناق النصوص لاستخراج الإعجاز والعجائب.

وحين تناول النص القرآني بالتفسير جزم بأن 227 آية فيه هي من قبيل المنسوخ، نرتلها ولا نطبقها؛ لأنها قد نزلت لظروف مختلفة ولم تعد موجودة فيما بعد، وبعضها نسخه القرآن وبعضها السنة وبعضها الإجماع.

أنقل عنه هذا مع تحفظي الكبير على نسخ آيات الرحمة بآيات السيف، وقناعتي أن العكس هو الصحيح.

وفي الواقع فإن ابن حزم ظاهرة محيرة، فهو بالإجماع من أوسع الناس علماً وأغزرهم قلماً وأكثرهم إحاطةً، وهو قدر يتفق عليه محبوه وشانئوه على السواء.

ولكن تكمن فرادته من وجهة نظري في وعيه المتوازن بالقران الكريم، فهو لا يشارك عموم الناس النظرة الإطلاقية أن النص فيه حلول كل زمان ومكان، بل هو يقيده بظروفه وقيوده اللغوية، وبالفعل تكرر منه أن النهي الوارد في القرآن هو عن قول أفٍّ، ولا يوجد شيء بشأن الضرب، وهو موقف على غرابته واستهجانه يوضح مذهبه بدقة، وكأنه يقول: لا تحملوا النص ما لا يحتمل ولا تخترعوا عجائب ضامرة فيه لم تكن في وارد منزله ولا مبلغه.

لا يعني ذلك أبداً أنه يبيح ضرب الوالدين أو يستسلهما أبداً، بل يعدُّ ذلك دليلاً عقلياً واجتماعياً محضاً.

أتفق معه في هذه النظرة، ومقتضاها أن كثيراً من شأن الدنيا لم يفصله قرآن ولا سنة. ولا حرج فهذه ليست نقطة ضعف بل نقطة قوة لأمة تريد أن تبني الحضارة الإنسانية ولا سبيل لها في الحكم على الأشياء والأحداث إلا النظر والحوار والدراسات الاجتماعية الموضوعية.

كان وزيراً وابن وزير، وكان صاحب ثروة طائلة، كان أبوه وزيراً للحاجب المنصور بن أبي عامر أقوى حكام الأندلس، أما هو فقد ولي الوزارة ثلاث مرات، وكان مستقبله وراءه حين خاض حروبه الضارية ضد الكهنوت، فترك الوزارات كلها، وأطلق قلمه الشارط في مواجهة سدنة الوهم من رجال الدين الذين حنطهم الناس واعتبروهم أئمة معصومين، فيما رآهم ابن حزم مجرد فقهاء يصيبون ويخطؤون، وليس هناك أي فائدة في اتباع أحد منهم، بل إن الاتباع يكون لنور العقل وبصيرة الوحي.

هو أغزر علماء الإسلام تأليفاً وأكثرهم آثاراً، ومع أن السيوطي يزيد في عدد الكتب عن ابن حزم، ولكن ابن حزم تجاوز الجميع في الكتب الأصيلة التي ظهر فيها علمه واجتهاده.

حين يريد الفقهاء اليوم أن يجتهدوا في مسألة فيجب أن يسألوا أولاً ابن حزم؛ لأنهم سيجدون يقيناً ما يبحثون عنه، وبإمكانك اليوم أن تقول في أي مسألة: هذا قول الجمهور، أما ابن حزم فله رأي آخر...

ومما انفرد ابن حزم بتأصيله مسالة الغناء والموسيقا والمعازف، فقد فتح الباب إلى الغاية لفن إسلامي راقٍ تستعمل فيه المعازف، وقد كتب هازئاً بشدة من الذين يحمّلون القرآن ما لا يحمل من النهي عن الغناء، وبخاصة في آية: ﴿مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ﴾ [لقمان: ٦]

ثم أورد النصوص الاثني عشر التي يرويها المشايخ في تحريم الغناء والموسيقى والفن فسحقها جميعاً بآلته الأصولية الحادة، وحين كانوا يحرمون الغناء والتصوير والفنون والموسيقا كان يقول مستهجناً ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب، وما كان ربك نسياً.

وحين انتهى من تحرير دراسته نشرها في ((المحلى)) في واحد وعشرين صفحة استقصى فيها بالتفصيل الممل كل رواية وردت في تحريم الموسيقى والغناء، وجزم بآلة علم الاصطلاح التقليدية بطلان هذه الروايات، وأشار إلى ضعفها وتهافتها من جهة الإسناد، وأكد أن معظمها من باب الموضوع المفترى الذي لا تقوم به حجة في حلال ولا حرام. وقبل أن يمضي لإعداد كتابه الجميل طوق الحمامة في أخبار الإلف والإيلاف، كتب عبارته الجامعة المانعة فيما يتصل بالفنون، وهي فتوى لا

تحتاج اليوم لأدنى تعديل نظراً لارتباطها بالمقاصد، وتحميل الإنسان المسؤولية الكاملة عن اختياره الفني، وموقفه الذوقي الجمالي، وهذا نصها:

فَجَوَابُنَا – وَبِاَللَّهِ تَعَالَى التَّوْفِيقُ : أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ – صلى الله عليه وسلم – قَالَ: "إنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ وَلِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى فَمَنْ نَوَى بِاسْتِمَاعِ الْغِنَاءِ عَوْنًا عَلَى مَعْصِيَةِ اللَّهِ تَعَالَى فَهُوَ فَاسِقٌ، وَكَذَلِكَ كُلُّ شَيْءٍ غَيْرُ الْغِنَاءِ، وَمَنْ نَوَى بِهِ تَرْوِيحَ نَفْسِهِ لِيَقْوَى بِذَلِكَ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَيُنَشِّطَ نَفْسَهُ بِذَلِكَ عَلَى الْبِرِّ فَهُوَ مُطِيعٌ مُحْسِنٌ، وَفِعْلُهُ هَذَا مِنْ الْحَقِّ، وَمَنْ لَمْ يَنْوِ طَاعَةً وَلا مَعْصِيَةً، فَهُوَ لَغْوٌ مَعْفُوٌّ عَنْهُ كَخُرُوجِ الإِنْسَانِ إلَى بُسْتَانِهِ مُتَنَزِّهًا، وَقُعُودِهِ عَلَى بَابِ دَارِهِ مُتَفَرِّجًا وَصِبَاغِهِ ثَوْبَهُ لازَوَرْدِيًّا أَوْ أَخْضَرَ أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ، وَمَدِّ سَاقِهِ وَقَبْضِهَا وَسَائِرِ أَفْعَالِهِ – فَبَطَلَ كُلُّ مَا شَغَبُوا بِهِ بُطْلانًا مُتَيَقَّنًا – وَلِلَّهِ تَعَالَى الْحَمْدُ؛ وَمَا نَعْلَمُ لَهُمْ شُبْهَةً غَيْرَ مَا ذَكَرْنَا."

والنص بطوله في كتابه ((المحلى بالآثار في شرح المجلى بالاختصار))، ولا نزيد عليه في أمر المناقشة الإسنادية شيئاً.

وحين استوفى بحثه في فضل الغناء والمعازف أطلق كتابه التالي ((طوق الحمامة في الإلف والإيلاف))، وهو كتاب من روائع الأدب العالمي، وقد ترجم إلى لغات كثيرة، يسجل فيه ابن حزم أخبار المحبين والعاشقين والواهين، ويكشف عن قدسية الحب وطهارته ونبله، وعذابه ونعيمه، وآهاته ومواجعه، وما يكون فيه من عجائب، ومع أن حكاياته متنوعة ومختلفة، ولكنه أراد بالتأكيد الحب الذي ينتهي بما شرع الله من فراش الحلال.

شن عليه الفقهاء خلال التاريخ هجوماً مستمراً، ولكنهم في النهاية رجعوا إليه في دقيق المسائل.

هو مرجع الفقهاء اليوم في إصلاح الطلاق وتحويله من عبث وعصبية وانتقام يقوم به الرجل حال الغضب إلى عقد قانوني بصير يتم أمام القاضي وتترتب عليه آثار وحقوق محمية وظاهرة.

وهو مرجع الفقهاء اليوم في فرض الوصية الواجبة التي أضافها الفقهاء زيادة على ما في القرآن والسنة من أحكام الميراث وأنصفوا فيها الأحفاد الأيتام حين يموت الجد، فيما ظل الفقهاء يحرمون الأحفاد لأيتام من الميراث تمسكاً بلقياس على النص.

وهو مرجع الفقهاء اليوم في تحرير المرأة وتمكينها، وتوليها المناصب كلها بما في ذلك رئاسة الدولة والقضاء كله، وعبارته في ذلك أوسع ما قاله فقيه: إن الله اصطفاها وشرفها فكانت نبية، فكيف تزعمون أنها لا تصلح للولاية؟ ومع ذلك تحفظ على منصب الخلافة العظمى لارتباطها بالصلاة والجهاد.

وهو مرجع الفقهاء اليوم في مسألة التصاوير والتماثيل والفنون عامة، فالرجل أندلسي، وقد نجح في أنسنة الفقه الإسلامي، وتقديمه كتراث غني في حضارة الأندلس، وبديلاً عن روح الرهبنة وتعذيب النفس التي كانت طبيعة الكنيسة الأوروبية في العصور الوسطى.

لم يسلم ابن حزم من التكفير، وحين دارت طاحونة السياسية، وأعلن موقفاً معارضاً لخلافة المعتضد بن عباد في إشبيلية أمر المعتضد بإحراق كتبه وفرض عليه الإقامة الجبرية وأطلق الدهماء يكفرونه ويشتمونه على سكك الطرق، وقد كتب الشعر في مأساته تلك، ومما قال فيها:

فإن تحرقوا القرطاس لا تحرقوا الذي تضمنه القرطاس بل هو في صدري

يقيم معي حين استقلت ركائبي وينزل إن نزل ويدفن في قبري

تناوله بالثناء والاحترام فقهاء كثر في التاريخ، كما تناوله آخرون بالقدح والاتهام والتكفير أيضاً، وقد اشتد في الهجوم عليه القاضي ابن العربي والتاج السبكي، ولم يقصر ابن تيمية مع أنه أنصفه في بعض مواقفه.

ونحن ندرس حياة هؤلاء الرجال تأكيداً لاحترامهم وبيان عطاءاتهم، والاستفادة من علمهم، ولم نزعم أننا على منهجهم ولا أنهم على منهجنا. الرجل إمام فريد في موسوعيته وعلمه، وفي اجتهاده الحر، ولكنه بالطبع لا يؤيدنا في إخاء الأديان، وكيف لرجل يعمل مع الحاجب المنصور أن يؤيد هذا، وكتابه في ((الملل والنحل)) شاهد على ذلك، لم ننسب إليه ما ليس فيه، ولكن نعده إماما في الاجتهاد الحر القائم على مصلحة الأمة، وأستاذا في مرونة القول بالنسخ في الكتاب والسنة، ويقولون: عجيب أن تكون محباً لابن حزم، وهو أشد الناس في التزام ظاهر النص. صحيح ولكنه يحترم النص ولا يعبده، ويقف به عند ظاهر عبارته، ولا يقيس عليه شأن الأولين والآخرين، بل يفتح باب العلم والعقل إلى الغاية لقد انقذ صفاءنا الروحي بمذهبه في تشجيع الفن، وأيقظ ذهننا العقلي بمذهبه في إنكار القياس.. وهذا يكفي.

الكلام عن ابن حزم طويل وكثير، ومؤلفاته تعد بالمئات، ولعل الحوارات تغني معرفتنا بهذا الإمام الفريد، وأعده إماماً رائعاً في كثير من مسائل الفقه، وأخالفه بالطبع في كثير، وأعده رمزاً متقدماً لفقهاء العقل والنظر، الذين ينظرون إلى القرآن والسنة على أنه نور يهدي وليس قيداً يأسر.

ابن رشد

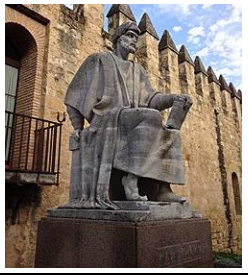

الاسم الكامل	أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن رشد
ألقاب مشهورة	المعلم الثاني – قاضي قرطبة
التاريخ	520-595هـ/ 1126-1198م
الولادة والارتحال والوفاة	ولد في قرطبة وارتحل إلى أشبيلية ثم مراكش وتوفي فيها ثم نقل إلى قرطبة ودفن فيها
أهم ما ألف عنه	
أهم من تأثر فيهم	أفلاطون، أرسطو، أفلوطين، الإمام مالك، ابن باجة، ابن زهر، ابن طفيل، الفارابي، ابن سينا
أهم من تأثروا به	ابن خلدون، رينيه ديكارت، توما الأكويني، دانتي أليغييري، جوردانو برونو، جاويد جيوفاني بيكو ديلا ميراندولا، سيجير برابانت، تشيزاري سريمونيني
أهم القضايا التي نادى بها	-تقديم العقل واحترام النقل -إخاء الأديان وكرامة الإنسان -حق الأمة في تطوير الشريعة -قدم العالم واستيعاب الإيمان لمقولات الفلاسفة
أفلام عنه	أنجز المخرج يوسف شاهين فيلم المصير حول ابن رشد وحصد به الأوسكار العالمي
الضريح	في قرطبة في مقبرة أسرته

ابن رشد ... الفقيه العلماني

أبو الوليد محمد بن أحمد ابن رشد 1126-1198م واحد من أكبر علماء الإسلام خلال التاريخ، ومن المدهش أنه إمام فقهي كبير وفيلسوف نقدي كبير، وقد كنت أظن خلال دراستي الشرعية أن ابن رشد الفقيه هو شخص آخر غير ابن رشد الفيلسوف، وعرفت بعد ذلك أن الفقيه المالكي الهائل الذي كتب ((بداية المجتهد ونهاية المقتصد)) هو نفسه الذي انعطف نحو الفلسفة وصار أشهر فلاسفة الإسلام. بالطبع يتعين أن نشير أن ابن رشد عرف باسم ابن رشد الحفيد، أما ابن رشد الجد فهو جدّه وهو فقيه مالكي متخصص، ليس له دور فلسفي.

ومع أن ابن رشد حاضر في ملفات النهضة في التاريخ الإسلامي والأوروبي كلِّها ، ولكننا معنيون هنا بدوره في إخاء الأديان، فقد حظي ابن رشد بتأييد كبير من المسلمين والمسيحيين واليهود، كما اتهمه فيما بعد متشددون قساة بالتكفير في الإسلام والهرطقة في المسيحية واليهودية.

ويمكننا أن نسجل لابن رشد اعتراضه الشديد على الغزالي في كتابه الشهير ((تهافت الفلاسفة)) فقد كتب الغزالي كتابه على أساس امتلاك الحقيقة المطلقة، ومضى يزج حكماء التاريخ كلهم في سبيل الجهالة والضلال، ابتداءً من أرسطو وأفلاطون وسقراط وصولاً إلى أئمة الإسلام ابن سينا والفارابي والكندي، وقد صنف ذلك في كتابه ((تهافت الفلاسفة)).

وإذا ضممنا إلى كتابه ذاك كتابه فضائح الباطنية فإن عدداً كبيراً من فرق الإسلام أيضاً سنجدها في الفرق الضالة والهالكة، وقد صدر عنه في كتابه فتاوى في غاية الطيش والتهور والدموية، تأمر بقتل طوائف بحالها كالدروز والإسماعيلية ولو لم يظهر منهم أي عدوان أو إساءة.

لا شك أن هذا الموقف استفز الفقيه الكبير ابن رشد بخاصَّة أن الفقيه الغزالي من المتصوفة ويفترض أنهم يتحلون بقبول كبير للناس، ويدركون حكمة الله في اختلاف الأفكار والمذاهب والأديان، وقد دفعه ذلك لتحرير كتابه الشهير ((تهافت التهافت)).

في كتابه ((تهافت التهافت)) عمد ابن رشد إلى التعريف بأئمة الفكر والحكمة من الإغريق والمسلمين ووقف على طرق استدلالهم وطرقهم إلى الحقائق الكونية سواء تحدثوا عن الله أو الهيولى أو العلة الأولة أو واجب الوجود أو الحكمة أو الذات العلية أو الاتحاد أو الحلول أو غير ذلك من مصطلحات الفلاسفة والأديان واختار دون تردد ان كل هذه المفاهيم محاولات للوصول إلى الله، وأن على العقيدة الإسلامية أن تتحلى بالمرونة والاتساع لقبول هذه الهوامش من الاختلافات العقائدية تأسيساً على أن الدين لله، وأن الخلق عباده، وأنه لا يليق بالكامل سبحانه أن يرسل النبوات والرسالات لتتناحر وتتنازع، ولا يمكن أن يكون الهدى محصوراً بفئة قليلة من الخلق وضعتهم الصدف في المكان القريب وصار الآخرون محلاً لغضب الله وسخطه وكراهيته.

وأعترف لك من البداية بأنني تخرجت من كلية الشريعة بدمشق وأنا أعتقد أن ابن رشد الفقيه هو شخص آخر غير ابن رشد الفيلسوف، فقد كنا ندرس الرجلين (أو الرجل إياه) من منبرين اثنين يتعذر الجمع بينهما على أنهما خطاب رجل واحد، فمن أين يمكن لخطاب الفلسفة المحلق نحو العقل الفعال والهيولى الأولى أن يلتزم القيود التقليدية المعروفة وفق منطق قف على ما وقف عليه الأولون فإنهم عن علم وقفوا، وكل خير في اتباع من سلف وكل شر في اتباع من خلف، ولو كان خيراً ما

سبقونا إليه، حيث تتناوشه سهام التكفير وبيانات التضليل بمجرد أن يفكر بمخالفة الفكر السائد، على الرغم مما قد يقدمه خطاب النقد هذا من ضياء ونور.

ولم أكن أتخيل كيف يستطيع رجل كتب ما كتبه ابن رشد أن يحافظ على منبره أو على اسمه بين الفقهاء؛ إذ يحظى باحترام الأحرار من المفكرين وفي الوقت إياه يحظى ببقاء عمامته فوق رأسه أو على رأسه تحت عمامته في وقت كان القتل على الردة أهون من شربة الماي؟ ولكن الرجل قدم في تجربة حياته بكل تأكيد أن التنوير قادر على النهوض من المحراب والتألق على المنبر، ولعلها في العمق روح الحضارة الإسلامية في الأندلس التي كانت صورة واضحة لتمازج البدوي مع الحضري، وإسباغ نعمة الجمال في الفردوس الأندلسي على بطحاء الفكر، وهو ما يمكنك أن تقرأه في التمايز الواضح بين الشرقي والغربي من خطاب فلاسفة القرن السادس الهجري.

فابن رشد الفقيه كان رجل منبر ومحراب وأصدر عدداً من الأعمال العلمية الفقهية لأصحاب الاختصاص اكتملت بكتابه: ((بداية المجتهد ونهاية المقتصد))، وهو أول كتاب منهجي يعتمد الفقه المقارن ويورد باحترام وتقدير حجة الرأي الآخر على الرغم من عدم رضاه عن خياره واعتراضه على حجته، وقد حدد فيما بعد منهجه الفكري بكتابه: ((مناهج الأدلة في علم الأصول)).

وابن رشد الفيلسوف خاض غمار حرب طاحنة ضد التيار التقليدي في الإسلام، وواجه بخاصة الإمام الغزالي الذي كان يمثل الاتجاه المحافظ في الأمة في مرحلة بالغة الدقة والحذر، وأصل لرسالة وفاق بين العقل والدين، ومن ثمَّ كان يرفض منطق الدين المصادم للعقل، ويطالب برسالة واضحة للشريعة في بناء فلسفة متماسكة للعقل والإيمان.

بالتأكيد لم يكن ذلك بدعاً في شخصية ابن رشد، فسجل حياته الشخصية أيضاً طافح بالعجائب فهو الرجل الذي حظي بأعلى مكانة لدى الخلفاء الموحدين أبي يوسف وأبي يعقوب ولكنه كان أيضاً الخليفة الذي حظي بغضبهما وانتقامهما، وهو الرجل الذي فرضت كتبه على المدارس الفقهية ولكنه الرجل إياه الذي أحرقت كتبه فيما بعد في مهرجانات احتفالية، ودرس الفقهاء كتبه في الفقه وأحرقوا كتبه في الفلسفة، واعتبره الفقهاء هرطوقاً في العقيدة قائلاً بالتجسد والحلول على الطريقة النصرانية ولكن أساقفة باريس وأكسفورد وكانتربري في القرن الثالث عشر الميلادي حرموا بدورهم قراءة كتب ابن رشد وأحرقوها أمام عيون الجماهير، حتى على صعيد عمله الشخصي فقد كان الرجل أيضاً محيراً فقد اشتهر فيلسوفاً، ثم عمل طبيباً للخليفة الموحدي أبي يعقوب يوسف، ومن ثم عمل قاضياً له!

وأهم ما في مذهب ابن رشد من المسائل التي اتهم من أجلها بالزندقة ما يأتي: قدم العالم، وعلم الله وعنايته، وكلية النفس والعقل، والبعث. وعادة ما تتم الإشارة إلى مواقفه هذه في الدلالة على أنه يخالف الشريعة وبالتأكيد فإن هياج الدهماء وإحراقهم كتبه في صخب احتفالي كان وراء ذلك، ولكن ابن رشد لم ينكر العقيدة وإنما فسرها على وجه جعلها تتمشى مع الفلسفة.

ففي مسألة **قدم العالم** لم ينكر ابن رشد أنه مخلوق، ولكنه جاء برأي في الخلق خالف فيه المتكلمين بعض المخالفة. فالخلق عنده لم يكن دفعة واحدة، أي مسبوقاً بالعدم، ولكنه خلق متجدد آناً بعد آن، به يدوم العالم ويتغير؛ وبمعنى آخر: هناك قوة خالقة تفعل باستمرار في هذا العالم وتحفظ عليه بقاءه وحركته. والأجرام السماوية على وجه خاص لا توجد إلا بالحركة، وهذه الحركة تأتيها من القوة المحركة التي تؤثر

فيها منذ الأزل؛ فالعالم قديم ولكنه معلول لعلة خالقة ومحركة، والله وحده قديم لا علة له.

أما فيما يختص بعلم الله فإن ابن رشد يأخذ بذلك الأصل الموضوع الذي قالت به الفلاسفة من قبل وهو "أن المبدأ الأول لا يعقل إلا ذاته"، ولا بد أن يكون الأمر كذلك عند هؤلاء الفلاسفة، حتى يحتفظ المبدأ الأول بوحدانيته، لأنه إذا عقل كثرة الموجودات صار متكثراً في ذاته، وصار دليلاً على قدمها، وإذا دققنا النظر في هذا الأصل فإن الموجود الأول يجب ألا يعدو حدود ذاته لأنه لا يعقل غير ماهيته، ويترتب على هذا أن تصبح العناية أمراً مستحيلاً. وذلك هو المأزق الذي كان يجتهد المتكلمون أن يدفعوا الفلاسفة إليه، وهذه بالطبع هي رؤية المعتزلة الذين كانوا يصرون على طرو الصفات على الله ما خلا صفة الوجود، وذلك إمعاناً في التنزيه والتوحيد في معرض ردهم على الدهرية وليس في معرض محاباتهم لها.

ولكن أكثر ما يعنيني في ابن رشد هو أنه اكتمال لرسالة أستاذه وشيخه ابن طفيل الذي كان أول من قدم لوحة فنية مكتملة الأجزاء على مركب الأدب للتوفيق بين العقل والدين، في الرائعة الخالدة ((حي بن يقظان))، التي عالجت أمرين في غاية الأهمية كنا نقرؤهما بعمق في الفكر الاعتزالي وهما اتحاد رسالة العقل والدين، والإعلان عن رسالة العقل نبياً، كما هي في صلب تفسير عبد الجبار الهمداني لآية الإسراء وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً.

وما حرره ابن طفيل في رسالة ((حي بن يقظان)) من وفاق العقل والدين في حديقة الأدب والجمال، حققه ابن رشد على صخرة النقد الصارمة، ومنذ ذلك التاريخ فإن رائعة ابن طفيل ترجمت لأكثر من ثلاثين أدباً عالمياً وسخرت في خدمة أغراض

مختلفة ولكنها ظلت تشير بأصبع مضيئة إلى التجربة الأولى التي قدمها ابن طفيل في خدمة الحقيقة والعقيدة.

ابن رشد وابن سبعين وابن عربي وابن الفارض والحلاج وابن حبش السهروردي أسماء كبيرة في سماء الفكر الإسلامي نتناولها اليوم بالدراسة والثناء والدراسات التأويلية المضنية، ونستدل من خلالها لما عرفته الحضارة الإسلامية من تنوع وغنى ولكن علينا في الوقت إياه أن نقول: إن هؤلاء المجددين عاشوا كفاحهم ورسالتهم على وقع الأخطار المزلزلة ورأوا بأعينهم كيف كانت كتبهم تحرق باسم الرب، وكيف كان أتباعهم يطاردون ويشتتون وأفكارهم تعامل في حلقات الفقهاء معاملة السم الناقع، ولو عاشوا في زماننا لنالوا نصيبهم الوافي من الاتهام بالماسونية والصهيونية والخيانة والإمبريالية وآخر ما يتوفر في قاموس الشتات العربي اليوم من لغة الإقصاء ولعنة الريب.

وفي وعيه بإخاء الأديان أنجز ابن رشد سلسلة مراجعات هامة في علاقة المسلمين بغير المسلمين، ومن أبرز إنجازاته الفقهية وعيه الواضح بوجوب تطوير مفهوم الجزية التي ذكرت في القرآن الكريم عقابا على أهل الكتاب في آية واضحة: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ٢٩﴾ [التوبة: ٢٩]

وأكد ابن رشد أن هذا النص لا يمكن أن يكون سرمداً في كل حال، ولا يصلح في كل زمان ومكان، ولا بد من إعمال النظر في مقاصده وغاياته، وفي هذا المعنى فقد فصل الامام ابن رشد الجزية على ثلاثة اصناف فقال: الجزية ثلاثة أصناف :

- جزية عنْوية وهي هذه التي تكلمنا فيها أعني التي تفرض على الحربيين بعد غلبتهم .
- وجزية صلحية، وهي التي يتبرعون بها ليكف عنهم, وهذه ليس فيها توقيت لا في الواجب ولا فيمن يجب عليه ولا متى يجب عليه وإنما ذلك كله راجع إلى الاتفاق الواقع في ذلك بين المسلمين وأهل الصلح .
- وأما الجزية الثالثة فهي العشرية (والمقصود المعاملة كالمسلمين في دفع الخراج مع زيادة بدلية لكونهم لا يجاهدون) وممن قال بهذا القول الشافعي وأبو حنيفة وأحمد والثوري وهو فعل عمر بن الخطاب رضي الله عنه.
- فالجزية إذن جزية عقد ورضا، وجزية إرغام وصغار، وهذا التقسيم مارسته الدول الإسلامية في معظمها مع الأقليات واعتبر مقبولاً ومتقدماً في عصر ما قبل الدولة الحديثة.

من وجهة نظري فإن ابن رشد تكمن فرادته في أنه لم يشأ أن يمضي في القطيعة مع التيار التقليدي إلى الغاية، كما لم يشأ أن يعلن نفسه ناسكاً لاهوتياً زاهداً، بل أحبَّ الحياة واقترب من السلطان وعمل له وأكل على موائده وأصاب وأخطأ ونجح وأخفق وجامل وتأول واستخدم أدوات السلطان الممكنة في نشر رسالته، وأخذ أجره من كف السلطان طبيباً وقاضياً، وأصر أن يبقى بعمامته على منبره على الرغم من سماعه لفتاوى التفسيق والزندقة الصادرة بحقه وكان مؤمناً بيقين أن التنوير الحق هو ما يحضر من المنابر والمحاريب في تكامل بين العقل والروح والدولة والفرد وهو ما ترسمه أعمال الأئمة الأربعة المجددين، ابن سينا والفارابي في رسالة الفرد والدولة وابن طفيل وابن رشد في رسالة الروح والعقل الذين قدموا بتكاملهم الرباعي دورة

الحضارة الإسلامية المتكاملة التي رسمت المنظومة الفكرية المتكاملة لقيام الأمة ونهضتها .

وأود هنا أن أناقش فكرة تتصل بعناء ابن رشد، فعادة ما نقول إن ابن سينا والفارابي والكندي وابن رشد ونظراءهم كانوا مضطهدين، وقد أُحرقت كتبهم وأفتى العلماء بكفرهم.

ولكن ذلك غير واقعي، نعم. لقد تعرضوا لهجوم عنيف من الناس، وهذا أمر طبيعي يجب أن يستعد له كل من قام بمحاولة تغيير حقيقي في المجتمع، ولا ينبغي على المصلح أن ينتظر تدخلًا من الدولة لمنع الناس من نقده أو اتهامه أو حتى منع كتبه أو إحراقها. ولكنهم أيضًا كانوا قضاة ووزراء ومشاهير في دول الخلفاء، وقد ارتكبوا السياسة ونالوا وزرها، وأصابهم من عافيتها وبلائها.

نستعرض ما لقيه الفلاسفة والمفكرون من الاضطهاد في التاريخ الإسلامي، وهو كثير ومرير بكل تأكيد، ولكنه لا يختلف كثيرًا عما لقيه أيضًا القادة التاريخيون للفكر الملتزم، فالأئمة الأربعة ذاقوا مرارة السجن وبطش السجان، سجن أبو حنيفة مرتين مرة في عهد مروان آخر خلفاء بني أمية ومرة في عهد أبي جعفر المنصور ومات في السجن، وسيق الشافعي للمحاكمة على حمار بلا إكاف من اليمن إلى بغداد، وسجن الإمام مالك وضرب حتى خلعت كتفاه على يد سليمان بن جعفر والي المدينة لأبي جعفر المنصور، وسجن أحمد بن حنبل في سجون المأمون والمعتصم والواثق، وضرب ضربًا شديدًا وكان يُنخس بالسيف فلا يحس لطول عذابه! والأمر نفسه سنلحظه كلما استعرضنا أسماء للمشاهير سواء من الفقهاء أو الفلاسفة الذين كانوا يحظون بمحبة الناس ويتعرضون للمكائد والمكر السياسي، فيغضب منهم الملوك ويذيقونهم أشكال الإهانة.

وما لقيه في هذا المعنى ابن رشد وابن الهيثم والفارابي لا يختلف عما لقيه ابن تيمية وابن القيم، وهي معاناة كانت تتكرر وفق التحولات السياسية وسوء الحظ الذي كابده التنويريون والتقليديون على السواء.

من المؤكد أن أصحاب المواقف العقلية أو التي تؤثر تقديم العقل على النقل سيواجهون من العامة صدودًا كبيرًا، ويجب ألا يسوءهم أن يطردوا من المعاهد الدينية وتصدر بحقهم بيانات وفتاوى، فهذه طبيعة الحياة، ولكن يجب أن نعلم أن الحضارة الإسلامية فسحت لهم في مكان آخر.

ابن عربي

الاسم الكامل	محمد بن علي بن محمد الحاتمي الأندلسي
ألقاب مشهورة	الشيخ الأكبر، ورئيس المكاشفين، البحر الزاخر بحر الحقائق إمام المحققين، محيي الدين، سلطان العارفين. ولقبه خصومه الشيخ الأكفر.
التاريخ	558-638هـ/ 1164-1240م
الولادة والارتحال والوفاة	ولد في مرسية بالأندلس، ثم هاجر على دمشق ثم مكة ثم الموصل ثم بغداد ثم مكة ثم حلب وأخيراً استقر في دمشق ومات فيها
أهم الكتب	أكثر من 800 كتاب تم طبع نحو مائة منها، وأشهرها الفتوحات المكية وترجمان الأشواق وفصوص الحكم
أهم ما ألف عنه	كتب عنه مئات الكتب بمختلف اللغات وهذه طائفة منها 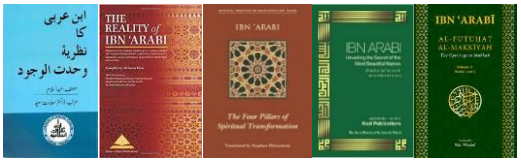
أهم من تأثر فيهم	ابن رشد وابن سبعين موسى بن عمران الميرتلي، أبي العباس العرياني، أبوعبد الله مجاهد، وأبو عبد الله قسوم، وأبو الحجاج الشبربلي
أهم من تأثروا فيه من فقهاء الإسلام	عبد الكريم الجيلي وصدر الدين القونوي وجلال الدين الرومي وابن الفارض وصدر الدين القونوي وفريد الدين العطار وشهاب الدين السهروردي وأبو الحسن الشاذلي والفيروزابادي وجلال الدين السيوطي وعبد الوهاب الشعراني وأحمد السرهندي
أهم من تأثر فيه من غير المسلمين	توما الأكويني، سبينوزا، ليبنتز، آسين بلاثيوس، خوان ريبيرا، الياباني ايزوتسو، نيكلسون
أهم من هاجموه	العز بن عبد السلام، ابن حجر العسقلاني، التاج السبكي، الإمام الذهبي، وابن جماعة وابن حيان الأندلسي وابن الجزري وابن القيم وابن تيمية والحافظ العراقي وابن هشام النحوي وبرهان الدين البقاعي والسراج البلقيني
أهم ثلاث قضايا	إخاء الأديان تكامل الخلق والخالق دين الحب
مساجد بنيت باسمه	مسجد الشخ محي الدين بن عربي في دمشق بناه السلطان سليم الأول
أفلام عنه	فيلم ديكودراما البحث عن محي الدين بن عربي للمخرج التونسي ناصر خمير
الضريح	في مسجد الشيخ محي الدين بدمشق

محمد بن علي الطائي الأندلسي المشهور باسم محي الدين بن عربي 558-638 هجرية

يعدُّ الإمام ابن عربي أشهر فلاسفة الإسلام الذين تحدثوا بشجاعة وقوة عن إخاء الأديان، وله في ذلك دراسات وشروح تطول، وقد تبنى هذا الخيار بكل وضوح وخاض ثلاث تجارب مريرة في الأندلس والموصل وبغداد وحلب ومكة، واجه فيها صدوداً كبيراً قبل أن يتحول إلى الشام في النهاية ليختار بساتين دمشق موئلاً أخيراً ينشر فيها إشراقه وعرفانه.

ومع أنه وجد في الشام قبولاً واستجابة لمشروعه الإصلاحي ولكنه جوبه أيضاً بقدر غير قليل من الرفض، حيث ظهرت سلسلة متعاقبة من الكتب في تكفير ابن عربي، وقال ابن حجر العسقلاني: "إذا لم يكن كتاب الفصوص لابن عربي كفراً فلا كفر في هذه الدنيا"!

وتعاقب فقهاء كبار على اتهامه بأقسى النعوت، ونص على تكفيره أئمة كبار منهم الإمام الحافظ الذهبي والإمام الحافظ تقي الدين السبكي والسراج البلقيني، وقال عنه الحافظ زين الدين العراقي كلامه كلام ضلال وشرك واتحاد وإلحاد، وقال عنه العز بن عبد السلام شيخ سوء يقول بقدم العالم، لا يحل حلالاً ولا يحرم حراماً، وبأشد من ذلك تحدث ابن كثير وابن حجر الهيتمي والإمام نور الدين البكري، أما الإمام ابن قدامة المقدسي صاحب المغني فقد كتب عن ابن عربي بيتين من الشعر:

هذا الذي بضلاله ضلت أواخر مع أوائل
من قال فيه غير ذا فلينأ عني فهو كافر

وقد جمع برهان الدين البقاعي هذه الأقوال في كتاب خاص سماه: ((تنبيه الغبي إلى كفر ابن عربي)) وصار كثير من الفقهاء لا يذكرونه إلا مع الملاحدة والزنادقة وأعداء الدين.

ومن جانب آخر فقد انبرى عدد من علماء الشريعة للدفاع عن ابن عربي وكتبوا عدداً من الكتب في منزلته وفضله، فكتب السيوطي كتابه ((تنبيه الغبي إلى تبرئة ابن عربي))، وكتب عبد الوهاب الشعراني كتابه ((اليواقيت والجواهر في بيان عقيدة الأكابر))، وكتب أيضاً ((تنبيه الأغبياء إلى قطرة من بحار علوم الأولياء))

وبالجملة فإن الرجل يتناوبه في علماء الإسلام لقبان كبيران: **الشيخ الأكبر والشيخ الأكفر!**

ويرجع قدر كبير من المنزلة المتقدمة لابن عربي للسلطان العثماني سليم الأول، فقد كان من أول قراراته حين دخل الشام تجديد ضريح الشيخ محي الدين وبناء مسجد جليل عند ضريحه وقد تم ذلك عام 924 هجرية، وقد بات هذا الضريح اليوم أكثر معالم دمشق زيارة وحضوراً، وباتت مجالس الصوفية والذاكرين تنعقد كل يوم حول ضريحه، ولكن لم تنظم إلى اليوم نشاطات لإخاء الأديان عند ضريحه كما يجري كل عام عند ضريح الإمام جلال الدين الرومي في قونية.

وتعدُّ فكرة إخاء الأديان محورية في كتابات ابن عربي كلها ، وقد تناولها من مداخل كثيرة، يجمع بينها إيمانه الراسخ بكرامة الإنسان، وأنه مشروع الله في الأرض، وأنه مهما شرق أو غرب فهو متجه إلى الله وأن كل الطرق تؤدي إلى الله وأن الله تعالى يرسل المرسلين مبشرين ومنذرين، وأنهم عائلة واحدة ومشروع واحد، تتعدد أوطانهم وأزمانهم وأساليبهم وطقوسهم، ولكنهم يعملون للحقيقة ذاتها وهي أن الله روح العالم ومصدره ومديره ومدبره، وأنه لا يكون في الكون إلا ما شاء الله أن يكون، وأن

خضوع الكون للواحد سبحانه يقتضي احترام الأديان كافة والمرسلين كافة والحكماء كافة بوصفهم مظهر تنفيذ أمره وظهور مشيئته.

ويمضي في شرح الفكرة من حيث المبدأ بتأكيد ظاهرة الناسخ والمنسوخ في الدين، ويقول: "إننا متفقون على وجود الناسخ والمنسوخ في القرآن، ولكننا لا نزيل المنسوخ منه، والشيء نفسه يمكن قوله عن الشرائع الأخرى، بمعنى أن نسخ الإسلام **لجميع الشرائع المتقدمة لا يخرجها عن كونها شرعا له** وهو نسخ يعادل من حيث مضمونه النفي الشامل والتمثل الكامل لها في أحكامه الجديدة.

ويطيل ابن عربي في التأسيس على عقيدة الناسخ والمنسوخ بوصفها تأسيساً للإطار الزماني والمكاني للتشريع، وأن حصول النسخ لا يعني أي انتقاص من كمال الله وكمال النبوة، وإنما هو إرادة إلهية حكيمة، لتأكيد معنى قوله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الرحمن: ٢٩]

ويختصر ابن عربي موقفه من عقائد الأمم بقوله: فما أحد في العالم إلا وهو على الصراط المستقيم[36].

ويوضح ابن عربي اختياره بعبارة شديدة الوضوح فيقول في ((فصوص الحكم)): "وبالجملة فلا بدَّ لكل شخص من عقيدة في ربه، يرجع بها إليه ويطلبه فيها، فإذا تجلى له الحق فيها، عرفه وأقر به، وإن تجلى له في غيرها، أنكره وتعوذ منه وأساء الأدب عليه في نفس الأمر، وهو عند نفسه أن قد تأدب معه، فلا يعتقد معتقد إلهًا، إلا بما جعله في نفسه، فالإله في الاعتقادات بالجعل، فما رأوا إلا نفوسهم، وما جعلوا فيها. فإياك أن تتقيد بعقد مخصوص، وتكفر بما سواه فيفوتك خير كثير،

[36] ابن عربي، محي الدين، فصوص الحكم ج2 ص158

بل يفوتك العلم الأمر على ما هو عليه، فكن في نفسك هيولى لصورالمعتقدات كلها، فإن الله أوسع من أن يحصره عقد دون عقد[37].

وفي السياق إياه يطرح ابن عربي قصيدته الشهيرة:

لقد كنت قبلاً منكراً كلَّ صاحب ... إذا لم يكن ديني إلى دينهِ دانٍ

لقد صار قلبي قابلا كل صورة ... فمرعى لغزلان ودير لرهبان

وبيت لأوثان وكعبة طائف ... وألواح توراة ومصحف مدينة

أدين بدين الحبِّ أنَّى توجهت ... ركائبه في الحب ديني وإيماني

وكان يقول: "لن تبلغ من الدين شيئاً حتى توقر جميع الخلائق".

كما ينطلق من زاوية أخرى أن العابدين مهما عبدوا فهم يبحثون عن الذات الإلهية، وهو المقصود بقولهم: لو حسن أحدكم ظنه بحجر لنفعه الله به، فهو لا يرى العبادة إلا لله ولو كانت الصور مختلفة، فالقصد هو الله، وأن مظاهر العبادة ليست هي جوهرها ولا مقصودها ولا غاياتها، بل المقصود من العبادات هو الغاية التي يسير إليها العابدون.

ويتناول ابن عربي نصوص العذاب الكثيرة في القرآن الكريم التي توعدت فيها الآيات طوائف من غير المسلمين، فيقول:

"وأما أهل النار فمآلهم إلى النعيم، ولكن في النار؛ إذ لا بد لصورة النار بعد انتهاء مدة العذاب، أن تكون بردا وسلاما على من فيها، وهذا نعيمهم فنعيم أهل النار، بعد استيفاء الحقوق، نعيم خليل الله، حين ألقي في النار"

فلا بد من نفوذ الكلمة، ثم يكون المآل للرحمة، التي وسعت كل شيء، فهو في الدنيا يرزق مع الكفر، ويعافي ويرحم، فكيف مع الإيمان والاعتراف في الدار الآخرة

[37] ابن عربي، محي الدين، ترجمان الأشواق 43

على الكشف، كما كان في قبض الذرية؟ فعقابهم وعذابهم تطهير وتنظيف، كأمراض المؤمنين، وما ابتلوا به في الدنيا من مقاساة البلايا، وحلول الرزايا مع إيمانهم، ثم دخول بعض أهل الكبائر النار مع إيمانهم وتوحيدهم، إلى أن يخرجوا بالشفاعة، ثم إخراج الحق من النار من لم يعمل خيرا قط، حتى الساكنين في جهنم لهم فيها حال يستعذبونها، وبهذا سمي العذاب عذاباً.[38]

وينتهي ابن عربي من ذلك كله إلى ست حقائق يعدُّها أصلاً في التوحيد:

المقدمة الأولى: الإحسان إلى الخلق جميعهم؛ مؤمنهم وكافرهم، ظاهراً وباطناً.

المقدمة الثانية: أن الله تعالى لم يقصد إلى إفناء الكافرين، بل بقاءهم لتحقيق حكمة الخلق.

المقدمة الثالثة: أن الرحمة الإلهية وسعت كل شيء.

المقدمة الرابعة: أن الله تعالى يرزق في الدنيا، حتى مع الكفر.

المقدمة الخامسة: أن العقوبات الدنيوية تطهير وتنظيف، كالأمراض تصيب المؤمنين

المقدمة السادسة: أن أهل الكبائر من الموحدين، وكذا من لم يعمل خيراً قط، وأنهم يخرجون بالشفاعة.

ويمضي ابن عربي في تقرير موقفه من إخاء الأديان واحترام مقاصدها واعتبار أساليبها في بناء الإيمان والفضيلة، فيقول:

"فكل إنسان عقيدته ما جعله في نفسه، فكل من عبد ما جعله في نفسه فقد أصاب، والحذر من التقيد بدين خاص، فالخير الكثير في الاعتقاد بجميع الملل والعقائد، وقبول جميع المعتقدات دون تفريق، وذلك أن عبادة الله تعالى، لا تنحصر في دين دون غيره، ولو كان الإسلام نفسه، لكونه واسعا. هكذا يقرر ابن عربي،

[38] ابن عربي، محي الدين، قصوص الحكم 159

بل ويستدل عليه بالقرآن، ويقول: وبالجملة فلا بد لكل شخص من عقيدة في ربه، يرجع بها إليه ويطلبه فيها، فإذا تجلى له الحق فيها، عرفه وأقر به، وإن تجلى له في غيرها، أنكره وتعوذ منه وأساء الأدب عليه في نفس الأمر، وهو عند نفسه أن قد تأدب معه، فلا يعتقد معتقد إلها، إلا بما جعله في نفسه، فالإله في الاعتقادات بالجعل، فما رأوا إلا نفوسهم، وما جعلوا فيها".

فإياك أن تتقيد بعقد مخصوص، وتكفر بما سواه فيفوتك خير كثير، بل يفوتك العلم الأمر على ما هو عليه، فكن في نفسك هيولى لصور المعتقدات كلها، فإن الله أوسع من أن يحصره عقد دون عقد، فإنه يقول: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٥]

ويشرح ذلك في قصيدته الشهيرة في الفتوحات:

عقد الخلائق في الإله عقائدا ... وأنا شهدت جميع ما اعتقدوه

لما بدا ما صوروا متحولا ... قالوا بما شهدوا وما جحدوه

وقد رويت الأبيات نفسها من كلام الحلاج بصيغة وأنا اعتقدت جميع ما عقدوه.

وفي تعبير واضح صرح ابن عربي: إن للحق في كل معبود وجهاً يعرفه من عرفه، ويجهله من جهله[39].

[39] ابن عربي، فصوص الحكم، ص 66

وفي ديوانه ((ترجمان الأشواق)):

بذي سَـلَم والدير من حاضـر الحمى ظباء تريك الشـمس في صـورة الدمى
فأرقب أفلاكاً وأخدم بيعـــــــــة وأحرس روضـــــاً بالربيع منمنمـاً
فوقتـــــــاً أسمّى راعي الظبي بالفلى ووقـتـاً أسمـى راهـبـاً ومـنـجـمـاً
تثلـث محبوبي وقـد كـان واحـداً كما صـــيّروا الأقنام بالذات أقنُما

ومن المناسب أن نذكر هنا المنطلقات الخمس التي استند إليها الصوفية في تقرير إخاء الأديان:

وحدة الوجود: وهي الاعتقاد بأنه لا وجود حق إلا لله وأن العالم صور وأوهام، حقق لا ترى إلا الله.

الحب الأزلي: ويرتكز على الإيمان المطلق بقوة الحب الإلهي الذي نفخ من ذاته في الخلق، فكانوا انبثاقاً منه وفيضاً وأثراً، فالكون من الله، يغمرهم بحبه ويشملهم بعشقه.

الربوبية: التي تقتضي ان الله مسؤول عن عباده وأنهم إن شردوا في درب فتلك إرادته وعنايته، ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير.

الجبر: وهي قائمة على أساس أن الخلق عباده وأنهم لا يملكون لانفسهم ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، وأنهم مهما كان من طاعتهم أو عصيانهم ينفذون أمره وقدره وجبره.

الرضا: الرضا شأن المسلم، فلا يسخط من خلق خلقه الله، ولا يبغض داتاً خلقها الله، ويؤمن أنه في كل إيمان وكفر وطاعة ومعصية مراد لله، وشان المؤمن أن يكون راضياً عن الله في سائر أقداره وخلقه وتدبير عباده.

جلال الدين الرومي

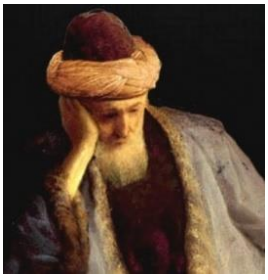

الاسم الكامل	محمد بن محمد بن حسين البلخي البكري
ألقاب مشهورة	مولانا جلال الدين (أمير العشق الإلهي)
التاريخ	604-672هـ/ 1207-1273م
الولادة والارتحال والوفاة	ولد في بلخ بافغانستان، ثم ارتحل إلى بغداد، ثم دمشق، ثم تحول إلى قونية بتركيا، واستقر ومات فيها.
أهم الكتب التي ألفها	صنف عدداً من دواوين الشعر أبرزها: المثنوي، وشمس تبريز، كما كتب تلامذته بعض الكتب ونسبت إليه ومنها: فيه ما فيه، والرسائل، والمجالس السبعة.
أهم ما ألف عنه	كتب عنه مئات الكتب بمختلف اللغات وهذه طائفة منها
أهم من تأثر فيهم	شمس الدين تبريز
أهم من تأثروا به	الصوفية وبخاصة أتباع الطريقة المولوية، التيارات الإنسانية في الإسلام
أهم القضايا التي نادى بها	-الإنسان أخ الإنسان أحب أم كره -إخاء الأديان وكرامة الإنسان -النفس حقيقة خالدة فيها يختصر الوجود -الإشراق مصدر للشريعة
مساجد بنيت باسمه	جامع المولوية بدمشق – جامع مولانا جلال الدين في قونية- عدد من كراسي البحث العلمي في الجامعات
أفلام عنه	فيلم أمريكي من هوليوود من إخراج ديفيد فرانزوني والمنتج ستيفن جويل براون حول حياة جلال الدين، وفيلم إيراني من إخراج حسن فتحي وكتابة فرهاد توحيدي بعنوان ((نشوة الحب))
الضريح	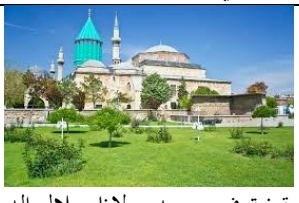 في قونية في مسجد مولانا جلال الدين

جلال الدين الرومي محمد بن محمد البلخي 1207-1273م، أشهر فلاسفة العرفان الإسلامي وأكثرهم حضوراً وتأثيراً، ولعله أشهر فلاسفة الإسلام ورجال العرفان شهرة في العالم، وقد بات اليوم أحد أبرز الرموز على وصال الشرق والغرب، والإسلام والأديان، والعقل والروح.

رحل جلال الدين من بلخ في أفغانستان مع أبيه خلال الغزو المغولي فطاف في الحواضر الإسلامية في إيران والعراق ثم وصل إلى مكة وعاد إلى بيت المقدس فدمشق وأخيراً استقر مع أبيه في قونية بتركيا، وحظي الأب والابن برعاية خاصة من السلطان السلجوقي علاء الدين كيقباد، وباتت الفرصة مهيأة لجلال الدين لينشر إشراقه الروحي في قونية.

أمضى جلال الدين أيامه في الدعوة إلى الإخاء الإنساني واعتبر الديانات مصدراً أساسياً للإخاء الإنساني ومدارس تربوية يتكامل بعضها ببعض، ويهدي بعضها إلى هدي بعض.

ومن كتبه الشهيرة:

المثنوي:

ويعدُّ المثنوي الذي وضعه جلال الدين الرومي مصدراً ثراً لثقافة الإخاء الإنساني القائمة على أساس الإيمان بالله تعالى مصدراً نهائياً للإنعام لسائر الخلق، من الملل جميعاً، وقد انتشر المثنوي انتشاراً عظيماً وكان يسمى عند الفرس بمصحف العجم. و((المثنوي)) عبارة عن مجموعة شعرية من نحو أربعٍ وعشرين ألف بيتاً زاد عليها النُّسَّاخ والشُّرَّاح حتى بلغت ثمانية وأربعين ألف بيت. باللغة الفارسية وضمَّنها أغلب فلسفته وحكمته.

وترجم الكتاب إلى التركية والأوردية والهندوستانية، كما ترجم إلى الانجليزية والألمانية، وتأخرت ترجمته إلى العربية إلى القرن الأخير حيث ترجمه نثراً د. محمد عبد السلام كفافي.

الرباعيات:

وهو كتاب يتألف من مجموعة من الرباعيات، قُدِّر عددها بألف وستمائة وتسع وخمسين رباعية. كتاب فيه ما فيه: وهو كتاب يتألف من مجموعة من المحاضرات التي ألقاها جلال الدين على أصحابه، وقد جمعها مريدوه عنه، ويبلغ عدد هذه المحاضرة إحدى وسبعين محاضرة.

المجالس السبعة:

وهو مجموعة من المحاضرات التي ألقاها جلال الدين الرومي عن القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، وفيها بعض أشعار فريد الدين العطار والسنائي.

الرسائل:

وهي مجموعة من الرسائل التي كتبها الرومي لأصحابه باللغة الفارسية واللغة العربية، وتدل هذه الرسائل على اهتمام الرومي بمعارفه ومريديه وتأثيره الكبير بهم.

ولجلال الدين تأثير كبير على الثقافة العالمية، وهو أحد المفكرين الإسلاميين الذين تجاوزوا الأدب الإسلامي إلى الأدب العالمي، وفي سياق ذلك تم في اليونسكو إعلان عام 2007 مناسبة للاحتفال بمرور 800 عام على ولادته، ووصفته قناة "بي بي سي" في تلك المناسبة بأنه أكثر الشعراء شعبية في الولايات المتحدة الأميركية، لا سيما ديوانه "المثنوي" و"شمس تبريز"

وفي الوسط الفني ذاعت شهرة جلال الدين وشغل بها الوسط الفني العالمي، بوصفه أحد أبرز رجال الألق الروحي والموسيقي في العالم، وغنت فنانات عالميات شهيرة

من كلمات جلال الدين مثل: "غولدي هاون" و"ديمي مور"، واشتهرت على نطاق عالمي أغنية مادونا "قوة الوداع" (The Power Of Good-Bye) وساهمت هذه الأعمال بتعزيز انتشار أعمال الرومي ووصولها إلى أجيال وفئات عمرية وأوساط جديدة في أنحاءالعالم كافة.

وقد اهتم كثير من المستشرقين بشخصية مولانا جلال الدين، ومن أبرزهم البريطاني "رينولد نيكلسون" والذي أمضي منذ نهايات القرن التاسع عشر الى بدايات القرن العشرين حوالي خمس وعشرين عاما من حياته في دراسة أعمال جلال الدين الرومي، حيث ترجم مختارات من ديوانه "شمس تبريز" عام 1898.

كما ترجم المستشرق الإنجليزي "آرثر جون آربري" عدداً من أعمال رومي، وكذلك المستشرقة الألمانية "آنا ماري شميل" التي خصصت كتابها الضخم (815 صفحة) "الشمس المنتصرة" لدراسة وتحليل أشعاره.

واعترافاً بشهرته العالمية فقد أعلنت منظمة اليونسكو 2007 عاماً دولياً للاحتفال بمناسبة مرور 800 سنة على ولادة مولانا. وورد في وصفها لجلال الدين، في بيانها بهذه المناسبة: "إنه كان ولا يزال أحد المفكرين والعلماء الكبار الذين أثروا الحضارة الإسلامية، هو شاعر عالمي؛ إذ تعدُّه الشعوب في كل من أفغانستان وجمهورية إيران الإسلامية وتركيا شاعرها، كان في شعره يخاطب البشرية جمعاء".

وصار مولانا كنز عرفان للعالم، يسميه مريدوه الأتراك ‘‘مولانا’’، ويسمى في بلاد فارس ‘‘مولوي’’، ويعرف أيضا في أفغانستان ‘‘البلخي’’، وفي أوروبا والغرب ‘‘الرومي’’. والرومي نسبة إلى بلاد الروم حيث عاش معظم حياته في قونية، وهكذا تسابقت إليه الأمم وكل يعده رمزاً في حضارتها وإشراقها.

رومي وسارتر

تتناوب الفلسفة والأدب عبر التاريخ التأثير كل في الآخر على أساس حاجة الفلسفة للأدب وافتقار الأدب للمضمون الفلسفي .

والمقال الذي بين يديك يجتهد في رسم ملامح فلسفتين متناقضتين من خلال ما تقدمت به كل فلسفة في الإطار الأدبي وهو ما نستعير له هنا اسم الرجلين الكبيرين رومي وسارتر ، وفق ما تقرؤه في ((مثنوي)) جلال الدين ، و((الرحمن والشيطان)) لسارتر.

والمثنوي عبارة عن مجموعة شعرية من نحو أربع وعشرين ألف بيت زاد عليها النُّساخ والشُّراح حتى بلغت ثمانية وأربعين ألف بيت. نظمها الفيلسوف المسلم جلال الدين الرومي (604 . 672هـ) باللغة الفارسية وضمنها أغلب فلسفته وحكمته.

وترجم الكتاب إلى التركية والأوردية والهندوستانية كما ترجم إلى الانجليزية والألمانية، وتأخرت ترجمته إلى العربية إلى القرن الأخير حيث ترجمه نثراً د. محمد عبد السلام كفافي.

أما ((الشيطان والرحمن)) فإنه رائعة سارتر التي يتحدى بها إرادة القدر مرتين ولكنه ينهي صراعه من حيث بدأ حيث تتكرر المأساة كلما تكرر جيل وأنه لا أمل بالمرة في أي خلاص للإنسان طالما أن كفاح الإنسان سيعود إلى تكرار العبث ذاته ، وليس ثمة أيُّ سبب موضوعي يجعلك تتصور لزوم انتصار الخير على الشر وأن القرائن المتكررة تحمل على اعتقاد العكس حيث سيغلب الشر في آخر كل جولة.

ولكن ما الذي يجمع بين رومي وسارتر على تباعد المواقع التاريخية والجغرافية التي انطلق منها كل واحد منهما؟

في التاريخ الإنساني قرنان متشابهان ، القرن الثالث عشر والقرن العشرون ، وللأسف فإن ما يجمع بينهما إنما هو الجانب الدموي في كل منهما.

فقد شهد القرن الثالث عشر الميلادي خروج المغول من قمم الجبال التي عاشوا فيها لينساحوا في الأرض ويأكلوا الأخضر واليابس من العالم ويبنوا جماجم الرؤوس المقطعة على أنقاض المدن المتهدمة ، وهي المشاهد التي لم يقرأ الإنسان في التراث المكتوب أشد منها هولاً !.

أما القرن العشرون فقد جاء_ على الرغم من البسط الخضراء التي فرشت في أيامه الأولى على أساس أنه قرن الحضارة والتكنولوجيا والمعرفة_ ، جاء أشد القرون هولاً حربان عالميتان أكلتا أكثر من مائة مليون إنسان بين قتيل ومعاق وأكثر من مائة حرب إقليمية حصدت أرقاماً مماثلة .

شهد جلال الدين الرومي القرن الثالث عشر وشهد سارتر القرن العشرين ، ولكن فيما طفحت فلسفة رومي بالأمل والحياة جاءت فلسفة سارتر طافحة بالغثيان والقنوط والإياس من إمكانية إصلاح الحياة داعية الإنسان إلى استنزاف ما يمكنه من أشكال أنانيته!

كان عصر (جلال الدين الرومي) أعقد عصور التاريخ الإسلامي على الإطلاق فحياته التي تمتد من 604هـ إلى 672هـ هي فترة الغزو المغولي التتري الذي حطم معالم الحضارة الإسلامية، وأسقط كثيراً من أوابدها ورموزها.

و(رومي) لم يكن غائباً عن الأحداث في تلك الفترة الصاخبة بل كان يتنقل بين عواصم العالم الإسلامي المشتعلة فمن بلخ إلى نيسابور إلى بغداد حيث كانت مشاهد الموت تنطبع في خياله وهو يغادر تلك المدائن إلى أن استقر به المقام في قونية من أرض الروم .

ولم يكن أصحاب جلال الدين وإخوانه يعلمون أن ذلك الفقيه الهادئ الذي رأى مراكب الموت الجامحة يطوي في صدره فلسفة كامنة ستمكث غير بعيد لتتبوأ محلها

في تاريخ الفلسفة الإسلامية كواحدة من أنضج وأشمل الحلول لكل مشاكل الإنسان ومآسيه.

لقد كانت فلسفة رومي فلسفة حرب نشأت في وقت كانت فيه مذابح المغول والتتار تصخ آذان العالم الإسلامي، ولكن رومي كان يقدم في روائعه الرقيقة فلسفة الكفاح والنضال مخاطباً أولئك الذين أفلتوا من المجزرة وهم يرتقون جراحهم ويعيشون مآسيهم أنه لم ينته كل شي ، وأن المجزرة ليست نهاية العالم ، وأن أمام الإنسان كثيراً من النضال والكفاح في هذه الأرض.

الروح عند جلال الدين هي حقيقة الإنسان وهي خلوده ، وهي التي لا يجوز أن يلحقها الفناء، والروح حتى وهي في هذا القفص الجسدي العابر، لا يمكن أن تكون شيئاً تافهاً على الإطلاق، بل هي في سجنها وأرقها تسخر الوجود وتملؤه بالحب والجمال.

استمع إليه وهو يستنطق الروح المتعبة:

قالت الروح وقد أرهقها ... قفص الأبدان في طول العمر
أنا كالبدر الذي قوسه ... ألم العشق وأضناه السهر
لست بالميت ولو غيبني ... عبث الدهر وآذاني القدر
سوف أغدوا مشرقاً من غربتي ... وأعيش الدهر في كر وفر

ثم يمضي جلال الدين يستنطق الجماد الصامت ويبني على أساس سلوكه فلسفة الكفاح:

حبة القمح إذا تدفنها تجعل القبر مخاضاً مستمر
وإذا تطحنها صلب الرحى فهي خبز فيه طعمى للبشر
وإذا تسحقها أسنانهم فهي للعاقل روح وفكر[40]

لقد كانت صورة الحضارة الإسلامية آنذاك على غاية من الضعف والشيخوخة وكان (جلال الدين) يعلم ذلك ويفهمه ولكنه كان لا يرضى لروح المسلم أن تشيخ بل كان يريدها في شباب دائم لا توهنه عوارض السقم وفي ربيع مشرق لا يقنطه برد الشتاء فكان جلُّ خطابه للروح يقدسها ويمجدها ويأمرها أن تبعث الحياة من جديد في تلك الأبدان الواهنة الزاغبة بسكرات الموت.

واستعراض رسالة الأمل والحب في فلسفة رومي لا يعسر على كل من تصفح المثنوي العظيم، ولعلَّ أوضح تجلٍ لمدرسة الحب هي تلك التي تقام كل عام عند قبر جلال الدين في قونية حيث تتأسس الحركات المختلفة بين الحين والآخر لتجعل من قبره روضة المحبين وليتلاقى عند ضريحه رجال من أديان مختلفة ، ومذاهب مختلفة ليغنوا هناك ويرقصوا لوجه الحب وحده، حيث تصبح الأرض بحق قطعة من فردوس العشق الموعود!

والوجود عند جلال الدين ليس مشكلة مفروضة بل هو ثمرة إنسانية تعكس كفاحه ونضاله وينبغي أن يتجلى فيها طموح الناس وأمانيهم، وعلى عكس ما كان يفترض أن تقوم عليه فلسفة ما بعد الحرب من بأس وقنوط جاءت فلسفة رومي طافحة بالأمر والحب والبشر.

لقد احترق العالم مرة أخرى هذا القرن ولم يقم النازيون بأفظع مما قام به المغول والتتار وقامت عقب الحرب العالمية الفلسفة الوجودية في دعوة صارخة إلى الفوضى والغثيان

[40] المصدر نفسه، نظم ص369

واليأس وهو مصير كل فلسفة لا تقوم على أساس من الإيمان، وبدا للإنسان أنه موجود في هذه الحياة نتيجة ورطة تفاعل هيدروكربوني صدفي عاثر ، كان من الأليق ألَّا يحصل وأنه يعيش هنا مع آلهة بغيضة لا يحبها ولا تحبه ويتربص كل من الطرفين للإيقاع بالآخر ، وتبدو الطريقة اللائقة في مواجهة هذه الحقيقة هي الانتفاض بغضب على كل موروث القيم والفضائل المتهمة أصلاً بالانتحال والزيف لتقوم مكانها مملكة الإنسان المادي البحت الذي هو في الواقع إنسان الهوى والأنانية، وهنا تكون الأنانية قيمة مجيدة؛ لأن الذات هي الحقيقة الوحيدة في مواجهة فظائع الواقع .

أما قيامة الشرق التي أفرزها غزو التتار فقد أيقظت فلسفة (الرومي) على أساس من الإيمان فكانت فلسفة الحب والحياة والخير والأمل، وفي ضياء ذلك كتب روائعه الشهيرة وخلدها في المثنوي.

أنت تدخل المثنوي شاكاً متردداً ولكنك سرعان ما تجد نفسك في زورق جلال الدين في عباب البحر وهو يمد مجدافه إلى قاع المحيط ثم يقلب به القمر والنجوم ويعود بكثير من رمال الصحراء وخضرة المزارع، ويمنحك في كل حال دفء حكمة، ونور معرفة.

موقفه من إخاء الأديان:

وجلال الدين أوضح من صرَّح بمبدأ إخاء الأديان، واتحاد مقاصد السالكين وقد أعلن في مواضع كثيرة أن الله أكبر من أن تحتكره ديانة واحدة، وأوسع من أن تحيط به نبوة واحدة، وأن لله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله.

وفي مطلع ديوانه التبريزي يقول: "أنا نفسي لا أعرف نفسي، فلا أنا مسيحيٌّ، ولا أنا يهوديٌّ، ولا أنا مجوسيٌّ، ولا أنا مسلمٌ، ولا أنا شرقيٌّ، ولا أنا غربيٌّ، ولا أنا من البر، ولا أنا من البحر، ولا أنا من الكون، ولا أنا من المكان".

"مسلم أنا ولكني نصراني وبرهمي وزرادشتي، توكلت عليك أيها الحق الأعلى، ليس لي سوى معبد واحد، مسجد أو كنيسة أو بيت أصنام"

"يَا ولدي مهما إختلفت الأديان والمذاهب والطرُق، يبقى المعشوق والمقصود واحداً، لا إله غيره ولا محبوب سِواه"

"قد تجد الحب في كلِّ الاديان.. لكن الحبَّ نفسه لا دين له".

"ليس العاشق مسلماً أو مسيحياً، أو جزءاً من أي عقيدة، دين العشق لا مذهب له لتؤمن به أو لا تؤمن، مذهب العشاق وملتهم هو الله"[41].

ومن روائع ما أثر عنه في إخاء الأديان وكرامة الإنسان:

"أيها البشر الأتقياء التائهون في هذا العالم، كلُّ هذا التيه من أجل معشوق واحد تبحثون عنه في هذا العالم، ابحثوا في أنفسكم فما أنتم سوى ذلك المعشوق".

"إن لم تجدني داخلك، لن تجدني أبداً، فأنا معك منذ بدء التكوين".

"إن كنت تبحث عن الله فهذه مشكلة. الله فيك وأنت لا تدري".

"هيأتك المرئية التي تظن بأنها أنت هي محدودة، أما حقيقتك فليس لها حدود".

"إن ما يبدو لك متناقضاً، إنما هو إنسجام غير مفهوم"

"فكيف يضحك المرج في الربيع، إذا لم يبك الشتاء".

"أنت الكون بحركته المنتشية".

---

[41] جلال الدين الرومي، المثنوي ج2 ص 158

"ليس العاشق مسلما أو مسيحيا، أو جزءاً من أيٍّ عقيدة... دين العشق لا مذهب له لتؤمن به أو لا تؤمن.[42]

وفي موقفه من اختلاف الأديان، تحدث جلال الدين عن الانسجام في الكون، وأن الاختلاف ما هو إلا إدارة حكيمة من الله للعالم، وما تجده في كل دين من نور فهو إكرام من الله وإنعام، فالنور لا يطفئ النور، بل يزيده إشراقاً.

لم يقارب جلال الدين مسألة إخاء الأديان بالبراهين العقلية والحجج النصية، بل ذهب إلى نشر معانيها بالدليل البرهاني القائم على الاشواق والأذواق والعرفان.

وبدلاً من الخوض في دلالات النصوص وظاهرها عباراتها، فقد مضى جلال الدين إلى عالم الإشارة واستعان بالموسيقا والفن لتعزيز موقفه من اختلاف الأديان والملل، فقد اختصرها بطريقته الروحية الوصفية التي باتت تعرف بالمولوية، وفيها يتقدم الناسك بلباس متعدد الألوان، وطربوش موشوري يحي بالاتصال بمصدر الإشراق، ثم يبدأ الناسك بالدوران بألوانه المتعددة الزاهية التي ترمز إلى التعدد في الأديان والثقافات والممارسات، ولكنها حين تنظلق في دورة الطواف حول الذات الواحدة، تتحد الألوان كلها تلقائياً فتكون لوناً أبيض، تنسجم فيه الألوان كلها، وتعود صفاء ونقاء وطهارة، حيث يلتقي الكل من المختلفين حول الذات الواحدة فيكونون شركاء في الإشراق الذي يتدفق من عل، ولا يميز بين لون ولون.

وفي واحدة من أروع قصائده في ((المثنوي)) يتحدث جلال الدين قصة الفيل الذي نقلهُ الهنود من بلدة إلى أخرى. وصل الفيل في الليل ووضعوه في حظيرة، تسلل الناسُ إلى الحظيرة في الظلام الدامس، وأخذ كلُّ إنسانٍ يتحسس الفيل، فالذي وجد الخرطوم قال أنّ الفيل إنما يشبه الأنبوبة، وقال من لمس ظهره أنه يشبه السرير،

[42] جلال الدين الرومي، المثنوي، ج2 ص 88

ومن لمس أرجله قال إنه يشبه الأشجار، وهكذا فكلٌّ واحد ممن لمس الفيل ظنَّ أن ما لمسه هو كمالُ خلقة الفيل بينما لم يشعر كل واحد منهم إلا بجزء صغير جدًا من الفيل.

إننا ندرك دوماً جانباً من الحقيقة، يعكس موقعنا وظروفنا وثقافتنا، ومن الغرور أن نقول إننا نحيط بالحقائق بدقة، ولا نحتاج للمراجعات والتكامل مع ما يعرفه الآخرون.

ثم يعطف بعد ذلك مباشرة لشرح موقفه من اختلاف الأديان، فيقول: .

"هذا هو حال أصحاب التعصب من الديانات الذين لمسوا من الحقيقة شيئًا ضئيلاً ظنوه كل الحقيقة. بينما قلوب الأنبياء تسع الجميع على خلاف المتعصبين".

وفي سياق قريب يؤكد جلال الدين على لقب له يستهويه بشدة فيقول: "أنا خادم البساط المحمَّدي، هل منعَ البساط المحمدي النصارى واليهود من الجلوس عليه"؟

إن مولانا اشتق مذهباً جديداً في تأويل الدين ونصوصه، يمكن تسميته بـ(مذهب العشق). مذهب تتغلب فيه الروح على القانون، ماهيته التراحم والمحبة، تتسع مدياته الإنسانية، بنحو يحرر البشرية من العدوان والتعصب، ويفتح آفاق التواصل والتفاهم بين مختلف المجتمعات. إنه عابر للأديان والثقافات، ليس نفياً للأديان أو مناهضة لها، وإنما تعبير عن المضمون العميق للأديان، إنه مرتبة متعالية من المعنوية والروحانية، تستوعب جوهر الأديان، وكأنه يحاكي ما يذهب إليه الشيخ محيي الدين بن عربي، عندما يعبّر عن ذلك بصراحة:

أدين بدين الحب أنى توجهت ركائبه فالحب ديني وإيماني

دين يتأسس على الحب والعشق، ينشد الجمال والفن، تبدو تمثلاته في الرقص والموسيقى والسماع، ويسكبها في قوالب الطقوس والعبادات، فتغدو سلماً للوصال

مع الحق، والمعروف لديهم أن **مدارج السالكين إليه بعدد أنفاس الخلائق**. ينأى هذا التديّن عن كل ما من شأنه أن يقود الى القتل والموت، ويسمم الحياة بالحزن، ويلوّث عوالم المعنى بالدم المسفوح. لذلك لا نعثر على دعوات للكراهية هنا، قد نجد من يشير الى كراهية الخطيئة، بيد أنهم لا يكرهون الخاطئ، وإنما يشفقون عليه، ذلك أن معتقدهم ينبثق عن (لاهوت الشفقة) لم يتحدث مولانا عن القتل، ولم يطلب منا إعلان الحرب على الخطاة، ومن يختلفون معنا في المعتقد.

وجدت في مفهومه ديناً لا يكره الحياة، ديناً لا يخاف الفن، ديناً لا يزدري الفرح، دين جلال الدين هو دين التضامن ضد الدعوة للموت، دين يدعو للابتهاج، دين يحتفي بالمسرات، دين مادته المحبة، دين تشرحه كلمات جلال الدين: "توضأ بالمحبة قبل الماء، فإن الصلاة بقلب حاقد لا تجوز"

إن حضور الميراث الروحي للرومي هزم الفهم العنيف لدين البادية السلفي، المولع بالموت.

كان يوصي زائريه: "أخي عندما تأتي لزيارة قبري سيبدو لك السقف راقصاً، لا تأتِ لقبري دون دف، فإن من يستبد به الحزن لا يليق بمائدة الحق".[43]

وفي اليوم السابع عشر من ديسمبر من كل عام يتوافد المؤمنون بإخاء الأديان من كل العالم إلى الضريح الكريم لمولانا جلال الدين في قونية، وتقام مراسم يشارك فيها مسلمون ومسيحيون ويهود وبهائيون وبوذيون وزرادشت، تأكيداً على المشترك الديني بين الجميع، حيث يؤكد الجميع على الواحة الإنسانية الجامعة التي يمثلها هذا الضريح الكبير، ويشارك في هذا الحفل عادة رئيس الوزراء ووالي قونية وعدد من رموز الدولة والمجتمع، إضافة إلى ضيوف من مختلف أنحاء العالم.

---

[43] الرفاعي، عبد الجبار، الدين والنزعة الإنسانية ص 41

وتنظم جانباً من هذه اللقاءات جمعية جان شفيق التركية التي تعد مرجع الطريقة المولوية في العام، وترأسها الآن الشيخة نور آرتيران.

الطوفي

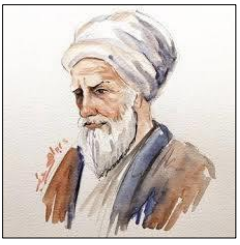

الاسم الكامل	سليمان بن عبد القوي.
ألقاب مشهورة	أبو الربيع نجم الدين
التاريخ	657-716هـ/1259-1316م
الولادة والارتحال والوفاة	ولد بطوف في العراق ودخل بغداد ورحل إلى الشام ومصر والحرمين وتوفي بفلسطين
أهم الكتب التي ألفها	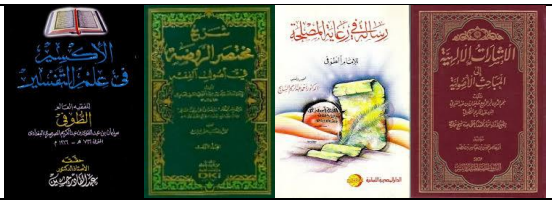
أهم ما ألف عنه	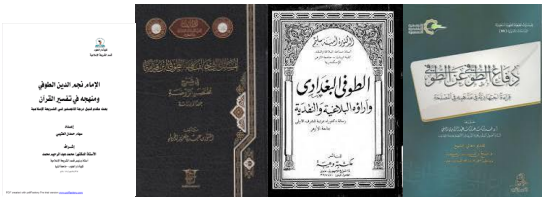
أهم من تأثر فيهم	فقهاء الحنابلة والإمام مالك
أهم من تأثروا به	فقهاء الحنابلة والتيار العقلي في الإسلام
أهم القضايا التي نادى بها	• تقديم المصلحة على النص • التأويل بمقاصد القرآن

نجم الدين الطوفي... فقيه التشريع البرلماني

حيثما كانت المصلحة فثم شرع الله.

فقيهنا اليوم هو واحد من الأصوات المبكرة التي أسست للفقه الحديث ودور البرلمانات في تشريع ما ينفع الناس..

ولد الإمام الحنبلي نجم الدين الطوفي في صرصر بالعراق 657-714 هـ وذلك بعد شهور من أكبر الكوارث التي مرت على العالم الإسلامي حين اجتاح هولاكو بغداد، ومن عجائب التقدير أن هولاكو كان يحيط ببغداد بجيشه المدمر فيما كان المشايخ يتناقشون في فرض الجهر بالبسملة، ولكن المغول دمروا بغداد وخنقوا الخليفة ولم تبق خلافة ولا صلاة سرية ولا صلاة جهرية. وفيما كان واعظون من جانب آخر يخدرون الناس بظاهر النصوص ويدعونهم إلى القعود وأن الله سيفعل بهولاكو ما فعله بأصحاب الفيل ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً، وسيهزم الجمع ويولون الدبر.

بالتأكيد، كان لهذه الكارثة وتداعياتها أثر عميق في ثقافة الإمام الطوفي، وبعد رحلة طاف بها بين العراق والشام وفلسطين، أعلن أن الشريعة متطورة باستمرار وأنها لا تتحنط في أقفاص النصوص، لقد حسم الجدل مباشرة وأعلن أن العبادات مدارها على النص، أما المعاملات فهي مصلحة الأمة ويحكمها بوضوح قول رسول الله: "أنتم أعلم بأمور دنياكم".

إن الشريعة جاءت لمصالح الناس، وهذه المصالح يمكن تقريرها عبر صيغ من مجالس الخبراء والحكماء، ولا بأس أن تكون خلاف ظاهر النص، فالنص يمكن تخصيصه أو تقييده، والعبرة بخصوص السبب وليس بعموم اللفظ، والأمة تنظر في مصالح الشعب وتختار الأصلح لهم في الدنيا، والقرآن والسنة يختار الأصلح لهم في الآخرة.

ولم يشترط الطوفي أن تكون المصلحة مرسلة بل تجاوز في ذلك الإمام مالك، وعبارته أن مصلحة الأمة واجبة الاتباع، والنص يخضع للتقييد والتخصيص، وهذا الموقف وإن كان مسجلاً للطوفي ولكنه في الواقع يشرح ممارسة فقهاء الشريعة في كل عصر، حتى قال الغزالي: "لا نعرف خلافاً بين القائلين بالعموم في جواز تخصيصه بدليل العقل أو السمع أو غيرهما، والعبارة منسوبة للآمدي أيضاً، وهو مذهب أستاذنا الأصولي الدريني رحمه الله".

وهذه الحقيقة الواضحة يصرح بها أيضاً الإمام الجليل الشاطبي: "إن مالكا وأبا حنيفة يريان تخصيص العموم بأي دليل كان، ويستحسن مالك أن يخصص بالمصلحة".

وقال البلقيني: "ليس في كتاب الله آية عامة إلا وطرأ عليها التخصيص إلا قوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ﴿٧٥﴾ ﴾ [الأنفال: ٧٥]

بكل وضوح أعلن الطوفي أن العبادات تتوقف على النص، وأن المعاملات تتوقف على ثبوت المصلحة، وإنما تحتاج الأمة مجلساً من الخبراء والفقهاء للنظر في الأمر (البرلمان العادل) وإقرار ما هو مصلحة للأمة في القانون المدني وقانون العقوبات وقوانين الأحوال الشخصية وغيرها من القوانين.

كتب الإمام الطوفي كثيرة وأشهرها ((معراج الوصول: في أصول الفقه))، و((الذريعة إلى معرفة أسرار الشريعة)). و((تحفة أهل الأدب في معرفة لسان العرب)). و((الإشارات الإلهية والمباحث الأصولية)).

لم يسلم الإمام الطوفي من سهام التعصب وأطلقوا عليه شتائم شتى، حتى قال في قصيدة له:

حنبلي رافضي ظاهري ... أشعري إنها إحدى الكبر

ربما يحتاج فقهاؤنا اليوم إلى بضع مئات أخرى من السنين حتى يدركوا ما حرره الإمام الحنبلي الرائع الطوفي بعبارة واضحة لا لبس فيها: إذا تعارض النقل مع المصلحة فالمصلحة أولى بالاعتبار، أو بعبارة أكثر وعياً وبصيرة قالها الإمام ابن القيم: حيثما كانت المصلحة فثم شرع الله.

قناعتي أن الإمام الطوفي رحمه الله وضع الفقه الإسلامي على منصة التشريع البرلماني تأسيساً على مصالح الناس، واختار وعياً واضحاً بالقرآن الكريم: نور يهدي وليس قيداً يأسر.

الأمير عبد القادر الجزائري

الاسم الكامل	عبد القادر بن محي الدين الجزائري
ألقاب مشهورة	القائد – الأمير
التاريخ	1223-1300هـ/1808-1883م
الولادة والارتحال والوفاة	ولد في الجزائر وقاد ثورة ضد فرنسا ثم احتجز في فرنسا ثم رحل الى تركيا ثم استقر في دمشق.
أهم الكتب التي ألفها	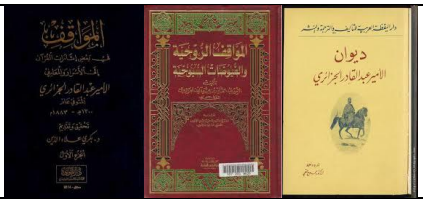
أهم ما ألف عنه	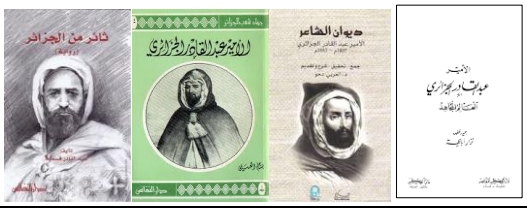
أهم من تأثر فيهم	محي الدين بن عربي، جلال الدين الرومي
أهم من تأثروا به	الأمة الجزائرية، فقهاء الشام، حركات التحرر العربية والإسلامية
أهم ثلاث قضايا نادى بها	• إخاء الأديان • وحدة الشهود • الدفاع عن الحرية
مساجد بنيت باسمه	عدة مساجد في الشام والجزائر وجامعة ومركز أبحاث
الضريح	في أعتاب الشيخ ابن عربي بدمشق، ثم نقل رفاته إلى الجزائر 1966

يعدُّ الأمير عبد القادر الجزائري أشهر أئمة الإسلام في القرن التاسع عشر وقد قاد الجهاد الجزائري ضد الاستعمار الفرنسي، واكتسب بذلك شهرة كبيرة في العالم الإسلامي.

وحين نفي إلى الشام بعد جهاده الطويل اختار من الشام مقام الشيخ محي الدين ابن عربي فكان يأوي إليه مؤكداً أنه ينتمي إلى تلك المدرسة العرفانية.

وقد أوصى الأمير عبد القادر أن يدفن في أعتاب الأمير عبد القادر، وقبره عنده مشهود ومعروف في تأكيد على التزامه منهج السادة الصوفية وبخاصَّة في مبدأ إخاء الأديان.

وكان الأمير عبد القادر قد شرح هذه الحقائق في كتابه ((المواقف الروحية والفيوضات السبوحية))، والذي أحسبه بمنزلة شرح للفتوحات المكية للشيخ محي الدين ابن عربي، وفي قصيدته من البحر الطويل يشير فيه إلى لون من وحدة الشهود عند السادة الصوفية حيث تفنى الأنا في الذات وتظهر في الصفات، فيكون الكون كله مخبراً ومظهراً للكمال الإلهي، حيث يكون الإشراق والنور في باطن الذات، وفيه يجد المرء أحوال السالكين من كل الأمم والأديان والمذاهب:

أنا الحبُّ والمحبوب والحبُّ جملةٌ ... فما زلت في أنا ولوها وحيرانا

ففي أنا كل ما يؤمله الورى ... فمن شاء قرانا ومن شاء فرقانا

ومن شاء توراة ومن شاء إنجيلا ... ومن شاء مزمارا زبورا وتبيانا

ومن شاء مسجدا يناجي به ... ومن شاء بيعة ناقوسا وصلبانا

ومن شاء كعبة يقبل ركنها ... ومن شاء أصناماً ومن شاء أوثانا

ومنن شاء خلوة يكن بها خاليا ... ومن شاء حانة يغازل غزلانا

ففي أنا ما قد كان أو هو كائن ... لقد صح عندنا دليلا وبراهانا

أنا الحب والمحبوب والحبي جملة ... أنا العاشق المعشوق سرا وإعلانا

وفي الواقع فإن الأمير عبد القادر الجزائري كان إماماً في التجرد، ومذهبه أن الله تعالى ظاهر في كل شيء، وفي الموقف السابع عشر يروي عن إمام الطائفتين الجنيد حين سألوه عن العارف والمعرفة فقال: لون الماء لون إنائه، وسكت، فكان يرى أن الكائنات تتمظهر حول الذات وتبقى الذات على الأصل، فمن الممكن أن يكون الإيمان صادراً من أي مذهب ومن أي دين ومن أي فلسفة، ولا يتغير جوهره في النهاية، وإنما يتلون بألوان الأواني[44].

وقد كان هذا الوعي الروحي المتقدم إشارة لوعي الأمير بالإخاء الإنساني والمشترك بين الأديان، وحين وقعت طوشة النصارى في دمشق 1860 نهض الأمير عبد القادر لحماية النصارى في الشام، وفتح داره لاستقبال النصارى الذين جاؤوا هاربين من جبال لبنان، كما أرسل رجاله إلى قلعة دمشق حيث خصصها أيضاً لإيواء النصارى الهاربين من الطوشة، وقد عرف المسيحيون من أبناء الشام هذ الدور النبيل للأمير عبد القادر، ومع أنه يقع عموماً في باب الشهامة والمروءة ولكنه بكل تأكيد أثر من آثار إيمانه الكبير بإخاء الأديان.

وحين تقدم المسيحيون لشكره قال: "ما فعلناه من خير للمسيحيين ما هو إلا تطبيق لشرع الإسلام واحترام لحقوق الإنسان؛ لأنَّ كلّ الخلق عيال الله، وأحبّهم إلى الله أنفعهم لعياله، إنَّ كل الأديان من آدم إلى محمد عليهما السلام تعتمد على مبدأين: تعظيم الله جلّ جلاله، والرّحمة بمخلوقاته، وما عدا هذا، ففرعيات ليست بذات أهمية كبيرة، والشريعة المحمدية من بين كل الشرائع، هي التي تعطي أكبر أهمية للاحترام والرحمة والرأفة، وكل ما يعزّز التآلف وينبذ التخالف، لكن بعض المنتسبين للدين المحمدي ضيعوه فأضلّهم الله"

[44] الجزائري الحسني، الأمير عبد القادر، المواقف ص 55

جمال الدين الأفغاني

الاسم الكامل	جمال الدين بن صفتر الحسيني الأسدابادي
ألقاب مشهورة	الاستراباذي، الأفغاني، الفارسي
التاريخ	1254-1315هـ/ 1838-1897م
الولادة والارتحال والوفاة	من أفغانستان إلى الهند ثم إيران إلى مصر والحجاز ثم إستامبول
أهم الكتب التي ألفها	الأعمال الكاملة
أهم ما ألف عنه	
أهم من تأثروا به	محمد عبده وحركة التنوير الإسلامي
أهم من هاجموه	تيار الولاء للخلافة وللخديوي، ومن الكتب : تحذير الأمم من كلب العجم
أهم ثلاث قضايا نادى بها	• الجامعة الإسلامية • إخاء الأديان • الحرية ومقاومة الاستبداد
مساجد بنيت باسمه	مدارس كثيرة ودور نشر ومراكز أبحاث وشوارع كثيرة
أفلام عنه	مسلسل تاريخي بطولة "محمود ياسين"

يعدُّ جمال الدين الأفغاني أبرز رجال الإصلاح الديني في نهاية القرن التاسع عشر، وقد عمل في شبابه رئيساً للوزراء في أفغانستان أيام الأمير محمد أعظم خان، وحين ولي بعده أخوه شير علي خان رحل الأفغاني في البلاد وتحول إلى صيحة للنهضة والثورة في العالم الإسلامي، وقد سجل له نشاط كبير في مصر وتركيا والشام والعراق والهند، وقد اكتمل دوره الإصلاحي في مصر عبر تلميذه وصديقه الشيخ محمد عبده الذي صار مفتياً للديار المصرية.

أعلن جمال الدين الأفغاني الحاجة لحلف ديني يجمع الإسلام والمسيحية واليهودية والبرهمية لمواجهة الصلف الأوربي الاستعماري، وكان يرى أن القيم الدينية متشابهة في الدعوة إلى حرية الإنسان وكرامته، وأن لقاء الأديان على الغايات الإنسانية أمر إيجابي تماماً وأننا قادرون على مواجهة الأطماع الاستعمارية عبر حلف ديني متوحد، يستخرج أجود ما في المجتمع من قيم الإنسانية والتضحية والفداء، ويقطع الطريق على المعاذير التي يتذرع بها الساتعمار لاحتلال الأرض.

ويمكن القول إن ما نقل عن جمال الدين في مسألة إخاء الأديان ليس إلا موقفاً سياسياً واجتماعياً ولا يتعدى ذلك إلى الجدل اللاهوتي، ولم يظهر من جمال الدين أيُّ اهتمام بإنشاء منصة مشتركة بين أبناء العقائد بل كان مشغولاً بحشد قوى المجتمع كلِّها للدفاع عن الحق والفضيلة والحرية.

وقد عقد الدكتور فارس الأشقر في كتابه جمال الدين الأفغاني ((قضايا ساخنة)) فصلاً خاصاً عن موقف جمال الدين الأفغاني من إخاء الأديان تحت عنوان وحدة الأديان عند جمال الدين الأفغاني، وكذلك كتب السيد محمد باشا المخرومي في كتابه ((خواطر جمال الدين الأفغاني)) فصلاً خاصاً بعنوان: الأديان الثلاثة متفقة في المبدأ والغاية، وكذلك كتب السيد إبراهيم غرايبة في كتابه جمال الدين الأفغاني

فصلاً خاصاً بعنوان: الأديان الثلاثة في فكر الأفغاني، وقد جمعت هذه الدراسات كلاماً كثيراً للسيد جمال الدين الأفغاني حول إخاء الأديان، ومما قال فيه:

"ثم رجعت لأهل جرم الأرض وبحثت في أهم ما فيه يختلفون فوجدته (الدين)، فأخذت الأديان الثلاثة وبحثت فيها بحثاً دقيقاً مجرداً عن كل تقليد، منصرفاً عن كل تقيد، مطلقاً للعقل سراحه، فوجدت بعد كل بحث وتنقيب وإمعان، أن الأديان الثلاثة، الموسوية، والعيسوية، والمحمدية، على تمام الاتفاق في المبدأ والغاية. وإذا نقص في الواحدة شيء من أوامر الخير المطلق، استكملته الثانية.

وعلى هذا لاح لي بارق أمل كبير أن تتحد أهل الأديان الثلاثة مثلما اتحدت الأديان في جوهرها وأصلها وغايتها. وأن بهذا الاتحاد يكون البشر قد خطى نحو السلام خطوة كبيرة في هذه الحياة القصيرة"

وقال: "وأخذت أضع لنظريتي هذه خططاً وأخط أسطراً وأحبر رسائل للدعوة، كل ذلك وأنا لم أخالط أهل الأديان كلهم عن قرب وكثب ولا تعمقت في أسباب اختلاف حتى أهل الدين الواحد وتفرقهم فرقاً وشيعاً وطوائف"

وقال: "وأما ما نراه من اختلاف أهل الأديان فليس هو من تعاليمها ولا أثر له في كتبها. وإنما هو صنع بعض رؤساء أولئك الأديان الذين يتجرون بالدين"

فالأديان في مجموعها هي الكل وأجزاؤها الموسوية، والعيسوية، والإسلام، فما كان من هذه الأديان كلها على الحق فهو الذي يتم له الظهور والغلبة؛ لأن الظهور الموعود به الدين إنما هو دين الحق —كما قلنا – وليس دين اليهود، ولا النصارى،

ولا الإسلام، إذا بقوا أسماء مجردة ولكن من عمل من هؤلاء بالحق فهناك الدين الخالص"[45]

[45] ما نقلناه عن جمال الدين ورد مفرقاً في الكتب الثلاثة المذكورة، وقد أوردنا نصاً كاملاً من كتاب السيد عبد الرحيم أبو علبه في كتابه شوائب التفسير في القرن الرابع عشر الهجري، ص 55 طبع جامعة بيروت العربية 2005

محمد عبدو

الاسم الكامل	محمد عبده حسن خير الله
ألقاب مشهورة	رجل الإصلاح الديني
التاريخ	1266-1323هـ/ 1849-1905م
الولادة والارتحال والوفاة	ولد في طنطا ورحل إلى القاهرة ونفي إلر بيروت ثم عاد إلى القاهرة وتوفي فيها.
أهم الكتب التي ألفها	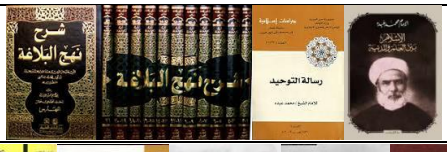
أهم ما ألف عنه	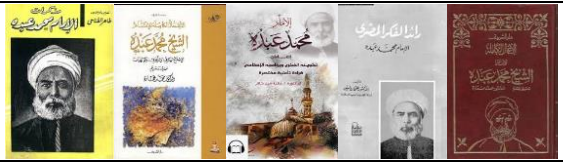
أهم من تأثر فيهم	جمال الدين الأفغاني وشيخه درويش خضر والشيخ حسن الطويل
أهم من تأثروا به	سائر رجال الإصلاح الديني في مصر والعالم العربي ومنهم رشيد رضا وقاسم أمين وأحمد أمين وأحمد لطفي السيد وسعد زغلول وطه حسين ومصطفى عبد الرازق ومصطفى المراغي
أهم ثلاث قضايا نادى بها	-إصلاح التعليم الديني -ربط الوحي بالإشراق -إحياء رسالة العقل في الإسلام
مساجد بنيت باسمه	عدة مساجد في المنيا وأمبابة والجيزة وجواده، وفي الأزهر قاعة كبرى باسم الشيخ محمد عبده، ومراكز بحثية ودور نشر ومؤتمرات وحركات إصلاحية باسمه.
أفلام عنه	مسلسل الإمام محمد عبده قام بالدور أحمد عبد العزيز، وفيلم آخر لقاسم أمين كان دور محمد عبده من نصيب توفيق عبد الحميد.
الضريح	في الإسكندرية

الأستاذ الإمام "محمد عبده " رائد المدرسة الإصلاحية، ومؤسس الجامعة الإسلامية مع أستاذه الأفغاني: يقول: "ليس في الإسلام ما يسمى عند قوم بالسلطة الدينية بوجه من الوجوه , فالحاكم هو حاكم مدني من الوجوه جميعها، بل إن الإسلام هو الذي قضى قضاءً مبرماً لم يسبق إليه أي دين، على السلطة الدينية من جذورها، وأنه يمثل بالتالي الدين العقلي من دون منازع".

أطلق الشيخ محمد عبده رسالته في الإصلاح الديني ابتداءً من كتابه ((رسالة التوحيد))، وفيه قارب فهم النبوة بوعي ديمقراطي وتفسير علمي، وقامت قيامة المشايخ عليه، وعلى الرغم من أن الرجل أمضى نصف عمره في سجون الإنكليز، إلا أن خصومه لم يتوقفوا عن اتهامه بالعمالة للإنكليز، ومع أنه كان أكبر فقهاء عصره واستحق بجدارة مكانة مفتي الديار المصرية، إلا أن خصومه لم يتوقفوا عن اتهامه بالجهل والماسونية وسلط زعرانهم عدداً من الأزهريين لتشويه صورة الشيخ.

التاريخ ينصف الرجال، بعد مئة عام الأزهر يعتذر للشيخ محمد عبده ويعلن تسمية أكبر قاعاته العلمية باسم قاعة الإمام محمد عبده، والآن تم تجديدها وينعقد فيها مؤتمر الفقه الاسلامي واستقرار المجتمعات.

على كثرة ما كتب عن قادة النهضة في الفكر العربي مطلع القرن العشرين فإن اسم الشيخ محمد عبده لا يزال يتصدر أعلام هذه المرحلة على الرغم من قلة ما كتبه، وعلى الرغم من أن تراثه الفكري في معظمه قد تم التقاطه شفاهياً عبر تلامذته من بعده.

ولا شك أن التأثير الأكبر سيبقى لمحمد عبده ليس لأنه صنف في التنوير ما فيه الكفاية بل علينا أن نعترف بأن ذلك إنما تم لأن الرجل تمكن من تقديم رسالته من خلال موقع مؤثر، وهو إفتاء الديار المصرية، وهذا بالضبط ما يجعل صيحات

الإصلاح تشتد أو تهن، فالإصلاح الديني البالغ التأثير هو ذلك القادم من المحاريب والمنابر، إذ لا تزال الأمة تسلم قيادها للمنبر والمحراب، بينما تستعصي على التنوير القادم من منابر الثقافة الأخرى.

كان يدرك تماماً جذور المشكلة، ولم يكن يكتم رأيه أن التخلف ليس ناشئاً من التفريط بالشريعة أو استدبار الكتاب والسنة، وإنما من الاستمساك بها على وجه لا يرضاه الله ولا رسوله.

وقد أطلق الشيخ رسالته من ضرورة الاجتهاد وأهميته ونبذ الجمود والتقليد لتحقيق مقاصد الشريعة وأهدافها، والانتقال من الجمود إلى روح الشريعة ومحورية العقل في فهم الأحكام والتعامل مع النصوص.

ووقف الإمام بشدة في وجه الدعوات المطالبة بالتقليد والجمود، وهي الدعوات التي كان يتبناها الخطاب التقليدي، إذا أردنا التقدم إلى الأمام فإن علينا أن نعود إلى الخلف، وهو ما طبع الخطاب الديني في تلك المرحلة:

فكلُّ خير في اتباع من سلف وكلُّ شرٍّ في ابتداع من خلف

وقف على ما وقف عليه الأولون فإنهم عن علم وقفوا، ولو كان خيراً ما سبقونا إليه، وما سمعنا بهذا في الملة الآخرة إن هذا إلا اختلاق، وإنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون.

وكان ما قام به الإمام بالفعل أنه أعاد وضع الحصان قبل العربة، إذ جعل من تياره الفكري الإسلامي في مقدمة المجتمع ودفع باتجاه التطور والتقدم والتجديد.

وعلى صعيد الفكر الإسلامي، رفع الإمام مطالب المرأة بالتحرر ودافع عن حقوقها، كما تحدث بوضوح شديد عن مدنية السلطة السياسية في الإسلام مع الحفاظ على

وظائفها الدينية وقد وصف السلطة الإسلامية وصفا دقيقا يقوله "إنّ السلطة الإسلامية هي سلطة مدنية بوظائف دينية.

يمكن تلخيص رسالته التجديدية في إصلاحات ثلاثة:

الأولى: دعوته إلى تحرير المرأة من غياهب الحريم ومنحها موقعاً مكافئاً في الحياة الاجتماعية يتناسب مع حقوقها الإنسانية وقدراتها في بناء الحياة، وهو ما حرره بإسهاب تلميذه قاسم أمين رائد تحرر المرأة في مصر والبلاد العربية.

الثاني: الدعوة إلى الإخاء الديني من خلال إحياء المشترك بين رسالات الأنبياء، والدعوة إلى التقريب بين الأديان والبحث في مقاصدها وإطلاق المشاريع المشتركة للتعاون الديني في سبيل إنهاء الحرب وإطلاق رسالة السلام في الأرض

الثالثة: الدعوة إلى الاجتهاد، فالنص يتناهى والحوادث لا تتناهى، وما لا يتناهى لا يضبطه ما يتناهى، وللشريعة عشرة مصادر ينبغي إحياؤها جميعاً، منها الكتاب والسنة والإجماع والقياس والاستحسان والمصالح المرسلة والعرف وسد الذرائع وشرع من قبلنا ومذهب الصحابي.

ولا شك أن دعوته إلى الاجتهاد لم تكن تتحرك في فضاء سهل بل كانت تواجه المسألة من الجذور، حيث تقف مباشرة أمام السؤال الكبير أين هو أفق الاجتهاد المأذون به وأين هي فضاءاته، وهل يقتصر على إعادة إنتاج تراث القدماء وطباعة الكتب الصفراء على أوراق بيضاء.

لقد مضى إلى الحفر في بنية الاجتهاد وإشكالية العلاقة بين البرهان والإيمان وفق رؤية عبد الرزاق عيد: الحفر من أجل فك الارتباط بين الميثوث واللوغوس، بين الديني والدنيوي، بوصفهما نسقين متغايرين على اعتبار أن أدوات الأول **الإيمان**، والثاني **البرهان**؛ أيْ: الأول الديني **القيم** الذي لا يقبل **لماذا**، **وكيف** حسب تعبير

أبي حيان التوحيدي المعتزلي، والثاني الدنيوي **الوجود** الذي أداته البرهان لارتباطه بعالم الحس والتجربة والنسبية والصيرورة.

وفي الواقع فإن فكر الإمام محمد عبده برز من خلال رجال ثلاثة:

الأول: قاسم أمين الذي قدم طرحه الجريء لقضايا المرأة وأطلق حملة تحرر المرأة وهي الحملة التي ما تزال إلى اليوم تلهم تيار تحرر المرأة وتقود كفاحهن ولكن علينا القول إن محاولات الإمام محمد عبده لتنوير العقل الإسلامي بعث أسباب انطلاقته ونكوصه.

الثاني: الشيخ علي عبد الرازق الشيخ الانتحاري الذي قال بكلمات مختصرة ما كتب من أجله الأقدمون المجلدات الطوال، واختصر ما تريده حركة التنوير في العمل السياسي بكلمة واحدة إنها الديمقراطية بلا أسرار، وقدم عشرات الأدلة على أن الإدارة النبوية للدولة لم تكن لتتجاوز ذلك.

الثالث: رشيد رضا الذي استأنف نشاطه الاجتهادي وحرَّر عنه المنار، ولكنه مضى فيما بعد إلى خيار النص، في معالجة سلفية لشروط النهضة نعتقد اليوم أنها كانت أدنى بكثير من طموحات محمد عبده، ويمكن قراءة ذلك في تفسير المنار الذي حرره الشيخ محمد رشيد رضا رواية عن الإمام فعلى الرغم مما فيه من خيارات مضيئة فإنه مضى إلى التزام منهج سلفي متشدد في المسائل النصية ولم يبلغ حتى خيارات ابن حزم في حرية الاجتهاد في فضاء ما سكت عنه النص.

ولكن بعد مئة عام هل تمكنت المؤسسة الدينية اليوم من الوعي بإصلاحاته وإنجازاته، وهل تتلقى إصلاحاته بالروح التي كان يتوق إليها؟

إننا بكل أمانة نتحرج اليوم ليس من التفكير على منطق محمد عبده بل من مجرد الإشارة إلى آرائه التقدمية، ومع أن قدراً غير قليل من منابر الثقافة في العالم الإسلامي

تأثر بفكر الرجل، وخصصت أقسام خاصة في الجامعات العربية لدراسة فكره وتجديده، واسمه اليوم في الأزهر على أهم قاعات التعليم فإنه ما زالت المؤسسات التي تتخصص في التعليم الشرعي إلى اليوم تنظر بركام من الريب إلى فكر محمد عبده على سبيل المثال فإن الرجل الذي كان مفتياً في أكبر بلد عربي إسلامي قبل مئة عام يدرس اليوم في بعض الكليات بجامعة دمشق على أنه هرطوقيّ! ويتولى عدد غير قليل من رجال الدين المعاصرين تكريس سلسلة دراسات تهدف إلى وصم قادة التجديد الإسلامي بالماسونية، وأنه مفتون بالغرب وأنه عميل إنكليزي إلى آخر قائمة الاتهامات؛ إذ أدرجت أسماء بالجملة: جمال الدين الأفغاني، ومحمد عبده، ورشيد رضا، ورفاعة الطهطاوي، وقاسم أمين، وأحمد لطفي السيد، وطه حسين، ومحمد فريد وجدي، ومصطفى المراغي، ومنصور فهمي، وعلي عبد الرازق، و عبد الرحمن الرافعي، وأحمد شوقي، وحافظ إبرهيم، ومحمد شفيق غربال، في إرادة واضحة لتلطيخ رموز النهضة حتى لا يفكر أحد بعد ذلك بالنهضة من جديد.

إن الرجل الذي تخرج من الأزهر وعاش حضارة الغرب في عواصمها كان من وجهة نظري عصياً على الاستهلاك، وظلت رسالته المكورة في عمامته ترسم ملامح نهضة شرقية إسلامية، ولم يكن أبداً يخفي حزنه لإخفاق المؤسسة الدينية في التجاوب مع إصلاحاته، وقد سجل ذلك في قوله:

ولســـــت أبالي أن يقـال محمـد أبـل أم اكتظـت عليـه المـآتم

ولكن دينا قد أردت صـــلاحَه أحاذر أن تقضـــي عليه العمائم

إننا نشعر اليوم بأن الرجل الذي قاد كفاح الأمة التحرري للنهوض برسالة العقل يواجه اليوم بركام من الريب، ويتم التعرض له التيار السلفي غمزاً وهمزاً تحت اسم اتجاه العصرنة والفرنجة، وتتم الإشارة إلى خياراته في الفقه الإسلامي على أنها مواقف معتزلية شاذة لا يرضاها جمهور الأمة ولا علماؤها.

اليوم يواجه الشيخ محمد عبده بالاتهامات المختلفة على أساس أنه كان يغرد خارج السرب، ومن أجل مواجهة خطابه الإصلاحي فإن الاتهامات جاهزة تارة بوصمه بالعقلانية! وكأن استعمال العقل أو الاحتكام إليه سبة يجب تنكبها، وتارة بحجة العلاقة مع الإنكليز مع أنه عاش ستة أعوام بين سجونهم ومنافيهم!

إن سائر رموز التجديد في البلاد العربية والإسلامية يبدؤون عادة تاريخهم عن التجديد بذكر الشيخ محمد عبده، وفي إشارة لا فتة فإن مفتي الديار المصرية أطلق اليوم برنامجاً طموحاً لجمع فتاوى محمد عبده، وهي خطوة ذات دلالة ومغزى، وإنني أرجو أن تنطلق هذه المبادرة إلى سوريا ويتبوأ الإمام منزلة مناسبة في برنامج طلبة العلم الشرعي.

واشتهر الشيخ بالتوسع في قبول مدارس الإيمان، ومن كلامه: وإذا صدر قول من قائل يحتمل الكفر من مئة وجه، ويحتمل الإيمان من وجه واحد، وجب حمله على الإيمان، ولا يجوز حمله على الكفر.

موقف الشيخ محمد عبده من مسألة إخاء الأديان:

غابت فكرة إخاء الأديان في أعقاب الحروب الصليبية المستعرة التي ظلت تلقي بظلالها وتداعياتها على العالم الإسلامي لأكثر من قرنين من الزمن، ثم تواصلت كذلك في الحروب العثمانية في أوروبا، ثم الاستعمار الأوربي، وبذلك فقدت الفكرة

تأثيرها وحضورها الذي ظهر بشكل واضح أيام الفتح الإسلام للشام والعراق ومصر، وسادت أجواء القطيعة والكراهية بين أتباع الأديان.

ويمكن رصد عودة الفكرة من جديد على يد عدد من أئمة الإصلاح أبرزهم جمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده؛ إذ شكل الشيخ محمد عبده ظاهرة صحوة إسلامية متميزة، وأسهم بشكل رئيسي في حركة النهضة الإسلامية مطلع القرن العشرين.

وفي موقفه من حوار الأديان قدم الشيخ محمد عبده رؤية متقدمة، تقوم على التصديق بما بين أيدينا من التوراة والإنجيل، وفق ما أخبر به القرآن في أربعة عشر موضعاً، بعبارة: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [البقرة: ٩٧]

وقد ركز الشيخ محمد عبده على هذا المعنى، وطالب بوعي جديد فيما يتصل بالأديان الأخرى، والتركيز على المشترك بين الإسلام والمسيحية، وقد ظهر وعيه بهذه المسالة بخاصَّة خلال نفيه إلى بيروت 1883م حيث أدرك التنوع الديني القائم في لبنان، وحتمية إطلاق برامج للمحبة والإخاء بين أتباع الديانتين، وبالفعل أسس بالتعاون مع القس الإنجليزي إسحق تيلور أول هيئة للتقريب بين الأديان، وقد نصت الجمعية على أول هدف من أهدافها كالتالي:

1. التقريب بين الأديان السماوية وإزالة الشقاق بين أهلها.

وفي رسالته للقس تيلر المنشورة في الأعمال الكاملة للشيخ محمد عبده، أطلق الشيخ محمد عبده وعياً متقدماً وجريئاً، وقال فيه: وإنا نرى التوراة والإنجيل والقرآن ستصبح كتباً متوافقة، وصحفاً متصادقة، يدرسها أبناء الملتين، ويوقّرها أرباب الدينين،[46] ويمكن اعتماد ما أورده رشيد رضا في تفسير المنار موقفاً مباشراً للشيخ محمد عبده،

[46] الأعمال الكاملة للشيخ محمد عبده ج 2 ص 356

حيث نص رشيد رضا أن هذا التفسير هو محاضرات الإمام في تفسير القرآن وأنه راجعها بنفسه، وفي هذا السياق قال في تفسيره للآية القرآنية ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ نَقِيرٗا ١٢٤﴾ [النساء: ١٢٤]

في كتابه ((المنار)): "هذه الآية تعني أن كل من يعمل ما يستطيع عمله من الصالحات، وهو متلبس بالإيمان مطمئن به، فأولئك العاملون المؤمنون بالله واليوم الآخر يدخلون الجنة بزكاء أنفسهم وطهارة أرواحهم".

ويضيف هنا من كلام الإمام: "هَذَا وَإِنَّ فِي هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ مِنَ الْعِبْرَةِ وَالْمَوْعِظَةِ مَا يَدُكُّ صُرُوحَ الْأَمَانِيِّ وَمَعَاقِلَ الْغُرُورِ الَّتِي يَأْوِي إِلَيْهَا وَيَتَحَصَّنُ فِيهَا الْكُسَالَى وَالْجُهَّالُ وَالْفُسَّاقُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ جَعَلُوا الدِّينَ كَالْجِنْسِيَّةِ السِّيَاسِيَّةِ، وَظَنُّوا أَنَّ اللهَ الْعَزِيزَ الْحَكِيمَ يُحَابِي مَنْ يُسَمِّي نَفْسَهُ مُسْلِمًا، وَيُفَضِّلُهُ عَلَى مَنْ يُسَمِّيهَا يَهُودِيًّا أَوْ نَصْرَانِيًّا بِمُجَرَّدِ اللَّقَبِ، وَأَنَّ الْعِبْرَةَ بِالْأَسْمَاءِ وَالْأَلْقَابِ لَا بِالْعِلْمِ وَالْعَمَلِ، وَمَتَى يَرْجِعُ هَؤُلَاءِ إِلَى هَدْيِ كِتَابِهِمُ الَّذِي يَفْخَرُونَ بِهِ، وَيَبْنُونَ قُصُورَ أَمَانِيِّهِمْ عَلَى دَعْوَى اتِّبَاعِهِ؟ وَقَدْ نَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ، وَحَرَّمُوا الِاهْتِدَاءَ بِهِ عَلَى أَنْفُسِهِمْ".[47]

وفي تفسيره للآية القرآنية التي تقول﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٦٩﴾ [المائدة: ٦٩] يقول ما نصه: "فَالْآيَةُ بَيَانٌ لِسُنَّةِ اللهِ – تَعَالَى – فِي مُعَامَلَةِ الْأُمَمِ، تَقَدَّمَتْ أَوْ تَأَخَّرَتْ، فَهُوَ عَلَى حَدِّ قَوْلِهِ – تَعَالَى –: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا وَمَنْ

[47] محمد رشيد رضا، تفسير المنار، ج5 ص 3357

يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ [النساء: 133 – 124] فَظَهَرَ بِذَلِكَ أَنَّهُ لَا إِشْكَالَ فِي حَمْلِ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ. . . إِلَخْ عَلَى قَوْلِهِ: (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا) . . . إِلَخْ، وَلَا إِشْكَالَ فِي عَدَمِ اشْتِرَاطِ الْإِيمَانِ بِالنَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لِأَنَّ الْكَلَامَ فِي مُعَامَلَةِ اللهِ – تَعَالَى – لِكُلِّ الْفِرَقِ أَوِ الْأُمَمِ الْمُؤْمِنَةِ بِنَبِيٍّ وَوَحْيٍ بِخُصُوصِهَا؛ الظَّانَّةِ أَنَّ فَوْزَهَا فِي الْآخِرَةِ كَائِنٌ لَا مَحَالَةَ؛ لِأَنَّهَا مُسْلِمَةٌ أَوْ يَهُودِيَّةٌ أَوْ نَصْرَانِيَّةٌ أَوْ صَابِئَةٌ مَثَلًا، فَاللهُ يَقُولُ: إِنَّ الْفَوْزَ لَا يَكُونُ بِالْجِنْسِيَّاتِ الدِّينِيَّةِ، وَإِنَّمَا يَكُونُ بِإِيمَانٍ صَحِيحٍ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى النَّفْسِ، وَعَمَلٌ يَصْلُحُ بِهِ حَالُ النَّاسِ؛ وَلِذَلِكَ نَفَى كَوْنَ الْأَمْرِ عِنْدَ اللهِ بِحَسْبِ أَمَانِيِّ الْمُسْلِمِينَ أَوْ أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ، وَأَثْبَتَ كَوْنَهُ بِالْعَمَلِ الصَّالِحِ مَعَ الْإِيمَانِ الصَّحِيحِ. أَخْرَجَ ابْنُ جَرِيرٍ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنِ السُّدِّيِّ قَالَ: الْتَقَى نَاسٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَالْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، فَقَالَ الْيَهُودُ لِلْمُسْلِمِينَ: نَحْنُ خَيْرٌ مِنْكُمْ، دِينُنَا قَبْلَ دِينِكُمْ، وَكِتَابُنَا قَبْلَ كِتَابِكُمْ، وَنَبِيُّنَا قَبْلَ نَبِيِّكُمْ، وَنَحْنُ عَلَى دِينِ إِبْرَاهِيمَ، وَلَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا، وَقَالَتِ النَّصَارَى مِثْلَ ذَلِكَ، فَقَالَ الْمُسْلِمُونَ: كِتَابُنَا بَعْدُ كِتَابِكُمْ، وَنَبِيُّنَا – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – بَعْدُ نَبِيِّكُمْ، وَدِينُنَا بَعْدُ دِينِكُمْ، وَقَدْ أُمِرْتُمْ أَنْ تَتْبَعُونَا وَتَتْرُكُوا أَمْرَكُمْ، فَنَحْنُ خَيْرٌ مِنْكُمْ، نَحْنُ عَلَى دِينِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ، وَلَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ عَلَى دِينِنَا، فَأَنْزَلَ اللهُ – تَعَالَى –: (لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ) [النساء: 124] الْآيَةِ. وَرُوِيَ نَحْوَهُ عَنْ مَسْرُوقٍ وَقَتَادَةَ. وَأَخْرَجَ الْبُخَارِيُّ فِي التَّارِيخِ مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ مَرْفُوعًا ((لَيْسَ الْإِيمَانُ بِالتَّمَنِّي، وَلَكِنْ مَا وَقَرَ فِي الْقَلْبِ وَصَدَّقَهُ الْعَمَلُ. إِنَّ قَوْمًا أَلْهَتْهُمْ أَمَانِيُّ الْمَغْفِرَةِ حَتَّى خَرَجُوا مِنَ الدُّنْيَا وَلَا حَسَنَةَ لَهُمْ، وَقَالُوا: نَحْنُ نُحْسِنُ الظَّنَّ بِاللهِ – تَعَالَى – وَكَذَبُوا، لَوْ أَحْسَنُوا الظَّنَّ لَأَحْسَنُوا الْعَمَلَ"[48]

[48] محمد رشيد رضا، تفسير المنار، ج1 ص 279

وفي الواقع فإن الطرح المتقدم الذي أعلنه الشيخ محمد عبده وهو مفتي الديار المصرية قد أسهم في إنقاذ مصر من موجات الكراهية، وأسس للقاءات على أعلى مستوى تتم بين القيادات الدينية في مصر لمواجهة رياح التطرف التي تظهر بين الحين والآخر وتهدد وحدة البلاد وأمن العباد.

وعلى الرغم من أهمية الجانب البروتوكولي في هذه اللقاءات فإن الشيخ محمد عبده يكشف عن وعي عميق بإخاء الأديان ويؤسس لرغبة صادقة لاحترام متبادل للكتب السماوية، ويرهص بالفكرة التي تطالب بها اليوم هيئات تعليمية واجتماعية كثيرة بتوحيد مادة التربية الدينية لتشمل التعريف بالإسلام والمسيحية في مصر، بحيث يتلقى المسلم والمسيحي معرفة كافية بالدينين من المؤسسة التعليمية الوطنية بعيداً عن الإقصاء والتعصب.

كما أنه يؤسس للجهود العلمية التي تهدف إلى الجمع بين فرائد الحكمة في الكتب المقدسة واختيار تأويل مبني على احترامها جميعاً، كما يؤسس لاعتراف متبادل بين الإسلام والديانات الأخرى، وإنهاء فكرة إبطال الأديان وإلغائها، وبناء بيئة تتشارك فيها الأديان على أساس الاحترام والمساواة.

محمد إقبال

الاسم الكامل	محمد إقبال بن الشيخ نور محمد تنهو السيالكوتي
ألقاب مشهورة	فيلسوف الإسلام، شاعر الإسلام، مؤسس باكستان
التاريخ	1291-1357هـ/1877-1938م
الولادة والارتحال والوفاة	ولد في سيالكوت وهي اليوم ضمن باكستان طاف الهند وأوربا وافغانستان وعاد وتوفي في البنجاب بباكستان
أهم الكتب التي ألفها	
أهم ما ألف عنه	
أهم من تأثر فيهم	الفاروقي السرهندي ابن رشد فريدريك نيتشة هواتهد
أهم من تأثروا به	الشعب الباكستاني كله ومسلمو القارة الهندية والعرب، والمودودي والندوي ومن الشعراء الذين نهجوا نهجه: مصطفى المنفلوطي، أحمد أمين، مصطفى صادق الرافعي، عمر بهاء الدين الأميري
أهم ثلاث قضايا نادى بها	-قيام العالم الإسلامي -الحرية وكرامة الإنسان -الثورة على الكهنوت الخانع
مساجد بنيت باسمه	جامعات ومدارس ومراكز بحث وقاعات فن في الهند والعالم العربي وأفغانستان وإيران
أفلام عنه	غنت كلماته أم كلثوم، وصدر فيلم إيراني بعنوان إقبال اللاهوري، وتم إعداد عشرات الأفلام الوثائقية عن حياته وعلمه وشعره
الضريح	في ديوان إقبال في لاهور

يعدُّ محمد إقبال 1877-1938م أبرز صوت استنهض الحضارة الإسلامية في القرن العشرين، وقد سخر موهبته الشعرية الفريدة لبعث إرادة التنوير، وأحيا ثقافة الوعي بالأديان بوصفها سبلاً تدل على الله، وأكد أن الصراع بين الأديان محض وهم لا ينفع في شيء إلا في تحطيم عزائم المؤمنين من كل الأديان، وتراجع الروح لصالح المادة.

ومع أننا لن نعثر على مصطلح إخاء الأديان في أدبيات إقبال، ولكن يمكنك قراءته في منهج إقبال الذي طرحه مرّات كثيرة، وربّما كان أوضح صورة لمنطق إقبال في إخاء الأديان هو ما قدمه في ديوانه الكبير ((رسالة الخلود))، أو كما سمّاه بالفارسية ((جاويد نامه))[49].

ففي ديوانه هذا يدوّن إقبال فكره وفلسفته في رحلة روحانية غنية يطوف فيها بين الأفلاك التسعة، ويتحدث في كل سماء إلى حكيم، ومن المدهش أن حكماء إقبال وفلاسفته لا يعكسون نمطاً متطابقاً، كأنبياء المعراج مثلاً بل إنها كانت جولة عجيبة التقى فيها إقبال بالأديان كلها، مؤمنين ووثنيين وملاحدة، وأنبياء وطواغيت، وقديسين وأبالسة، ومتقين ومستكبرين، ولكنه تمكّن من حشد الحكمة على أفواههم جميعاً في منصّات السماء التي كانت تفرد لكلٍّ منهم منصّةً ومنبراً.

يبدأ إقبال بمناجاة عميقة، لحائر يبحث عن نور الحق، وفي غمار مناجاته الصادقة يظهر لها فيها جلال الدين الرومي، الذي سيكون مرشد الشاعر ورفيقه في معراجه الفريد، وينطلق المشوار إلى السموات في رحلة العرفان واليقين.

---

[49] يؤسفني أن أقول إن هذا الديوان الرائع بفكرته الفريدة وموضوعه الإنساني الجامع لم يحظَ بالاهتمام الذي يليق به، والنظم الذي قدمه حسين مجيب المصري ضعيف جداً، ولا يشبه في شيء الشعر الجزل الذي قدمه الصاوي شعلان وزهير ظاظا، وأنا أدعو الأخ زهير لإعادة نشر هذا الديوان بلغته الشعرية الجزلة وإحياء المعاني الفريدة التي يحملها الديوان في إخاء الأديان وكرامة الإنسان.

ويعكس جلال الدين الرومي، في معراج إقبال، دور جبريل في معراج محمد؛ فهو المرشد والدليل، وفي بريق عينيه سيتمكن إقبال من قراءة التفسير الصحيح لرسالة الحكماء والفلاسفة والأنبياء، الذين سيقابلهم إقبال في معراجه السماوي العجيب.

في القسم الأوّل يزور إقبال القمر، وهناك يجد الحكيم الهندي جهان دوست (Jahan Dust) يمارس اليوغا الهندية، ويحدّث إقبال عن السلامة الحقيقية في هذا العالم، التي تكون باتحاد العقل والقلب والمادة والروح.

ويعرف الهنود الحكيم جهان دوست باسم صديق العالمين، ولا شك في أنّ هذا الاستهلال يكشف مراد إقبال في معراجه الروحي، الذي استطاع من خلاله أن يؤسس صداقة ومحبة مع كلّ الحكماء والشعراء والفلاسفة في الأرض.

ومع أن إقبال كان يعيش صخب الغضب الهندوسي وطيشه، وما أفرزه من نزعة انفصالية عن القارة الهندية بعد سلسلة من المواجهات الدموية بين المسلمين والهندوس، ولكنّ إقبال نجح في تحييد الحكمة عن السياسة والفلسفة عن المصالح، وحاول الدخول إلى عمق الحكمة الهندوسية، وروعة ما تقدّمه تلك الحكمة العتيقة من صورة النيرفانا الأخيرة التي يحاول الناسكون أن ينجزوها على الأرض بالمكابدة والمجاهدة وتزكية النفس.

ثم يذهب إقبال ورومي إلى وادي جرغميد، وهناك يلخّص إقبال لقاءه بالأنبياء الأربعة بوذا وزرادشت والمسيح ومحمّد، ويقدّم مجموعة رائعة من إلهاماتهم العظيمة التي يتبعها الملايين في الأرض، ومع أنه لا يلتقي بهم، لكنه ينقل عن كتبهم، ويضيف أفقاً فريداً في نقل معارفهم ونبوءاتهم، فينقل حكمة بوذا على لسان فتاة راقصة، فيما ينقل حكمة زرادشت على لسان أهرمن، والعجيب أن أهرمن هو الإله السلبي في العقيدة الزرداشتية، وهو نقيض أهورا مزدا الذي يحمل الخير للناس،

وينقل عن المسيح على لسان تولستوي؛ أمّا التعرف على النبي محمّد، فينقله على لسان أبي جهل!

ومن العسير أن تستنبط تعليلاً منسجماً لموقف هؤلاء الأربعة المتناقضين للتعبير عن ذوات متشابهة، فما الذي يجمع فتاة راقصة بأهرمن وتولستوي وأبي جهل، فيما نريد التعرّف على أربعة من الحكماء التاريخيين الهائلين بوذا وزرداشت والمسيح ومحمّد؛ إنه في الواقع سيناريو غير عادي لتفسير التاريخ، يشبه الاختيارات الهوليودية الصاخبة لتفسير الواقع.

ومن المؤكّد أن إقبال قصد إظهار أجود ما في هذه الرسالات، واختار طرقاً غير متشابهة للتعبير عنها، ولعلّ القارئ الكريم يستغرب أن يكون أبو جهل هو من يشرح طبيعة الرسالة المحمدية، وفي الواقع، إن إقبال أراد أن يسمع الناس سبب اعتراض قريش على الرسالة ومعانيها الإنسانية في المساواة والحرية والإخاء، وهي المعاني الإنسانية النبيلة التي كان ينكرها الناس آنذاك، بوصفها طيشاً صبيانياً، لكنّها باتت اليوم على رأس حقوق الإنسان في العالم كلّه.

وفي وعيه بإخاء الأديان ينطلق إقبال من قوله تعالى:﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١١٥] وقد بنى إقبال على هذه الحقائق القرآنية موقفاً في غاية الشجاعة والتسامح، وقال بوضوح:

إن الصلاة بوصفها سلوكاً بشرياً ومنزعاً إنسانياً ظهرت في صور كثيرة: ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ﴾ [الحج: ٦٧]

إن أشكال العبادة لا ينبغي أن تكون محلّ نزاع، فالقرآن الكريم أخبر أن الله يتسع لكل السالكين إليه، ولله المشرق والمغرب فأينما تولّوا فثمّ وجه الله.[50]

[50] محمد إقبال، تجديد التفكير الديني في الإسلام، ص 106.

وهذا الفهم الذي حمله إقبال يعكس الروح الإنسانية التي تحلّى بها، وهو ما أكّده القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [البقرة: ٦٢]

أمّا القبلة التي نتوجّه إليها في الحرم الشريف، فهي ذات بعد اجتماعي يحقّق التواصل والمساواة، ولا يمكنني أن أفهم أن الله أقرب إلى مكّة من أيّ مكان آخر، وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله، ونحن أقرب إليه من حبل الوريد.

ويتحدث إقبال عن إيمان الأمم، فلا ينازع فيه. لقد نصّ القرآن بوضوح: ولكلّ جعلنا منسكاً هم ناسكوه، لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً؛ إنّها إذاً نوافذ ترى فيها مقلة العابد وجه الله. وفي قراءته العابرة للثقافات كان يؤكّد حقيقة وحدة الشهود التي اقتفى فيها أثر معلميه الكبار[51].

وفي إشارة جدّ واضحة لمعنى المساواة الذي يقدمه الإسلام، يشير إقبال إلى عمق المساواة في الإسلام، وهو فهم يتعذّر على إدراكه بعد أن حسم أمره في تصنيف الناس، وأخرج المنبوذين من دائرة الإنسان؛ إنها ثورة روحية هائلة أن يقبل البرهمي الارستقراطي الوقوف الى جانب المنبوذين في صلاة واحدة[52].

وتطوف تأمّلاته بين الشرق والغرب، ويجتهد أن يقرأ لوحة الإيمان على كلّ الشواطئ؛ إنها الفطرة والعقل؛ إنها شيء لا يعتنقه الناس بسبب مضاء سيوف الفاتحين ولاحتى قوة براهينهم؛ إنه شيء يتدفّق من داخل الإنسان بوصفه مشروع الله وبرنامجه في الأرض؛ إنه شيء يرتبط بالعجينة الأولى التي فطرها الله بيديه، ونفخ فيها من روحه، ونشرها على قدمين وقال لها: ألست بربّكم؟

---

[51] محمد إقبال، تجديد التفكير الديني في الإسلام، ص 108.
[52] محمد إقبال، تجديد التفكير الديني في الإسلام، ص 111.

وإقبال يتفهّم الحيرة التي تلازم الباحث عن الحقيقة؛ فالحقيقة ليست حسماً صارماً يمنح اليقين ويلقي بالآخر في دائرة الوهم، واللحظة التي يكتشف فيها المرء الحقيقة لا تطول؛ إنها سرعان ما تتحول؛ إنها تقرّ لحظات ريثما تنضج الأسئلة الجديدة وتبدأ زلزلة العقل من جديد.

إنه يتوقف عند وايتهد في عبارة ذات دلالة عميقة: الكون ليس حقيقة قارّة... إنّه جدل متلاطم، ثمّ يعيد اكتشاف هذه الحقيقة عند برغسون الذي بنى فلسفته على مبدأ أن الحقيقة هي حيوية حرّة خالقة لا يمكن التنبّؤ بها.

وهذه الحقيقة التي رسمها إقبال بريشة بارعة هي التي جعلته يطوف حول المدارس والمعابد، على رغم ما فيها من تناقضات، يبحث فيها عن الحقيقة الواحدة، فاليقين ليس صورة الحياة الخلّاقة؛ بل الشكّ والاضطراب والتلاطم، ومهما علا صياح الواعظين، واشتدّ غضبهم من المخالفين، فإن الحقيقة مستقرة هنا وهناك، وليست السماء وحدها من تنبت الزرع؛ إنه التراب أيضاً وزند الفلاح وجودة البذار، ولن تخرج إلى العالم سنبلة جديدة إلا باقتفائها من موارد متناقضة متباعدة.

إنه، إذاً، صدى نداء يهتفه الإنسان في كلّ أرض، ويراقص خيال الباحثين عن المثل الأعلى في كلّ أمّة وكلّ دين، وحين نقرأ عن مجتمع بلا تأمل، ولا إيمان، فنحن نقرأ عن المقابر فحسب؛ فالإنسان حيوان عابد، ولن يكون غير ذلك، وقبلته السماء وميتافيزيقها، وسيظلّ عبداً للغيب ولو كان أسير عالم الشهادة.

مـــرتجـــى داود في مـــزمـــوره ... أمـــل عـــاش عـلـيـــه الحـنـفـــاء
وبـــه موســـــى دعـــا في طوره ... ربّ فـاجعـل كـلّ شـــعبي أنبياء
خلع الهندي شوقـــــــــاً ثوبه ... ثم ألقى الرحـــل في نهر بنـــارس

دلّــه رحمــاك وارحم شـــوقــه فلقد أضـــناه تنقيب المدارس[53]

ثم يذهب بالأشواق والأحداق إلى سلوك الأمم في ابتغائها وصال السماء، وتحرّرها من إسار الأرض، فيرى أنها تسير السيمرغ ذاته، وتكابد الطريق للوصول إلى الحقيقة ذاتها؛ حيث تتساقط الأوهام كلها في الوادي، ولا يبقى على سبيل اليقين إلا السيمرغ الوحيد يصل بجناحيه إلى سدرتك، ويبسطهما في رحاب حضرتك.

أنت وحدك من تملك أن ترشدهم إليك أو تصدّهم عنك، ولكنني، أيّها السيّد الجليل، أدركت بيقين أنهم يرفعون زفراتهم إليك مهما كان منبر التوق الذي يرتقون، ومهما كانت صيغة المناجاة التي يرددون، فالمقصود أنت أيّها الظاهر الباطن الأوّل الآخر، يا من لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير.

ولقد تسمع آهات المجوس تصطلي عمداً على نيرانها
ترتجي من كفّك العظمى يداً تسكب الترياق في أجفانها
هل سوى الشوق إلى وجه أمل فيه النصارى يخلصون
أترى مدمعهم حول الصـــليب هل لغير الحبّ قاموا يركعون[54]

وتتفق هذه النظرة مع سياق الإمام الكبير الذي اتخذه إقبال معلماً خالداً وهو جلال الدين الرومي، الذي كان أبرز من كرّس إخاء الأديان وكرامة الإنسان، وعدّ السلوك إلى الله موقفاً عابراً للأديان والمذاهب والطوائف.

وفي قصيدة فريدة ترجمها ونظمها عبد الوهاب عزام، وهي تبدو دون قصائد إقبال صورةً وشاعريةً، ولكنها تتصل مباشرة بالمقصود، وقد آثرنا تركها كما هي، وقد سمّاها: «العالم معبد الله»، يقول إقبال:

---

[53] الأبيات وما بعدها من نظم محمد حبش، وهي في سياق ما دوّنه إقبال في معراجه في أرمغان حجاز. انظر: ديوان إقبال باعتناء الغوري، ج 2، ص 412.

[54] المصدر نفسه.

إنّما العالم طرّاً معبد ... كلّ من أحسن فيه يعبد
كلّ من أدلى بقول طيب ... ينبت الخير كغيث صيب
كلّ من أحسن يوماً عملاً ... كل من أحيا مواتاً هملاً
كلّ من في أرضه قد زرعا ... ليقيت الناس والعجم معاً
كلّ من يغرس مخضر الشجر ... فيه للإنسان ظلّ وثمر
كلّ من يحفر بئراً في السبيل ... تنفع الظمآن من حرّ الغليل
كلّ من يبني بناء حسنا ... كلّ من في صنعه قد أتقنا
كلّ من أحدث علماً للبشر ... ينفع الناس ولم يقصد لشر
كلّ من في دهره قد أجملا ... فكرة أو قولة أو عملاً
كلّهم لله نعم العابد ... كلّهم للخير نعم القاصد[55]

العالم كلّه معبد الله، والخلق عياله، وكل خير تبذله في الأرض هو صلاة، والعالم بستان الله، والناس في حال صلاة طالما كانوا يخدمون الآخرين ويبذلون المعروف.

[55] عزام، عبد الوهاب، نظم ديوان إقبال بيام مشرق، وهي في ديوان إقبال للغوري، ج 1، ص 362.

مالك بن نبي

الاسم الكامل	مالك بن نبي
ألقاب مشهورة	رئيس جامعة قسنطينة، فيلسوف النهضة
التاريخ	1323-1393 هـ/1905-1973م
الولادة والارتحال والوفاة	ولد في قسنطينة بالجزائر ورحل إلى فرنسا وإلى مصر والشام وتوفي في الجزائر
أهم الكتب التي ألفها	صدر له نحو ثلاثين كتاباً بالفرنسية، وترجمت إلى العربية، هذه أهمها:
أهم ما ألف عنه	صدر عنه عشرات الكتب وهذه أهمها:
أهم من تأثر فيهم	فلاسفة الإسلام
أهم من تأثروا به	التيار العقلاني في الإسلام ومن تلامذيه عمر مسقاوي وجودت سعيد وخالص جلبي
أهم ثلاث قضايا نادى بها	-شروط النهضة -القابلية للاستعمار -الحنيفية كمنصة للأديان
مساجد بنيت باسمه	جامعات ومدارس ومؤتمرات ودراسات كثيرة
أفلام عنه	أنجزت معظم القنوات العربية أفلاماً وثائقية عن مالك بن نبي
الضريح	في قسنطينة الجزائر

يعدُّ مالك بن نبي 1905-1973م أشهر المفكرين الإسلاميين في القرن العشرين، وقد استطاعت دراساته الاستشرافية للواقع الحضاري للمسلمين أن تقدم رؤية محكمة سرعان ما صارت الصورة المفضلة لجيل الصحوة الإسلامية الذين راوا في هذا المفكر رؤية شديدة البصيرة وواضحة الغايات.

وفي الواقع فإن مالك بن نبي طرح الحوار باستمرارا على أساس أنه حوار الحضارات، أكثر مما هو حوار الأديان، فلم يكن يعنيه الجدل في اللاهوت ولكنه كان يقدم قراءته للحضارة الإسلامية بوصفها حصيلة تفاعل هائل بين عدد كبير من رموز النهضة والفكر والوعي، وكان يجتهد في أن يقابل ما أنجزته الحضارة الإسلامية بما تنجزه الحضارات القائمة، ويركز على نقاط اللقاء والفراق بين الحضارة الإسلامية والحضارات الحديثة.

ومع ذلك فإن بإمكاننا أن نرصد كثيراً مما قدمه مالك بن نبي لفكرة الحوار بين الأديان، وبشكل خاص للتركيز على المشترك بين الأديان السماوية بوجه خاص، وقد صرح مالك بن نبي بوضوح "إنَّ القرآن يصرّح بقوّة بأنه ينتسب إلى الخط التوراتي، وهو يُطالب دوماً بمكانته في السياق التوحيديّ، وتبعاً لذلك فهو يؤكد بصراحة إمكانية وجود مطابقة بينه وبين أجزاء التوراة الخمسة الأولى، وبينه وبين الإنجيل، وهو يصرّح، وبصفة قاطعة، بأنه ينتسب إلى تلك السلالة من الكتب السماوية، وهي الحقيقة التي يُذكِّرُ بها الرسول صَّلى الله عليه وسلَّم عند الحاجة. ومن بين الآيات التي تنطوي على تلك القرابة بين القرآن من جهة والتوراة والإنجيل من جهة أخرى، قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [يونس: ٣٧]

وممَّا سبق، يَستنتِج بن نبي ما يأتي: "ومع هذا فإنَّ هذه القرابة تُبْقِي على صفةٍ مُمَيِّزةٍ للقرآن الكريم، وهي: أنَّ القرآن يظهر وكأنه يُتمِّمُ، بل ويُصحِّحُ ما جاء في التوراة في أكثر مِنْ شأْنٍ".

ويوضح مالك بن نبي أن مصطلح الحنيفية والابراهيمية هي مصطلحات قرآنية ولكنها ذات نزعة واضحة في بناء مشترك إيماني بين الأديان السماوية، ويستعرض مالك بن نبي ببساطة المشترك بين المسيحية والإسلام عبر عنوان الحنيفية، وفي سعيه إلى تلخيص الأخلاق الخاصة بكل ديانة من ديانات التوحيد الثلاثة، استنتج مالك بن نبي أنه إذا كانت الوصايا العشرالواردة في أجزاء التوراة الخمسة تدعو إلى ‘‘ترك فعل الشّر’’، وأن الأناجيل تدعو إلى "عدم محاربة الشر بالشر" فإن القرآن الذي جاء تلخيصا وتحسينا للأخلاق السابقة له "يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر"[56].

والحق أن دعوة مالك بن نبي إلى الحنيفية كمدخل للتواصل بين الأديان تشبه دعوة غارودي فيما بعد للإبراهيمية كبيت جامع للأديان السماوية.

[56] مقال نور الدين بوكروح في صحيفة الحوار الجزائرية 2016/5/29

غارودي

الاسم الكامل	روجيه غارودي، كما عرف بعد إسلامه باسم رجاء غارودي
ألقاب مشهورة	زعيم في الحزب الشيوعي الفرنسي، ولكنه فصل 1970 بسبب نقده المستمر للاتحاد السوفياتي
التاريخ	1913-2012 م
الولادة والارتحال والوفاة	ولد في فرنسا ورحل بين العواصم الاوربية وأسر في الجزائر وزار العواصم الإسلامية وأقام فترة في الأندلس وتوفي في فرنسا
أهم الكتب التي ألفها	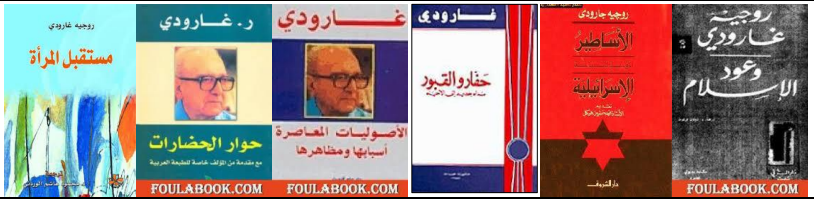
أهم ما ألف عنه	
أهم من تأثر فيهم	جلال الدين الرومي وابن عربي وماركس وجان بول سارتر
أهم من تأثروا به	له تأثير كبير على التيارات العقلانية في الإسلام
أهم القضايا التي نادى بها	• الحرية • إخاء الأديان • الإسلام متمم لا ناقض • الشريعة تتطور باستمرار
أفلام عنه	حصل على جوائز دولية كثيرة وصدر عنه عشرات الأفلام الوثائقية

يعدُّ روجيه غارودي 1913-2012م أبرز المفكرين الإسلاميين الذين تحدثوا بوضوح وشجاعة عن إخاء الأديان، وقد بدا أكثر حماسة لهذه الفكرة بعد ان اعترض بشدة على الطريقة التي يتم بها تقديمه للعالم الإسلامي، حيث درجت الصحافة الشعبوية خلال الثمانينات والتسعينات على وصف الرجل بأنه المفكر الملحد الذي اهتدى من الظلام إلى النور، والذي اكتشف بطلان الأديان وزيفها واعتنق نور الإسلام.

في الواقع الرجل لم يكن موافقاً على فهم كهذا، وكان يرى الديانات السماوية مدرسة واحدة، وكان يرى أن اعتناقه للإسلام ليس إلا فصلاً من فصول سعيه لخدمة الإيمان، فهو لم يكن ملحداً في يوم الأيام، وقيادته للحزب الشيوعي لم تكن ناشئة عن إلحاد بل هي مطالب اجتماعية للطبقات المسحوقة، ورسالة الإيمان أن يشارك في دعم هذه الحقوق وتعزيزها.

وفي كلمته الشهيرة بجامع أبي النور بدمشق بحضور المفتي العام قدم غارودي بشكل واضح رؤيته لدور لجدل العقل والنقل، ورؤيته لتقارب الأديان، وأكد بوضوح وعيه بالرسالة الإبراهيمية التي يمكن من خلالها الجمع بين اليهودية والمسيحية والإسلام في إطار منظومة قيمية محكمة، وبكل وضوح يشرح رؤيته في هذا السبيل:

إذا تذكرنا الآيات: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى﴾ [المائدة: ٤٤] ﴿وَلۡيَحۡكُمۡ أَهۡلُ ٱلۡإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِۚ﴾ [المائدة: ٤٧]

نجدها عبارة عن رسائل موسى عليه السلام في التوراة، وعيسى عليه السلام في الإنجيل، استمرت القيادة والإرشاد إلى طريق النور واستمر القرآن في ذكرها حتى قوله تعالى: ﴿لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗاۚ﴾ [المائدة: ٤٨]

وفى ضوء الآيتين السابقتين، يتضح أن الطريق هو "الشريعة" وهي قيمة عالمية مشتركة تناسب كل الناس فهي تحدد النهايات السامية، في حين أن **المذاهب** أو **الطرق** هي الوسائل التي تسمح في كل حقب التاريخ لمن اخترق القيم العليا السامية، وبذلك فإن **الشريعة** موجودة ومتمثلة في الكتب الثلاثة المنزلة[57].

ولكن الجانب الأهم في فكر جارودي هو موقفه من التجديد الديني، وبشكل خاص موقفه الشجاع ضد القطيعة بين الإسلام وبين الأديان والثقافات، فقد بدأ الرجل مباشرة بعد إعلانه الدخول في الإسلام رحلة أخرى داخل الفكر الإسلامي ذاته، وهي رحلة نقدية صريحة لا تختلف عن تجاربه السابقة، وقد أثار هذا الأمر كثيراً من المؤسسات التقليدية في العالم الإسلامي ورأت في هذا السلوك افتئاتا على ثوابت الشريعة، وصدرت بحق الرجل مواقف مباشرة تتهمه بالهرطقة، ولكن الرجل كان واضحاً تماماً فهو لم يطرح نفسه فقيهاً يفتي في مسائل الدين، ولكنه ظل يمارس دوره كمفكر ناقد وكان يجهر برأيه أن الإسلام بحاجة إلى تجديد مستمر، وأن من الغرور أن نطرح الشريعة صالحة لكل زمان ومكان ثم نقعد عن التجديد والاجتهاد فيها، وهي العبارة التي طالما كررها الفقهاء بقولهم: النصوص تتناهى والأحداث لا تتناهي، وما يتناهى لا يضبط ما لا يتناهى.

حين أعلن جارودي موقفه الشجاع في اعتناق الإسلام أصبح هذ الخبر مادة صحفية أولى وخبراً دسماً تتوالى صفحات الإعلام الترويج له والتبشير به، وكتب صحفيون كثير أن الرجل اهتدى أخيراً إلى درب الهداية وأنه تخلص من الظلمات والجاهلية والضلال المبين، ولكن جارودي في الواقع كان يحمل رؤية أخرى للإسلام، فهو لم

[57] الاعتماد الرئيسي في هذه الفقرة على المحاضرة التي ألقاها غارودي بالفرنسية في جامع أبي النور بدمشق، 1995/7/3 وقد ترجمتها إلى العربية بوساطة الترجمان الموثق الفيحاء، وهي محفوظة لدي.

ير فيه الدين الذي نسف ثقافات الإنسان وكفاحه وتجاربه، ولم ير أن عظمة الإسلام تتوقف على انحطاط الثقافات والديانات الاخرى، لقد كان يرى أن القرآن الكريم نصَّ بصراحة في أربعة عشر موضعاً ترد عبارة: "مُصَدِّقَاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ"، وحين يصرح القرآن بهذه الحقيقة فإنه يقدم أوضح رسالة إخاء إنساني؛ إذ يدعو إلى التصديق والتكامل وليس إلى العداء والتناحر، إنه لم يقل ناسفاً لما بين يديه، ولم يقل مبطلاً لما بين يديه، وإنما قال مصدقاً، والتعبير بلفظ " لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ " يشمل النبوة السابقة والحاجة الحاضرة والحكمة اللاحقة، وهذا وعي بحقيقة الفطرة الإلهية التي فطر الناس عليها.

أعلن جارودي مرات عدِّة أنه يتعرض لاستفزاز من الصحافة؛ إذ كان يرحل إليه صحافيون مسكونون بوهم نرجسي طاغٍ، ينتظرون منه أن يشن حرباً لا هوادة فيها على تهافت الفكر المادي وانحطاط الكنيسة وسقوط الحضارة وجاهلية القرن العشرين وغير ذلك من العناوين التي تلتمس إظهار عظمة الإسلام باحتقار ما سواه.

ولكن الرجل لم يكن يحمل هذه القناعة قط، لقد ظلَّ يكتب في الإخاء الديني والإنساني، ولم يكن يرى دخوله في الإسلام كفراً بما أنجزه الإنسان في كفاحه المعرفي والفلسفي، وحين سأله صحفي ثقيل: حدثنا عن ضلالك الأول وأوهام الفكر الذي كنت تائهاً فيه قبل أن يمن الله عليك بالإسلام؟ قال له بشجاعة: "أيها السائل إنني لا أحب كلمة اعتناق الإسلام، فأنا مؤمن أنها الفطرة التي خلق الإنسان عليها، وأنا أقرؤها في القرآن كما قرأتها من قبل في الإنجيل، وهي حقيقة لا تبتعد عن آمال ماركس في العدالة الاجتماعية" وفي تعبير صحفي صريح قال: "لقد

دخلت الإسلام وبيميني نسخة من الإنجيل وفي يدي الأخرى كتاب رأس المال لكارل ماركس، ولست في وارد التخلي عن أيٍّ منهما".

وربما كان هذا الموقف أهم ما تبناه المفكر الكبير روجيه جارودي، وقد كتب لي حضور أهم لقاء صرح فيه جارودي بهذه الحقيقة وذلك في دمشق 1995/7/3 حين حضر بدعوة من الشيخ أحمد كفتارو مع زوجته سلمى الفاروقي، وهناك أعلن موقفه تماماً في هذا الجدل الكبير، إنه ببساطة لم يطرح نفسه فقيهاً أصولياً ومفسراً بالمأثور والمنتثور، وإنما طرح نفسه مفكراً وكاتباً وهذا حق كل إنسان، فلم يتدخل في إطلاق فتاوى فقهية وأصولية ولم يكن هذا لينتظر منه أبداً ولكنه واجه بشجاعة فكرة الشعب المختار التي تسربت إلى العقل الإسلامي، وأعلن تماماً أنه يريد أمة بين الأمم، وليس أمة فوق الأمم، وأنه يتبع نبياً بين الأنبياء وليس نبياً فوق الأنبياء، وأن الفطرة التي فطر الله الناس عليها لا تزال تجمع بين الشرفاء والعقلاء من البشر بغض النظر عن اختلاف ألسنتهم ودمائهم وقبائلهم وأقوامهم، وفي إطار لا يحتمل اللبس أثنى أطيب الثناء على جهود الامبراطور الهندي المسلم السلطان أكبر الذي قدم نموذجاً متقدماً في الإخاء بين الديانات، وتعزيز قيم المشترك بينها.

لقد وصل جارودي إلى شاطئ الإسلام رسالة الرحمة للعالمين، ولكنه لم يوافق قط أن يكون دخوله في الإسلام نهاية عهده بالعقل، وكان يردد دوماً كلمة الفيلسوف الحائر ابن الفارض: "زدني بفرط الحبِّ فيك تحيراً".

لقد بدأ كاثوليكياً واستأنف بروتستانياً ثم اختار في كفاحه منصة الشيوعية العالمية، وانتهى به المطاف في رياض الإسلام، ولكنه لم يقل يوماً إنه قد وقف على نهاية العالم، ولم يملكه الغرور يوماً ليتحدث عن نهاية التاريخ، لقد ظل يعبد الحق ويعشق القلق، ويناجي ربه بالعبارة المحببة في كل صلاة: اهدنا الصراط المستقيم.

وفي تلخيص لرسالته التي كان يعمل لها صرح غارودي في أيامه الأخيرة: "إن أشدَّ ما يحملني على الفخر هو تمسكي بالحلم الذي راودني في سن العشرين، أعني وحدة الأديان الثلاثة المسيحية واليهودية والإسلام".

لم يكن جارودي في يوم من الأيام مستقراً في خيار معرفي حاسم، لقد كان يجسد في حياته قلق المعرفة وبؤس العارف، وظلت نوافذ السؤال مشرعة في عالمه، على خطى الغزالي وديكارت: "أنا أفكر إذن أنا موجود"، فمع أنه ولد كاثوليكياً ولكنه اعتنق البروتستانتية في الرابعة عشرة من عمره، ثم انتظم في الحزب الشيوعي واجتهد أن يعقد أواصر القربى بين البروتستانتية والماركسية، ولكنه انحاز إلى المنهج الماركسي في العدالة الاجتماعية بعد أن بدا له أنه أكثر واقعية وأقل رومانسية، وبعد ذلك أمضى سنوات عشرة صاخبة احتار فيه قارئوه، فقد وقف في عين العاصفة يجدف عكس القطبين الأعظم مواجهاً السوفييت في الشرق والأمريكيين في الغرب، وبعد اثني عشر عاماً فاجأ العالم بقرار لم يكن يحتسبه أحد وهو إعلانه الدخول في الإسلام عام 1982.

وفي سياق تفسيره لخياره الجريء في اعتناق الإسلام أعلن ببساطة أنه وجد الحضارة الغربية قد بنيت على مفهوم خاطئ للإنسان، فهي تعتمد النمو المادي التراكمي، وتفرض لوناً من القيم يتناقض تماماً مع فرادة الإنسان وكرامته، ورأى أن الحضارة الغربية قامت **بتسليع الحاجات والقيم والمبادئ في إطار الشركات الكبرى العابرة للقارات، وهي ماضية إلى تسليع الإنسان نفسه في عصر الإله الجديد: الدولار!**

ويشير جارودي إلى أن هذا الانحطاط في فهم الإنسان هو مسألة فلسفية في العمق، فبينما قدمت الحضارة الحديثة صورة الإنسان على أنه مجرد تفاعل هيدروكربويني عاثر قذفت به رحى الديالكتيك السائبة في ظروف مناخية خاصة، ثم طفرت فيه

نفخة الحياة عند أفق القردة العليا، فإن القرآن الكريم قدمه من أفق آخر مختلف تماماً وأعلنه سيداً للكون، خلقه الله بيديه، ونفخ فيه من روحه، وخلقت الكائنات من أجله، وسجدت الملائكة في خدمته، وقدمه الرب نفسه خليفة له على الأرض، وقد كرمه يوم كرمه قبل أن تنزل النبوات وتأتي الرسالات وسخر له ما في السموات والأرض جميعاً منه !

كان صراع غارودي مع الحضارة الغربية صراعاً إنسانياً بامتياز، لقد كان جوهر الصراع والخلاف هو الإنسان، الإنسان الذي تحول إلى ركام هائم بين الأشياء والسلع ووسائل الإنتاج، وأصبح في النهاية بيدقاً في رقعة الثورة الصناعية، وتمَّ في غمار ذلك **تسليع الإنسان** نفسه إلى جانب مبادئه وقيمه وأخلاقه؛ إذ يتعين قراءته بالباراكود على وفق إنتاجه المادي، وهي صيغة أعلنها فيلسوف الحضارة الصناعية نيتشه في العصر الاستعماري المقيت في القرن التاسع عشر في نموذج السوبرمان الضروري للحضارة الغربية الصناعية، قائلاً: "اقهر الضعفاء اسحقهم اصعد فوق جثثهم، إن الحضارة لا يمكن أن تزدهر في ظل أخلاق المسيح، وإن الفقراء يبتزون جهد الأغنياء وكفاحهم بوسائل العطف والشفقة، إن الارستقراط أجدر بالحياة من الضعفاء والهمل، لقد دفع آباؤهم ثمن دمائهم الزرقاء فيما كان آباء الآخرين خاملين كسالى عالة يجب منع الفقراء والمرضى من الزواج، وتأمين موت كريم وسريع لهؤلاء ليتاح للأقوياء بناء العالم الجديد، إن ذلك الهدف الكبير لبناء مجتمع السوبرمان لا يمكن تحقيقه إلا بعد رحيل الله! ولأجل ذلك لم يتردد نيتشة في إعلانه عن موت الله ووضع رفاته في متحف اللوفر!

في تلك المرحلة الصاخبة من صعود الحضارة المادية، وانسحاق الإنسان تحت عجلات المصانع الكبرى وروائزها، كان جارودي يأوي إلى أفق آخر، وكان يؤمله

غياب الأمل والرجاء من الحلم الشيوعي الهادف إلى إسعاد الفقراء، فقد حول النظام السوفياتي المجتمع إلى يوتوبيا هائمة من الفقراء، وحول المجتمع برمته إلى قطيع غاضب، لا يتجمع إلا في خطوط الإنتاج الصناعية، محض آلات منتظمة خاوية الروح، وفي غمار ذلك الصخب كان جارودي يخوض تجاربه الروحية مع أعلام الفكر الإسلامي التاريخي الذين قدموا قراءة أخرى للإنسان تستند إلى محوريته في الكون ووصاله بالله، وكرامته في الأرض.

فقد تعرف إلى مولانا جلال الدين الرومي وابن عربي وابن الفارض وغيرهم من فلاسفة الإسلام الذين كتبوا في الإخاء الإنساني، وفي روضة ((المثنوي)) لجلال الدين أدرك جارودي أن البعد الإنساني في الإسلام يتجاوز كل التناقضات الحادة التي طبعت شكل الأسرة الإنسانية، وأن الإنسان هو جوهر الحياة، وأن بالإمكان أن تتأسس أسرة إنسانية واحدة في العالم، وفق منطق الحديث المأثور عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: " الْخَلْقُ كُلُّهُمْ عِيَالُ اللَّهِ وَأَحَبُّهُمْ إِلَى اللَّهِ أَنْفَعُهُمْ لِعِيَالِهِ"

في كتابه ((الإسلام دين المستقبل)) كتب جارودي: "أظهر الإسلام شمولية كبرى في استيعابه لسائر الشعوب ذات الديانات المختلفة، فقد كان أكثر الأديان شمولية في استقباله للناس الذين يؤمنون بالتوحيد، وكان في قبوله لاتباع هذه الديانات في داره منفتحا على ثقافاتهم وحضاراتهم والمثير للدهشة انه في اطار توجهات الإسلام استطاع العرب آنذاك ليس فقط إعطاء إمكانية تعايش وتمازج لهذه الحضارات، بل أيضا إعطاء زخم قوي للإيمان الجديد: الإسلام، فقد تمكن المسلمون في ذلك الوقت من تقبل معظم الحضارات والثقافات الكبرى في الشرق وأفريقيا والغرب، ويقدم جارودي دراسات بالغة الأهمية لإسهام المسلمين في بناء الحضارة الإنسانية،

ويستعرض أهم الإنجازات العلمية في سياق عريض يكشف سعة اطلاعه وعمق معرفته بأعلام الحضارة الإسلامية وإنجازاتهم".

نشرت صحيفة مدارك المغربية الصادرة عن حركة التوحيد والإصلاح في أعقاب هذا اللقاء حواراً مطولاً مع جارودي شرح فيه تماما موقفه من التجديد الديني؛ إذ كان أهم جانب في تفكيره هو وجوب التمييز بين الشريعة والفقه، فالشريعة هي ثوابت الإسلام الكبرى، والفقه هو حاجة الناس المتجددة، وفي سياق جوابه على ذلك قال:

نحن في عالم دائم التغيير، لا يتوقف الله، كما يقول لنا في القرآن الكريم، عن خلقه ثم إعادة خلقه. وكل منا مسئول عن عدم الخلط بين الشريعة التي هي القانون الدائم وبين الفقه المتوارث عبر قرون خلت.. إننا لا نستطيع أن نفرض في القرن العشرين وعلى العالم أجمع تشريعا ينتمي إلى ظروف تاريخية كانت سائدة في الجزيرة العربية إبان القرن السابع.

ولو رجعنا إلى القرآن الكريم بالذات لوجدنا أنه يخلو تماما من بعض الأمور المعاصرة والضرورية جدا، كالشركات المتعددة الجنسيات، والتعامل بالنقد، وما جرت عليه الأعراف التجارية، ومؤشرات المال والاقتصاد والأسهم والسندات... إلخ. وهناك تفصيلات كثيرة ودقيقة لهذه الأمور الاقتصادية، والقرآن غير معني بها، فهو ليس كتابا للاقتصاد. لذلك أؤكد أن القانون الإلهي والمبادئ الإلهية خالدة سامية وباقية وأزلية، لكن ما يستجد من أمور الحياة المعاصرة علينا أن ننهض لإيجاد حلول تتناسب معها، ونعالجها بالطريقة التي نضمن بها الاتساق ضمن مسيرة الشريعة وأهدافها الكبرى، ولنا في فقه كل من أبي حنيفة والشافعي مثال يحتذى، هذان

الفقيهان العبقريان أوجدا الكثير من الحلول والأجوبة لما كان يعترض مسيرة حياة المسلمين اليومية. واليوم نحن ملزمون بالقياس على فقههم.

إن الشافعي قد أتى بفقه جديد في مصر يغاير فقهه في العراق لتغيّر الأحوال، لذا قيل: "لا ينكر تغير الأحكام بتغير الأزمان". يجب علينا أن ندرس كما درسوا ونعمل فكرنا لإيجاد حلول متسقة مع الشريعة الإسلامية لما يعترضنا من مشكلات فقهية عصرية.

أنشر هنا واحدة من أهم وثائق التنوير الإسلامي في التاريخ المعاصر...

ألقى الفقيه المجتهد الإمام روجيه غارودي هذه المحاضرة القيمة جداً في جامع أبي النور 1984/3/23 أمام المفتي العام الشيخ أحمد كفتارو وجمع من المشايخ، وكانت المحاضرة صادمة للمشاركين ولم يتوقع أحد أن يذهب غارودي إلى هذا الحد في المطالبة بإصلاح الوعي الإسلامي ورفض منهج السلف، وتم إخفاء المحاضرة ومنعها. وبعد أشهر قليلة قام المجمع الفقهي السعودي بمحاكمة الرجل وأفتى المجمع أن الرجل قد ارتد عن الإسلام، فيما قال ابن باز: "إنه كافر أصلي لم يدخل في الإسلام أصلاً."

مع أن هذه الهيئة السعودية نفسها كانت قد كرمته عام 1982 بوصفه أهم شخصية في العالم في خدمة الإسلام!

حاولت في حينها وكنت طالباً الحصول على المحاضرة، ولكن دون جدوى وظلت هذه المحاضرة حبيسة الأدراج خمسة وثلاثين عاماً حتى تيسر لنا الحصول عليها من الأخ محمد برازي الذي كان يحتفظ بالنسخة الفرنسية.

ترجم النسخة مترجم اختصاصي ومن أهم ما فيها:

- الشريعة قابلة للتغيير والتطوير. النسخ في القرآن هو صورة مرونة مستمرة وقد تم نسخ القبلة نفسها لمصلحة الإنسان.
- إن تطبيق الناس للإسلام في الشرق الأوسط في مرحلة من التاريخ لا يلزم المسلم في شيء، وعلينا ابتكار ما يناسب مجتمعاتنا من التطبيق في شؤون الحياة ولكل أجل كتاب.
- ليس هناك أسوأ من اعتقاد أن كل مشاكلنا يمكن حلها بالعودة إلى خيار السلف، إن التاريخ ينطق عكس ذلك تماماً، وأن الصواب والهدى في المستقبل وليس في الماضي
- إن الإسلام لا يمكن اختصاره بالفقه الإسلامي وحده إنه كل الهدى الذي جاء به الأنبياء والمصلحون من كل الأديان والأمم، والأديان كلها تخدم حقيقة واحدة
- إن علينا أن نحيي منهج الأئمة العالميين في إخاء الأديان مثل ابن مسرة وابن عربي والبيروني وجلال الدين والسلطان أكبر في الهند الذي آمن بكل الأديان وعمل لها جميعاً.
- يجب أن نكف عن قراءة القرآن بعيون الموتى وأن نقرأه بعقل نقدي كما يفعل كل الأحياء.
- الشريعة (القانون الذي يقود إلى طريق الله) لا يمكن أن تكون هي التشريع (الفقه) الذي يختلف بشكل جذري عن "الشريعة"، المشتركة في جميع الأديان، وتختلف مع كل دين حسب الزمان والمجتمع الذي أرسل إليه النبي من عند الله تعالى.

- "لكل أجَل (عصر) كتاب، وأيضاً قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۚ وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٞ ٢٤﴾ [فاطر: ٢٤]

وقال تعالى: ﴿يَمۡحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثۡبِتُۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ ٣٩﴾ [الرعد: ٣٩]

ومن الواضح أن هذا لا يعني أنه تعالى يغير رأيه (تعالى الله عن ذلك) ولكن هذه هي" التربية الإلهية الحقيقية "، فهو تعالى باسم" المبادئ المطلقة ينزل ما هو مناسب للوضع التاريخي ومستوى فهم الناس الذين يرسل لهم رسوله. ونذكر على مثالاً تحويل القبلة التي كانت قد اتخذت شكلاً واضحاً ونهائياً للجميع، ولكنه أراد أن يظهر وحدة الأمة، والتحول نحو نفس المركز للتأكيد على وحدة الإله؛ إذ تم التوجه لوقت معين نحو القدس، ثم بعد ذلك ولأسباب تاريخية، تتعلق بالعلاقات مع اليهود، أمرهم بالتحول تجاه مكة المكرمة. من خلال هذا التغيير التاريخي يذكرنا القرآن بالحقيقة السامية: وهي أن الله تعالى لا يمكن أن يكون في مكان دون الآخر، إنه تعالى في الشرق كما في الغرب.

الهدف الأساسي هنا هو أن لا ننسى أن القرآن يحتوي على أصول "الشريعة" الإسلامية في 5800 آية و "أمثلة" من تطبيقاتها توجد (في 200 آية) في حقبة تاريخية معينة، في مجتمع تسوده العبودية .

إن الخطأ القاتل بالنسبة لمستقبل الإسلام، هو الخلط بين القانون الإلهي الأبدي، الشريعة المسماة بـ "الفقه" (التشريع) وهو ما عرف منذ القرن السابع.

إن تطبيق الشريعة عكس هذا الخلط والارتباك، بداية من المبادئ المطلقة للشريعة (الله وحده مالك كل شيء، الأمر لله وحده، العلم عند الله وحده). خلق "فقه" القرن العشرين هو مسؤولية مشتركة للجميع وليس للمسلمين فقط ولكن كما يخبرنا

القرآن الكريم، لكل المؤمنين الذين تلقوا رسالات الأنبياء، الذين أرسلوا من قبل نفس الإله.

لذلك مشكلة مستقبل الإسلام تتلخص في مصطلحات بسيطة للغاية: وعليها أن تخطو نحو المستقبل مع نظرة ثاقبة على الماضي، وتتدرب على التعليقات ودراسة المشاكل القانونية التي نشأت خلال العصرين الأموي والعباسي؛ وأنه قادر على حل المشكلة وتقديم نموذج جديد ناجح، وسوف يستأنف رحلته المنتصرة كما حدث من قبل في القرن الأول الهجري، وحل المشاكل التي ظهرت بعد زوال إمبراطوريتي بيزنطة وفارس.

ليس هناك ما هو أكثر تناقضًا مع الرؤية الديناميكية للعالم، من تلك التي تجاه القرآن أكثر من الاعتقاد أن جميع مشاكل الحاضر والمستقبل قد تم حلها، وأنه يكفي أن نعرف عن ظهر قلب قصص الماضي للحصول على إجابة لكل شيء.

الاكتفاء هو عكس السمو، لأنه يمنع آلاف الناس من رؤية **الجاهلية** الجديدة للحضارة الغربية المنحطة، **الشريعة** الحقيقية (الله وحده يملك، الأمر لله وحده، الله وحده يعلم) يمكن أن يوحد كل من يفكر أن حياته لها معنى وأن الطريقة الإلهية فقط (الشريعة) يمكن أن تمنحهم هذا المعنى من خلال البعد عن قانون الغاب، وقانون البقاء للأقوى، وقانون الفوضى ".

إذا على العكس، نحن نخلط بين **الشريعة الأساسية** وبين **الفقه** في القرون الماضية، فنحن نعمل على التقسيم، ونعزل الإسلام، ونترك آلاف من الرجال والنساء فريسة لليأس.

وباستعادة الشريعة في حقيقتها يمكن للإسلام أن يجد زماننا هذا الظروف المواتية للتوسع كما حدث في القرن الأول للهجرة.

يعتمد مستقبل الإسلام اليوم على جهود لإعادة انتشاره بكل الأبعاد التي جعلته يسود ويؤثر في أوقات أخرى.

إن البعد العالمي للإسلام لا يقتصر على تقليد معين من منطقة الشرق الأوسط وماضيها، ولكن الانفتاح على كل الثقافات، واستعادة التعايش من الشرق إلى الغرب، لكل الأديان السماوية، مسيحي، مسلم والحكمة البعيدة فى بلاد فارس والهند والصين.

إن بُعد الحب والمفاضلة، الذي دافع كبار الصوفيين الأندلسيين، من ابن مسرة إلى ابن عربي، والبيروني، كابير أو الإمبراطور أكبر في ذروة قوة الإسلام في الهند ضد كل الشكليات والطقوس وتجفيف كل له معنى حرفي.

قراءة القرآن بعيون الموتى، أي بتكرار ما يقال عن الأسلاف العظماء في القرون الأولى من الهجرة، الذين كان لديهم العبقرية لحل مشاكل وقتهم، وليس مشاكلنا نحن. أولاً وقبل كل شيء هي خيانة للقرآن نفسه و"الله" الذي لا يتوقف أبداً عن الخلق "من" نفخ في الإنسان من روحه" ليجعله خليفة له على الأرض، ودعاه " للتدبر "بلا انقطاع والتفكر في "العلامات" الجديدة كل يوم لهذا الخلق المتواصل، لا يمكن أن يتخلى عن الناس الذين "يدعونه"، ولا يمكن إلا أن يفكروا في عبارات وجمل " تعيدهم إلى الماضي".

إن هؤلاء الرجعيين الذين يعملون من أجل مصلحة أعداء الدين، الذين يسعون إلى تحنيط الإسلام الحي، هم العائق الرئيسي أمام خلق "حداثة" ليست في الغرب المنحط بالكامل، ويمنعون الإسلام من الوجود مع جميع المؤمنين الذين يحبون المستقبل، ويسعون إلى إعادة نهضة العالم من جديد.

لقد وصل جارودي إلى شاطئ الإسلام رسالة الرحمة للعالمين، ولكنه لم يوافق أبداً أن يكون دخوله في الإسلام نهاية عهده بالعقل، وكان يردد دوماً كلمة الفيلسوف الحائر ابن الفارض: زدني بفرط الحب فيك تحيراً.

لقد بدأ كاثوليكياً واستأنف بروتستانياً ثم اختار في كفاحه منصة الشيوعية العالمية، وانتهى به المطاف في رياض الإسلام، ولكنه لم يقل يوماً إنه قد وقف على نهاية العالم، ولم يملكه الغرور يوماً ليتحدث عن نهاية التاريخ، لقد ظل يعبد الحق ويعشق القلق، ويناجي ربه بالعبارة المحببة في كل صلاة: اهدنا الصراط المستقيم.

في صيحته لتجديد الإسلام يذكرك جارودي الصارخ من الغرب بأشواق إقبال الهاتف من الشرق، فكما كتب الشاعر الهندي فكره المتوثب في كتابه الجليل التجديد الديني في الإسلام صائحاً: لا تقرؤوا القرآن بعيون الموتى، فقد أعلن الفيلسوف الفرنسي من باريس الرؤية إياها في كتابه: الإسلام دين المستقبل، وقال بوضوح: إذا أردنا أن يبقى الإسلام حياً فعلينا أن نأخذ من تراث الآباء الجذوة لا الرماد.

الترابي

الاسم الكامل	حسن عبد الله الترابي
ألقاب مشهورة	عميد كلية الحقوق وزير العدل رئيسي البرلمان السوداني
التاريخ	1351-1437 هـ/1932-2016 م
الولادة والارتحال والوفاة	عاش في السودان ودرس في بريطانيا وكندا
أهم الكتب التي ألفها	قضايا الوحدة والحرية، تجديد أصول الفقه، تجديد الفكر الإسلامي، الأشكال الناظمة لدولة إسلامية معاصرة تجديد الدين منهجية التشريع، المصطلحات السياسية في الإسلام، الدين والفن، المراة بين تعاليم الدين وتقاليد المجتمع، السياسة والحكم.
أهم ما ألف عنه	
أهم من تأثر فيهم	المودودي حسن البنا سيد قطب
أهم من تأثروا به	حزب المؤتمر الشعبي العربي الإسلامي
أهم ثلاث قضايا نادى بها	• جبهة الأديان • تحرير المرأة • حرية الاعتقاد

حسن الترابي، جدل الدين والدنيا...

حسن الترابي أحد الفقهاء البارزين على مستوى العالم الإسلامي، وهو أحد أبرز المفكرين الإسلاميين شجاعة وجرآة واقتداراً.

أعلن الترابي موقفه الفكري مشروعاً يتجاوز ما عدَّه الناس ثوابت حمراء، وبدلا من خطاب دار الحرب ودار الإسلام وقتال الذين يلوننا من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون كان الترابي يطلق مشروعه الشجاع بالدعوة إلى قيام جبهة أهل الإيمان.

وحين كانت الحرب تلتهب على أساس من الأيديولوجيا كان الرجل يفكك هذه الأيديولوجيا الدموية بخطاب لقاء حقيقي بين أديان السودان يتبنى المساواة الكاملة بين أبنائها ويعترف صراحة ودون مواربة بإيمان المواطنين المسيحيين إيمانا كاملا ويكسر كل قواعد احتكار الخلاص التي كانت أهم وقود ضارٍ ألهب هذه الحرب المجنونة .

دعا إلى الإيمان المشترك والصلاة المشتركة وفتح حوارات مباشرة مع قيادات سياسية ودينية مسيحية في الجنوب خلال الحرب الطاحنة، وأعلن بوضوح أن هناك طريقاً آخر غير الحرب، وقد عده النظام الحاكم هذه الأساليب نطوطة بين الصفين، وتوهينا لنفسية الأمة في الحرب وتمييعا للقضايا المصيرية التي يجب القتال من أجلها حتى آخر سوداني، وعبثاً بأشرف حرب وأقدسها تخوضها الأمة ضد أعدائها من الكافرين.

وفي إطار مفاجئ دعا إلى وقف التبشير بالإسلام في المناطق المسيحية ودعا إلى بناء ثقافة إبراهيمية مشتركة بدل ذلك، ودعا إلى التوقف عن التفكير المتعصب الذي يحتكر الجنة والحقيقة والخلاص.

ودعا إلى التوقف عن تكفير النصارى واليهود تأسيساً على قاعدة القرآن الكريم في تسميتهم بأهل الكتاب، وقدم أدلة وبراهين ان تكفير النصارى ليس فهماً مستقيماً لمصطلح الكفر، وإن النصارى مؤمنون، على ملة ابراهيم التي نصلي بها كل يوم كما صليت وسلمت وباركت على إبراهيم وآل إبراهيم.

وفي إخاء أبناء الأديان طالب الترابي المسلمين بأن يكفوا عن نرجسية التفوق الفارغة، وأن يدخلوا في سياق التشارك الإنساني مع الأمم، وأن يفهموا الإسلام ديناً بين الأديان وليس ديناً وفق الأديان وأمة بين الأمم وليس أمة فوق الأمم.

وفي السياق إياه أعلن الترابي موقفه من حرية الانتقال بين الأديان وأنكر حدَّ الردة، وعدَّه مناقضاً بالمطلق لمبدأ لا إكراه في الدين، وأن ما يجب أن يتبناه المسلمون هو حرية الفكر للناس جميعاً فلا خير في إيمان يجيء برهبة السيف، وصرح أن الفتوى بحد الردة لم تكن في التاريخ إلا مبرراً للاستبداد في التخلص من خصومه السياسيين.

كان من أكثر الأصوات التنويرية حيوية وشجاعة، كان بلا شك رمزاً لحيوية الفكر الإسلامي، من أشهر مبادئه: حرية الأديان، ورفض قتل المرتد، والمساواة بين المرأة والرجل، وتغير الأحكام بتغير الأزمان، والدعوة إلى كتابة جديدة للحدود على أساس العقاب الإصلاحي وإلغاء التعذيب الجسدي.

وفي موقف أشد مباشرة أعلن الترابي رأياً شجاعاً في هدم واحد من أشد الحواجز الدينية في العلاقات بين الطوائف؛ إذ أباح زواج المسلمة برجل من أهل الكتاب وهو رأي فقهي لا يعرف له سلف في الفقه الاسلامي، ويناقض تماماً ما تنص عليه كل قوانين الأحوال الشخصية في البلاد الإسلامية كافة، ولكن الرجل دافع عنه بشجاعة وصلابة وأكد أنه الفهم الأقرب لمضمون قوله تعالى: ﴿وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ [المائدة: ٥] بالطبع أثارت هذه الآراء غضباً عارماً في التيار

السلفي في السودان والسعودية ووصلت رسالة استنكارية من الشيخ عبد العزيز بن باز وحين لم يتراجع الرجل عن موقفه شنت عليه حرب طاحنة عدَّ فيها مرتداً وهرطوقاً خارجاً على الاسلام الأمر الذي سهل لخصومه السياسيين زجه في السجن عبر النظام نفسه الذي اختاره رئيسا للبرلمان السوداني قبل شهور.

لم يحظ الترابي باعجاب التيارات السلفية وعدُّوه مؤسساً خطراً لتيار العقلانيين في الإسلام وكان العقل تهمة! وصدرت في الرد عليه مئات النشرات والفتاوى، ولكنه بكل تأكيد حظي باحترام أولئك الذين يؤمنون بقدرة الإسلام على الاستجابة لبناء المجتمع الحديث، وعلى الرغم من أن هذه الأفكار لم تفعل فعلها المطلوب في المجتمع السوداني ولكنها مؤهلة بكل تأكيد للمشاركة في صوغ صورة الاسلام الجديد الذي يشارك في بناء الدولة على أساس مدني وديمقراطي حقيقي.

لم يكن الترابي فقيهاً تقليدياً كسائر الفقهاء، كان صوتاً صارخاً في برية الفقه الإسلامي يطالب بثورة عاصفة تقلب الأيقونات جميعاً، وتعيد للعقل اعتباره ومكانه في مواجهة تغول التراث.

لقد واجه استبداداً مزدوجاً ودفع أثماناً مضاعفة، فقد صاح في وجه الاستبداد السياسي وذاق كل سجونه، ولم يقم نظام حكم في السودان إلا دفع بالترابي إلى سجونه، حتى نظام الجبهة الاسلامية للانقاذ الذي أعلنه مرشداً وزعيماً فكرياً ورئيساً لبرلمانه سرعان ما انقلب عليه وانتهى به الأمر سجيناً في عنابره لسنوات عدَّة.

كما واجه بصلابة رموز الاستبداد الديني وأعاد مكانة العقل في مواجهة النص، دون أن يخلع عمامته التي كانت ترتل بانتظام وكفاءة نصوص القرآن الكريم بقراءاته السبع المتواترة وما طاف حولها من علوم الرواية والدراية.

لا أريد الحديث عن تجربته السياسية فهذا جدل يفسد رونق الكتابة فيه مجدداً وفقيهاً ثائراً، فالرجل الذي تخرج من جامعة أكسفورد في الماجستير والدكتوراه في الصوربون وأتقن أربع لغات عالمية أساسية الفرنسية والإنكليزية والألمانية إلى جانب لغته الأم كان يتقن تماماً ثقافة الديمقراطية والحضارة ولكنه كان يعيش في الواقع عقلاً كندياً وظروفاً سودانية.

موقفه السياسي لا يحسد عليه، ولكنني أقرؤه في خيبته على نهج ابن رشد الذي عرفه العالم فقيها فيلسوفاً عميقاً، أيقظ الغرب الأوروبي من سبات العصور الوسطى، ولكنه بدا في ممارساته السياسية ساذجاً مضحكاً، وسرعان ما وجد نفسه في خدمة السلاطين وتالياً في سجونهم، والحكام الذين منحوه الأوسمة هم نفسهم الذين أوصدوا عليه أبواب السحون وأحرقوا كتبه وثقافته.

لو قرأت ابن رشد في الفلسفة لوقفت أمام عملاق ليس له نظير، ولكن لو قرأته في السياسة لخجلت من ممارسات ساذجة وسطحية لا تليق بسمعته ومكانته، ومع أنه كان ينظّر للسياسيين ولكنه لم يكن يمتلك يقظتهم ولم يحسن قراءة المجتمع السياسي كما ينبغي فدفع من حياته وكرامته ثمناً لهذا الطموح الابله.

أقام ابن رشد في كنف السلطان أبي يعقوب الموحدي نحو عشر سنوات يعد الفقيه المحظي المطاع، وكان السلطان يرسله في المهام الخاصة والشخصية، وكان يتقبل ذلك بطيبة قلب رجاء ان يساعده ذلك في نشر رسالته، وحين رحل السلطان أبو يعقوب وخلفه المنصور الموحدي زاده حظوة في أيامه الأولى ولكنه انقلب عليه وأمر بنفيه وتلامذته إلى قرية اليسانة التي كان أغلب سكانها من اليهود، وأحرق كتبه، وأصدر منشورًا إلى المسلمين كافَّة ينهاهم عن قراءة كتبه في الفلسفة، ويعد بالويل والثبور كل من تجرأ على رواية شيء من ضلالات ابن رشد، وبقي بتلك القرية لمدة سنتين،

ومع أنه حصل على عفو من السلطان بعد ذلك ولكنه عناءه وشراده لم ينته وسرعان ما أدركته المنية ودفن في مراكش بعيداً عن ديار الأندلس التي شهدت إبداعه وفكره وتألقه.

لست معجباً بالترابي في نشاطه السياسي وهو ينتقل من عناء إلى عناء يرسم صورة طموح عاثر مضطرب، وقد تقلب في المواقع من وزير للخارجية ثم قائداً لثورة إنقاذ ورئيساً لبرلمانها إلى سجين في سجون هذه الثورة إياها، وهدف إعلامي مباشر لرموزها البارزين من رفاقه وتلامذته ومريديه.

ولكنني أقف باحترام عميق أمام رسالته الجريئة في تجديد الفقه الإسلامي ونجاحه في أعادة الاعتبار لمدرسة العقل في الإسلام بعد أن تغولت مدرسة النص في القرن الاخير إلى مستوى صارم من الظاهرية لم يعرفه العالم الإسلامي من قبل.

ربما كان الترابي أول من تجرأ على القول بأن النص الديني نور يهدي وليس قيداً يأسر، وأن الفقهاء يملكون من الصلاحيات في التنوير والتجديد مثل ما كان يملكه الأنبياء الذين كانوا يتعاقبون في إصلاح أقوامهم ويحملون لكل جيل جديد ما يناسبهم من الشريعة والحكمة.

وفي موقف لافت لم يكرر الترابي ما يقوله التجديديون بأنه يعملون للعودة إلى أصول الإسلام ومنابعه الأولى، بل تحدث بوضوح أن الإسلام كأي ذات حية يغتني بالتطوير والإضافة، وأن الصيغة الأولى التي تركها الرسول ليست إلا النواة التي مضت تكتمل كل يوم، وأننا نملك اليوم إسلاماً أوفر غنى وثراء مما ملكه الأولون، وبذلك فإنه تجاوز الحديث عن تجديد الدين إلى تطويره، وعدَّ أن الزمن والتجارب الإنسانية هي قيمة مضافة للإسلام تزيد في غناه وثرائه ونبله.

لقد تحدث عن الديمقراطية وحقوق الإنسان من أفق إسلامي بصير، وكشف خطوط التقاء مذهلة بين القيم الإسلامية وبين قيم الديمقراطية الحديثة كما علمها فولتير وروسو ومونتسكيو وجون لوك وتوماس هوبز، وحين كان يتحدث عن فكرهم وفلسفتهم كان يدهش محاوريه من الجامعات الغربية بقوة اطلاعه وإحاطته بما كتبوه.
وأنكر الترابي بشكل واضح مبدأ قتل المرتد الذي تؤصل له كل المعاهد الدينية تقريباً وعدَّ ذلك مضادة لروح الإسلام في منع الإكراه في الدين، وسخر بشكل لاذع من مدارس الفقه الإسلامي التي تؤسس لقتل المرتد ثم تتحدث عن الحرية الدينية في الإسلام.
وفي حوار الأديان أطلق مشروعه الجريء عبر الدعوة إلى جبهة أهل الكتاب وهي جبهة تقوم على العمل المشترك وينص ميثاقها على أن جميع أهل الكتاب سواءً كان الكتاب قرآناً أم توراة أم إنجيلاً هم مؤمنون، وهم جميعاً يعبدون الله ويسجدون له؛ لذلك يجب التعاون فيما بينهم والتوحد والوقوف في وجه اللادينيين.
وكان موقفه صادماً للمجتمع السوداني المحافظ حين اعلن بوضوح عن دعوته للاسلام دينا بين الاديان وليس دينا فوق الاديان وأن المسلمين أمة بين الأمم وليسوا أمة فوق الأمم.
وفي إطار المرأة كانت مواقفه الأكثر جدلاً وتحرراً، فقد تحدث عن الحجاب كأدب إسلامي كريم ولكنه لم يقبل قط عدَّه من أصول الدين أو شعائره، وسخر من ثقافة ما تزال تمنع مصافحة الرجال والنساء وتدعي أنها تمارس المساواة، ولم يقف توقه لمساواة المرأة بالرجل عند هذا بل أعلن بوضوح تأييده لزواج المرأة بمن تحب من الرجال سواء كان مسلماً أو غير مسلم، وكانت هذه الفتوى صادمة ومزلزلة فهي تخالف كل قوانين الأحوال الشخصية السائدة في البلاد العربية كلها ، وأصبح الرجل

محل اهتمام كل المؤسسات العاملة من أجل حرية المرأة، وفي حملات تحريم ختان المراة سارت فتواه في كل مكان وأعلن أن ختان المراة عمل مخالف للعقل والعلم والواقع ومناهض بالمطلق لحرية النساء وكرامتهن.

وفي موقف أكثر فرادة أعلن الترابي تأييده لدخول المرأة في سلك التوجيه الديني وجدارتها لمهمة الإمامة والخطابة، وحيا مريم العذراء التي استطاعت أن تكسر الكهنوت الصارم الذي كان يمنع المرأة من المشاركة في خدمة الهيكل والمشاركة في الحياة العامة.

ولم يتردد الترابي قط في تصريحات متتالية في تأكيد حق المرأة في تولي كل المناصب في الدولة بما فيها القضاء والنيابة ورئاسة الدولة، وعدَّ ما ورد من نهي عن رئاسة المرأة محكوماً بظروف مختلفة تماما عن ظروف الواقع الحالي.

وفي إطار الحدود الشرعية كان للترابي موقف جريء وشجاع؛ إذ رأى أن الفهم الصحيح للعقوبات في الإسلام يجعلنا نمتنع تماما عن تنفيذ الحدود التقليدية من قطع ليد السارق ورجم للزاني وصلب للمحارب وغيرها، وعدَّ أن القراءة العميقة لروح الإسلام وتجدده وتطوره تسمح بإعادة كتابة قانون عصري للعقوبات يؤكد على ردع المحرمات في الشريعة بأساليب أكثر تحضراً وعصرانية، وأعلن تأييده لتحويل العقاب من التعذيب الجسدي بالقطع والجلد والرجم إلى عقوبات إصلاحية تنسجم مع الحضارة الحديثة وتنسجم أولا مع روح الإسلام.

وتحدث الترابي بوضوح عن الروح العلمانية في الإسلام وأعلن تأييده لعلمنة الدولة بمعنى تمييز الدين عن السياسة وعدَّ الفقه الإسلامي تراثاً غنياً للأمة يسهم في تشريعاتها دون أن يحتكر الوعي التشريعي لصالحه، ونادى بها فقهاً بين الفقه العالمي وليس فقهاً فوق تجارب الإنسانية.

سيكتب كثيرون عن الرجل الذي ظلَّ نصف قرن يشغل العالم الإسلامي بمواقفه في الدين والسياسة، وسيذكره التاريخ مفكراً كبيراً، ولكنه لن ينسى أيضاً أنه ارتكب السياسة بقماطها العربي، ونال منها ونالت منه، ولكنه رحل عن الدنيا ونصيبه من سجونها أكثر من نصيبه من قصورها، ورصيده من المغارم فيها أكبر من رصيده من المغانم.

سيكون الترابي مصدراً ملهماً في فقه الانتقال من الديني إلى الوطني، وربما كانت فتاويه أكثر فتاوى الواقع إلحاحاً وضرورة في الحوار مع التيار الإسلامي الثائر الذي يريد أن يبقى في فلك الشريعة ولكنه لا يريد أن يخرج من روح العصر.

الصادق المهدي

الاسم الكامل	الصادق الصديق عبد الرحمن المهدي
التاريخ	1353-1442 هـ/ 1935-2020 م
ألقاب مشهورة	رئيس وزراء السودان 1966-1967 ثم مرة أخرى 1986-1989 م
الولادة والارتحال والوفاة	ولد في السودان ودرس في بريطانيا وطاف العالم الإسلامي وتوفي ودفن في السودان
مؤلفاته	يشير الموقع الرسمي للصادق المهدي إلى ان الصادق المهدي ترك 915 عملاً علمياً بين كتاب وبحث ومقال
أهم القضايا التي تبناها	• الدعوة إلى الجبهة الإسلامية العربية الفارسية التركية • الدعوة إلى حوار الديانات والثقافات • الدعوة إلى الديمقراطية كمطلب إسلامي أساسي • تحرير المرأة وتمكينها

الصادق المهدي، قائد الدراويش وفيلسوف الحرية.

ودَّع العرب الإمام الصادق المهدي الرمز السوداني الإسلامي الكبير وأعلنت الحكومة بشقيها المدني والعسكري الحداد الوطني لمدة ثلاثة أيام، وعلى الرغم من ظروف كورونا فإن الخرطوم شهدت تجمعاً مليونياً مستحيلاً في 2020 في رسالة واضحة عن مكانة الرجل وتاريخه ورسالته.

لا أكتب هنا في النضال السياسي للإمام، فهو تاريخ كامل، وبحسبك من رجل ظل خمسين عاماً مرشحاً دائما لمنصب الرئاسة وقد تولاها منذ كان في الحادية والثلاثين وظلت تراوده عن نفسها حتى الخامسة والثمانين، ولكن أهم خصلتين فيه أنه كان رمز الديمقراطية الدائم، تعرفه منابر السودان وسجونها ومنافيها، وأنه رجل السلم الذي يقود أكبر تجمع شعبي مليوني في السودان منذ ستين عاماً، في بلد أنهكته الحرب والدماء والتقسيم والطائفية ولكنه لم يتورط في قطرة دم واحدة.

ولكن ما أود الكتابة فيه هو الموقف الفكري للأستاذ الإمام فقد يكون الصادق المهدي أكثر كاتب عربي ترك تراثاً مكتوباً، وفي الموقع الرسمي للإمام ستجد أنه ترك 915 عملاً مطبوعاً، منها نحو 70 كتاباً مستقلاً، فيما تتوزع الإصدارات الأخرى بين أوراق لمؤتمرات أو مقالات أو مشاركات في أعمال علمية وفكرية.

ويعنيني هنا أن أشير إلى عمل بالغ الأهمية قدمه الإمام الصادق وهو كتابه العقوبات الشرعية وموقعها من النظام الإسلامي، وقد كتبه في سجن كوبر 1983 بعد إعلان النميري تطبيق الأحكام الشرعية، وكرس فكرة الكتاب حول قدرة الفقه الإسلامي على التطور وابتكار الحلول والأحكام، وتطور الأحكام بتطور الأزمان، وأكثر ما أدهشني فيه وجوب منع الاستبداد من فجور السياسة بتطبيق العقوبات الشرعية في مجتمع لم يحصل الناس فيه أولاً على الخبز والحرية والكرامة والعيش الكريم.

وأكثر ما أدهشني فيه موقفه الرائع وتحليله الرائع للمدارس الفكرية السائدة في الغرب وقد لخصها في أربعة اتجاهات:

- مقولة الناسوتية التي بالغت في تقدير الإنسان حتى جعلته محور كونه بلا شريك.
- مقولة العلمانية التي بالغت في إنكار الغيب إنكارا مطلقا وحصرت القيمة كلها في هذا العالم المشاهد في الزمان والمكان.
- مقولة المادية الجدلية التي بالغت في أهمية المادة بحيث جعلت دوافع الإنسان، وحركة المجتمع، وحركة التاريخ، أصداء لمعطيات مادية.
- مقولة فرويد في علم النفس التي بالغت في قيمة الدافع الجنسي وجعلته الدافع الأساسي في تكوين الإنسان وجعلت كل ما سواه ظلاً له .

ولكنه أكد بوضوح أنه يرتبط بهذه المقولات ثلاثة أخطاء مستمرة: الأولى أنها مقدسة لا تناقش، والثانية أنها مدنسة لا يصح احترامها، والثالثة أنها انتصار العلم على الدين.

لقد أكد السيد الصادق المهدي أن هذه النظريات ليست حرباً على الدين ولا هي تآمر عليه، وأن من السخف أن نتصور أن أصحابها محض شريرين أرادوا الانتقام من الإسلام، بل حلل مواقفهم بموضوعية وعلم، وأكد أنهم يستندون إلى جانب من الحقيقة المحترمة، ولكنهم يبالغون من الأفق الذي انصرفوا إليه.

إن الصراع الهائل بين العلم والإيمان معركة وهم، وطواحين هواء، وأن بإمكاننا على الدوام فهم بواعث الفلاسفة الإنسانية والعلمية حتى نلتقي معهم في نصف الطريق بدل أن نشن الحروب الوهمية الفارغة ضد الحضارة.

أما كتابه النبيل الرائع ((العلامة إقبال)) وهو يشكل منهجه الفكري فسأكتب عنه دراسة مستقلة سيّما وأنه أشار في مقدمته أن ما اختاره من فكر إقبال من نثر

وشعر هو من إعداد الصديق محمد حبش، وكنت قد رفعت له كتابي إقبال فيلسوف التجديد الإسلامي قبل أن ينشر، وفيه أشد ما كتبته من الشعر جرأة وصراحة.

وأسمح لنفسي أن أكتب عن الإمام من زاوية شخصية، فأنا ابن السودان وخريج جامعاتها النبيلة، وما زال المقْرن عندي أكثر مكان في العالم ألهمني الشعر والنثر، وما زال الأنصار في ذهني محراب في يثرب ومنبر في الخرطوم، وما زالت مجالس الحضرات والأوراد في خاطري وما زال بخورها يملأ معطفي، وما زال دراويشها يلهمونك الحكمة، وما زالت أيام الفقيد الكبير التي عشناها معاً في الأردن والسودان والمالديف وكوريا ومصر والجزائر والمغرب وفي بيتي بدمشق تملأ علي أطيب الذكريات.

من حق الصادق المهدي أن يذكر في التاريخ كزعيم استثنائي، لقد استطاع أن يقود الجماهير المليونية التي آمنت بجده المهدي على أنه بالفعل المهدي المنتظر وافترضت الغيب والعجائب والمعجزات على يديه، ونقلت هذا الإيمان إلى أسرته، وحشدت ملايين الدراويش لهذه العقيدة، وكان بالإمكان أن تصبح قناعة الجماهير في بلدان إسلامية كثيرة أن المهدي الموعود بات له أسرة وعيال، وأن أول الإسلام في مكة وآخر الإسلام في الخرطوم، ولكن الرجل العائد من أكسفورد اختار طريقاً آخر، وأعلن رسالته في الحرية والديمقراطية والمساواة، وبعث في هذه الجماهير رسالة العقل والحرية، ودفع ثمناً غالياً، ومع أنه ترأس مجلس الوزراء عدة مرات أولها وهو في الحادية والثلاثين ولكن نصيبه من السجون والمنافي كان أكبر من نصيبه من الوزارات والتشريفات.

وفي النهاية حكمت له الجنائز، وأعلنه الجميع يوم حداد وطني وخرجت واحدة من أكبر المليونيات المستحيلة في العصر الكوروني وفاء للرجل الكبير.

وأنا سعيد أن أكتب عن رؤيته العميقة التي تشاركناها في فيلسوف الإسلام الكبير محمد إقبال، لقد كنت أرى فيه أعمق صيحات إقبال في مسمع التاريخ، ومراراً عندما كنت أقدم الرجل في محافل دولية كنت أختار لتقديمه كلمات لإقبال، حين كان يصرخ بأسى:

منـائركم علَـت في كـلِّ أرض ومســـجدكم من العبَّاد خـالي
وعنـد النـاس فلســـفـة وفكر ولـكـن أيـن تـلـقـين الـغـزالي؟
وجـلـجـة الأذان بـكـلِّ أرض ولـكـن أيـن صـــوت بـلال؟

وكنت أقول دوما: "أقدم لكم أيها السادة صوتاً من بلال، صوت الصادق المهدي، الذي كان دوماً يبادرنا خطاب الحرية وطيب الحكمة وأكمل الإشراق."

كانت زيارتنا إلى باكستان فرصة للحديث عن مجدد الإسلام الأشهر في القرن العشرين العلامة محمد إقبال، وكنا نتشارك بالفعل النظر إلى ريادة الرجل لموائد المعرفة، وكنا نسارق اللحظات الجميلة لنتبادل ما نحفظه ونرويه من شعر إقبال وإبداعه وحكمته، كنت قد نظمت كثيراً من فكر إقبال الذي دونه في كتابه تجديد التفكير الديني في الإسلام.

وفي عام 2017 دعي الصادق المهدي إلى مؤتمر العلامة إقبال في إسلام آباد، وقال لي: "لقد عزمت أن أروي شعرك الذي كتبته في إقبال، فلو سمحت فاكتب لي ما رويت" لقد كانت مناسبة جميلة، وما أروع أن يحمل الصادق عبارتك على منابر الأرض، وبالفعل فقد روى الصادق كثيراً منها في كلمته، وأختار لك هنا

بعض ما رواه؛ إذ ينشر الموقع الرسمي للإمام كامل الورقة على صفحات الموقع[58].
ويؤلمني أن الكتاب طبع قبل شهور ولم يسعد بالوصول إليه.
وفي السور التالية يمكنك أن تدرج الأفكار في حقل الصادق المهدي كما يمكن أن تدرجها في حقل إقبال، فكلاهما ينهل من مدرسة واحدة.

ومن رائع ما كتبه في المقالة:

"كان إقبال يعتبر الرومي أستاذه، ويعبر في الكثير من شعره عن مفهوم الرومي بأن جميع المخلوقات تعبد الخالق، ويمكنها أن تشهد بوجوده ونوره وتجلياته على أساس وحدة الشهود لا وحدة الوجود."

إن فكرة إقبال الأكثر ثورية هي أنه بما أن نبوة النبي محمد صلى الله عليه وسلم هي الرسالة الخاتمة، ينبغي لها أن تحرر المؤمنين حتى يفعلوا مواهبهم الطبيعية من عقل وروحانية وإرادة حرة كمصادر للمعرفة، لكن التفسيرات التقليدية لسنة النبي صلى الله عليه وسلم جعلتها قيوداً على العقل والإلهام الروحي:

لا تلمني يا صـــــديقي إنني ... خدمــة للعقل أنهيت النبوة
لم أشـــأ أرضـــى لكم أوهامكم ... فخذوا أقداركـم عني بقوة
مجـدكـم في الأرض لا تـرسمـه ... جثث تسكن في جوف المقابر
فخذوا أقداركم وانتبهـــــــــوا ... واصعدوا أنتم على تلك المنـــابر

كان إقبال مؤمناً مخلصاً للعقيدة الإسلامية، ولكنه استنكر أن جعلها التقليديون قيداً على العقل والحرية. لقد أعجب بالكيفية التي انتشر بها الإسلام وهيمن على

[58] https://www.alsadigalmahdi.com/%D8%A7%D9%84%D9%88%D8%B1%D9%82%D8%A9-%D8%A7%D9%84%D8%AA%D9%8A-%D9%82%D8%AF%D9%85%D9%87%D8%A7-%D8%A7%D9%84%D8%AD%D8%A8%D9%8A%D8%A8-%D8%A7%D9%84%D8%A5%D9%85%D8%A7%D9%85-%D8%A7%D9%84%D8%B5%D8%A7%D8%AF-2/

العالم لمدة سبعة قرون. ورأى كيف استوعب الإسلام المعتدين الدمويين مثل جنكيز خان وهولاكو فصاروا دعاة له. قال:

من الإيمان عاقبة الأماني ... من الإيمان عاقبة الأماني
حماة البيت والركن اليماني ... حماة البيت والركن اليماني

ورفض آراء أولئك الذين ضحوا بالهوية لصالح التنمية، محتجاً بأن من يتجاهل ذاتيته سوف يفنى. قال:

كل من أهمل ذاتيـــــــــــته ... فهو أولى الناس طراً بالفناء
لن يرى في الدهر قوميته ... كـــــــل من قلد عيش الغرباء

ولكنه بقدر ما نادى بأولوية الهوية، رفض الآراء التقليدية التي تجعل الإسلام لا يواكب العالم الحديث.

إن الخطر على الإسلام ليس من الحضارة الغربية التي نمت هي نفسها من جذور الحضارة الإسلامية كما اعترف بيكون، ووات وآخرون. إن الخطر يأتي من فشل الفكر الإسلامي الراكد، والتحلل الاجتماعي.

وفي موقف أكثر وضوحاً يقول: "لا يوجد لنظام الخلافة القديم أي مبرر من حقائق الوحي. إن أفضل ما يخدم مبدأ العدالة العزيز في الإسلام هو النظام الجمهوري الديمقراطي. إن تاريخ الخلافة هو تاريخ مُلك مستبد".

ويؤكد الصادق أن تطوير قانون الشريعة أمر حتمي. الفقه الإسلامي له أهداف معينة؛ ينبغي تطوير الأحكام بشكل مستمر لخدمة هذه الأهداف عبر تغيرات الزمان والمكان المختلفة.

والعبادة تجلٍ للتفاني واسع المجال، تقبل كل الساعين لرضا الله، ولله المشرق والمغرب وحيث ما تولي فثمَّ وجه الله. لذلك رفض إدانة الحلاج من قبل التقليديين الذين

طالبوا بصلبه. وقال إن لويس ماسينيون كان على حق حول الحلاج. إذ لم يكن موقفه أن يرى نفسه منفصلاً عن الله. وفي هذا الصدد هناك الحديث النبوي: قال الله: "مَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ" (رواه البخاري)، وهذه الفكرة أعرب الحلاج عنها شعرياً:

إن يكن غيبك التعظيم عن لحظ العيان فلقد صيرك الوجد من الأحشاء دان

ويكرر مع الرومي دعم كرامة الإنسان، والأخوة بين جميع الأديان. ويؤكد أن الطريق إلى الله يتجاوز الطوائف والعقائد. يضع إقبال هذا شعراً:

إنما العالم طراً معبـــــــــــد كل من أحسن فيه يعبـــــــد
كـــل من في دهره قـــد أجملا فـــكـــرة أو قـــولـــة أو عـــمـــلا
كلهـــــــــــم لله نعم العابد كلهم للخير نعم القاصـــــــد

وفي تصور في غاية الشجاعة يعتقد إقبال في الآخرة كجزء من العقيدة الإسلامية. ويعدُّ وصفها القرآني مجازاً. بالنسبة إليه فإن الجنة والنار حالتان لا محلان. الجنة هي أن تنتهي بالقبول الإلهي. والنار أن تخضع للتنقية من الشرور حتى تصير مؤهلاً للقبول الإلهي. ومع أن الأوصاف القرآنية محددة، إلا أنه مذكور أيضاً أن هناك (خلق جديد)، وأن في الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.. وأنه (إلى ربك المنتهى). يقول:

أنـــت روح الله تســـعى نحوه رغـــبـــا أو رهـــبـــاَ أو ولهـــا
أي نار أو نـــعـــيـــم تـــرتجـــي؟ وإلى ربـــك فـــيـــه المـــنـــتـــهـــى

بالنسبة إلى إقبال، الجنة هي حالة الفوز والرضى. وليس في الإسلام لعنة أبدية. والنار ليست هاوية حفرها إله منتقم، لكنها ظرف لتطهير مرتكبي الشرور ليتأهلوا للحياة الحرة. والجنة ليست عطلة كسولة، ولكنها متعة النعيم الروحي. إنه يردد كلمات الصوفية الشهيرة رابعة العدوية: "إن قوماً عبدوك رجاء جنتك فتلك صفقة تجارية، وإن قوماً عبدوك خوف نارك فتلك صفة العبيد وإن قوماً عبدوك لأنك أنت الله هؤلاء وحدهم من عرفوك".

أمَّا موقفه من القدر فقد كان ثورة على الفكر التقليدي، ودافع إقبال عن رؤية للقدر ترفض الجبرية التقليدية كجزء من العقيدة الإسلامية. وقد اخترع الطغاة هذا الرأي لحماية سلطتهم الاستبدادية. قال به مؤيدو الأمويين والعباسيين، وبكلمات معاوية: "لو لم يرني ربي أهلاً لهذا الأمر ما تركني وإياه".

قال إقبال: "إن الناس أحرار في تقرير مصيرهم. وأن الأقدرا تكتب بعد حدوثها. (وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُم)، كذلك (سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ). وإن وجهة النظر التقليدية الجبرية للقدر تعد خفضاً مزرياً لقيمة الإنسان". في شعره:

أيها المسلم يا نور السماء — كيف لا تشرق في أرض البشر
أنت سلطان الليالي لا كما — قالت الحمقى أسيرا للقدر

أخذ إقبال على التقليديين أنهم حولوا السنة لقفص من حديد، وبكل حب وثقة يخاطب النبي صلى الله عليه وسلم يقول:

أيها الصادق كم من نكبة — قد نكبناها بنص مسند
لم تكن تعلم لما قلتها — أنها دستورهم للأبد

ولذلك، لا ينبغي تصور إعادة بناء الفكر الديني على أساس الهياكل التقليدية، بل على أسس القوانين الاجتماعية والطبيعية للكون.

والمفكرون المسلمون سبقوا الغربيين في ذلك، فقد تصور ابن مسكويه التطور البيولوجي، ودعا ابن رشد للعقلانية، ورأى ابن خلدون أن جميع جوانب الوجود، طبيعية كانت أو اجتماعية، خاضعة لقوانين متسقة. إنها عبقرية عقول المسلمين التي حررتها رسالة النبي صلى الله عليه وسلم.

وتجلت عبقرية إقبال في تركيزه على ظاهرة الغائية في الكون، وأن التاريخ يتحرك حتماً في اتجاه صاعد. وهذا من شأنه أن يفضي لعالم جديد أعلى، ويرفض إقبال الروحانية التي تقبل الأمر الواقع. هناك صلة عضوية بين الوعي الروحي والعدالة الاجتماعية، والدعوة لتحرير الشعوب المضطهدة. يقول في إشارة للرسالة الإسلامية:

هل جاءكم نبأ العقيدة عندما خـــــــــرت لها الأيام للأذقان

ومحت من الدنيا الخوارق بعدما محت الفوارق فطرة الإنســـــان

يؤيد إقبال كلاً من العقلانية والصوفية؛ ويرى كليهما من مكونات الصفات الإنسانية. وقد خلق فكره في هذا الصدد، وعياً بنّاءً عابراً للثقافات بين العقلانيين المسلمين والغربيين، وبين صوفية المسلمين ومتصوفة الغرب. وهو يرى هنا أنه لا يوجد شيء بشري غريب عليه. وأن قلب الإنسان هو مصدر التنوير. تقول القصيدة:

قلبك الشمس فاقتبس النور منه كل ما ترتجيه نفسك عندك

هذه النزعة الإنسانية موجودة بشكل أكبر لدى الرومي الذي يعتبره إقبال أستاذه. والرومي الذي يعد قائد النهج الصوفي في الشعر الإسلامي رفض احتكار الخلاص، ورفض قبول الحيازة الوحيدة للحقيقة. ودعا لأخوة جميع الأديان من أجل تكريم ودعم الأخوة البشرية. يرى إقبال في هذا الموقف جواز مرور المسلم لنادي الحضارة الإنسانية. فليس هناك مكان في هذا العالم الجديد لمن لا يؤمن بالإنسانية ولمن

يرفض الأخوة البشرية. ينبغي أن تزال كل الحواجز لتتآخى الأديان، وتتآزر الأيديولوجيات، ولا يطغى جيل على آخر، ولا يكون هناك مكان لتفوق الذكور على الإناث، ولا يظل من عبد وسيد.

وفي قصيدة جميلة جداً، يعبر إقبال عن مفهومه للإنسانية الإسلامية:

إنما العالم طراً معبد ... كلُّ من أحسن فيه يعبد
كلُّ من أدلى بقول طيَّب ... ينبت الغيث كغيث صيَّب
كلُّ من أحسن يوماً عملاً ... كل من أحيا مواتاً همِلا
كلُّ من في أرضه قد زرعا ... ليغيث العرب والعجم معا
كلُّ من يغرس مخضَّر الشَّجر ... فيه للإنسان ظل وشجر
كلُّ من يحفر بئراً في السبيل ... تنفع الظمآن من حر الغليل
كلُّ من يبني بناءً حسناً ... كلُّ من في صنعه قد أتقنا
كلُّ من أحدث علماً للبشر ... ينفع النَّاس ولم يقصد لشر
كلُّ من في دهره قد أجملا ... فكرة أو قولة أو عملا
كلُّهم لله نعم العابد ... كلهم للخير نعم القاصد

وكتب الصادق المهدي:

* ملحوظة: القصائد المقتبسة هنا مأخوذة من الترجمات العربية التي نقلها الصديق الدكتور محمد حبش، وقد أمدني بنسخة من دراسة لم تنشر بعد أعدها عن إقبال.

وفي الواقع فإن من حق القارئ الكريم أن يقف على المنبر الشجاع الذي تحدث فيه الصادق المهدي، وستروي الأجيال ان هذا الرجل كافح طويلاً في مواجهة خطاب الكراهية وخطاب الحرب وخطاب الجهل، واجتاز خطوطاً حمراء نصبها كهنة

الاساطير وألقوا عليها القداسة والجلال، ولكن الصادق المهدي حطم بفأس إبراهيم تلك الأيقونات جميعاً، وقال أفٍ لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون!

إنني سعيد أن أكتب في مجد الراحل الكبير وأن أسعد بكوني محل ثقته في رواية خطاب التجديد، وقد صدر بالفعل الكتاب الذي كان ينتظر قدومه، ولكنه الدهر. لقد قال لي في آخر لقاء:

فـإن نحن التقينـا بعـد دهر شـــفينا النفس من ألم العتاب

وإن ســـبقت لنا أيدي المنايا فكم من حســـرة تحت التراب

إنني مدين للمهندس مروان فاعوري مؤسس المنتدى العالمي للوسطية الذي عرفنا بالإمام الصادق، حيث اخترناه رئيساً للمنتدى، وعشنا في كنفه أطيب الأيام وأعذبها معلماً وصديقاً وإماماً، وأسعدنا بصحبته في الأردن والسودان وباكستان والجزائر والمغرب ومصر وكوريا والمالديف وسوريا الحبيبة.

لقد استطاع الرجل الذي تخرج من كلية القديس يوحنا بجامعة أكسفورد أن يقود الجماهير المليونية في الريف والحاضر السوداني التي آمنت بجده محمد أحمد المهدي في السودان كمهدي منتظر بشر به رسول الله، وظهرت عليه العجائب والكرامات، وحملت الإيمان نفسه إلى أسرته وعائلته من بعده، استطاع أن يقود هذه الملايين من الصوفية والدراويش وأن يحدثها عن الديمقراطية والحرية وحقوق الإنسان، ولن أتردد أبداً في وصفه بأنه قائد أنجح ربيع عربي، عبر موقفه الطويل ضد الاستبداد وسنواته التي سلخها بين السجون والمنافي وهو ينادي بالحرية، وأخيراً قيادته لنداء السودان منذ 2018 الذي أدى إلى سقوط الاستبداد، دون قطرة دم، وبالتالي الانتقال إلى بلد متصالح مع العالم، يبشر بالخير الواعد، وبالتالي أعلنته القوى السياسية في

السودان قديساً وطنياً تنكس لموته الأعلام ويعلن الحداد الوطني على مستوى الوطن وهو إجراء لا يعرفه العرب إلا لحكامهم الذين يموتون وهم على رأس السلطة.

جودت سعيد

hالاسم الكامل	جودت سعيد
ألقاب مشهورة	غاندي الإسلام
التاريخ	1350هـ/ ولد عام 1931 أطال الله عمره
الولادة والارتحال والوفاة	ولد في بير عجم بالقنيطرة السورية ورحل الى مصر والسعودية ثم عاد الى القنيطرة بعد تحريرها ويقيم الآن في تركيا
أهم الكتب التي ألفها	
أهم ما ألف عنه	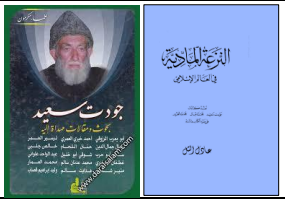
أهم من تأثر فيهم	جلال الدين الرومي ومحمد إقبال ومالك بن نبي
أهم من تأثروا به	له تأثير كبير على شباب الصحوة الإسلامية في بلاد الشام
أهم القضايا التي نادى بها	• المذهب الإنساني في الإسلام • الوئام مع العالم • اللاعنف ضرورة ورسالة • مواجهة القابلية للاستعمار

أطال الله في عمره ولد 1931 في دمشق

يعدُّ المعلم جودت سعيد أكثر القادة الإسلاميين المعاصرين وضوحاً في اختيار إخاء الأديان وكرامة الإنسان؛ إذ قدَّم للمكتبة العربية سلسلة كتب تشرح عمق رؤيته الإنسانية وإخاء الإنسان للإنسان، ودعوته الجريئة لنبذ العنف كله، ومن أبرزها: ((حتى يغيروا ما بأنفسهم))، و((في الآفاق والأنفس))، و((مذهب ابن آدم الأول)).

يؤسس جودت سعيد لوعي مختلف عن الدين، جوهره الإنسان، ويعتبر الإنسان محور الرسالة والنبوة، وبذلك يكون النص في خدمة الإنسان وليس الإنسان في خدمة النص.

ويبني جودت سعيد رؤيته وفق قانون السنن في الآفاق والأنفس، ويعتبر أن السنن حين يحكمها العلم دراسة وضبطاً وتجربة فإنها تغدو مصدراً حقيقياً للتشريع لا يقل برهاناً عن نصوص الوحي، بل يصبح حاكماً على النص ومفسراً له وموجباً لتأويله، فالوحي قرآن والسنن برهان، وحين يتحقق الوعي فسيكون لدينا قرآن مسطور وقرآن منشور، ومصحف متلو ومصحف مجلو، وآيات الله في المخابر أكثر من آياته على المنابر، وكل نص شارح مهما كان بليغاً فلن يكون أبلغ من الحقيقة نفسها، فكل شرح للوردة مها كان فصيحاً وشاعرياً ومقدساً فإنه في النهاية يذوي في قوة التعبير عندما تحضر الوردة نفسها كحقيقة ملموسة تراها العين وتلمسها اليد وتشمها المشاعر.

كل سنة من سنن الله يحسمها العلم ويتفق عليها العقلاء تغدو برهاناً شرعياً له قوة الوحي، بل هو في الحقيقة الوحي الثاني من الله، حيث يعيش المؤمن بين وحي الغيب ووحي الشهادة.

ويتحدث جودت سعيد عن الأديان بوصفها مشروعاً إلهياً واضح الغايات والمقاصد "لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط" ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥]

فجعل القسط والعدل غاية مجيء النبوات، وسر استخلاف الإنسان في الأرض، وعندما تضع الإنسانية قواعد العدل والقسط والبر، وتنجز ذلك على الأرض ويتفق عليه الناس فإن أهداف النبوة ومقاصد الأنبياء باتت تتحقق تماماً بدلائل الشهود كما تحققت من قبل بدليل الغيب.

إن الإنسانية تتوزع في أمم وشعوب وليس الإنسان من اختار مكانه على هذا الكوكب، ويولد الناس في الهند هندوساً، وفي الحجاز مسلمين، وفي تايلاند بوذيين، وفي أوربا نصارى، ومن بؤس الظن بالله أن نتصور أن حسابهم سيكون على وفق تصوراتنا ومعاييرنا، بل وفق قانون إلهي محكم ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ [النجم: ٣٩ – ٤٠] ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾﴾ [الزلزلة: ٧ – ٨]

وكتب المعلم جودت سعيد:

"المسلمون تقبلوا السنن الكونية بعد صدود طويل، والطباعة والهاتف والتلفزيون والتصوير ظل حراماً في نظر كثير من المشايخ سنين طويلة، والمشايخ حرموا طباعة المصحف ثلاثة قرون، ولكن بعد ذلك تقبل المسلمون هذه السنن الكونية. وأصبحنا اليوم نستغرب كيف كان آباؤنا ينكرون ذلك؟"

"ذات يوم سيستغرب أحفادنا كيف كنا نرفض السنن الإجتماعية في المساواة والديمقراطية وحقوق الإنسان وحرية الدين والتعبير وحقوق المرأة وتداول السلطة.

الإنسان حر في الدين أو في الإلحاد، والمرأة والرجل أحرار فيما يلبسون، والمجتمع حرٌّ في اختيار شريعته إذا مارس الشورى، والدين لله والوطن للجميع."

"ثلاثة أمراض حذرنا القرآن منها، ولكننا سقطنا فيها "

"وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى، وقلنا مثلهم"

"وقالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليس اليهود على شيء، وقلنا مثلهم"

وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه، وقلنا مثلهم"

متى ندرك أن الله لا يحابي على سواد العيون، وأن أهل الشام ليسوا أقرب إليه من أهل اليابان، وأن الخلق كلهم عيال الله، وأن الديانات والحضارات مسارب نور. نتقبل منهم أحسن ما عملوا ونتجاوز عن سيئاتهم!

ويقول جودت: "لما بدأ الاهتمام بالواقع والتفاهم مع الله بواسطة سننه، توقفت النبوة؛ لأن النبوة مرحلة انتهت" وينقل عن إقبال: "إن النبوة في الإسلام لتبلغ كمالها الأخير في إدراك الحاجة إلى إلغاء النبوة – ختم – النبوة نفسها، وهو أمر ينطوي على إدراكها العميق لاستحالة بقاء الوجود معتمداً – إلى الأبد – على مقود يقاد منه وأن الإنسان لكي يحصل على كمال معرفته لنفسه ينبغي أن يُترك ليعتمد في النهاية على وسائله البشرية".

"الذي أريد أن نفهمه من هذا أن دلالة الكتاب يمكن أن تُلغى إلغاءً تاماً، وكأنها غير موجودة، والذي سينبه المسلمين إلى هذا، ما جاء في الكتاب من الاهتمام بالتاريخ وأحوال البشر وحوادث التاريخ،أي أن الذي سيعلّمنا ليس القرآن، وإنما نفس حوادث الكون والتاريخ هي التي ستعلمنا..."

ثم يقول بما يؤكد تقديمه للواقع على كل شيء ولو كان كلام الله:"إن صخرة ما أدل على نفسها من كل كلام يقال عنها حتى لو كان كلام الله"

وفي صرخة جريئة قال جودت: "لم تعد ترهبني قعقعة الكلمات: الروح، النفس، الله أو الرسول أو قال فلان وفلان، نريد أن نتحدث ماذا يحدث لنا، وكيف يحدث الفهم؟ كيف يعرف ما فهمناه أننا فهمناه؟ وكيف انتقلت إليَّ هذه الأفكار؟ دعونا من الحديث عن السماء، ولنبحث عن مشاكلنا في الأرض!

وفي موقف واضح ضد ثقافة الآبائية واتباع السلف:

إن الوقوف عند ما كان عليه الآباء في كثير من الأمور صار انتحارًا الآن. إن انتقال السلطة بالقتل والغدر، وفرح الناس بذلك، كان مقبولاً فيما سبق من الزمان حين كان الناس يفهمون الله وسننه على مستوى معين. إن الناس عندنا يفهمون أن الله يؤتي الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء وبيده كل شيء. ولكن الله أوصل البشر بسننه أقواماً هم أنفسهم يؤتون الملك من يشاءون وينزعون الملك ممن يشاءون. علينا أن نفهم حجم الآباء. إن آباءنا لم تكن لديهم قدرة على تفهم هذا الموضوع، فارتدوا إلى القتل والغدر ونبذ الأمانة والصدق ودخلوا باب الغدر والخيانة والسفك والسحل .

إن قانون نظام الله في الوجود: أن الزبد سيذهب جفاءً وأن ما ينفع الناس (جميع الناس) سيمكث في الأرض مهما طال الزمن وتأخر الفهم والإدراك. "وأما الزبد فيذهب جفاءً وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض." وقانون الله هو أن نتقبل من الآباء سواء المحليين أو الأبعدين أحسن ما عملوا ونتجاوز عن سيئاتهم، وأن نعتقد أن التاريخ وخلق الله لم يتوقفا عند آبائنا ولا آباء غيرنا. كلهم، كل الآباء يوماً ما كانوا يعيشون في الكهوف عراة، ويموتون افتراساً من الوحوش. ونحن نقرأ في

القرآن قول يعقوب لأبنائه عن يوسف، أخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون. كان هذا شائعاً في تلك الأيام التي ليست موغلة في القدم.

لا بدَّ من أن نصحح موقفنا من الآباء. والله يقول إن تقليد الآباء عقبة. إن الحب يعمي ويصم كما ورد في الحديث. والقرد في عين أمه غزال كما في الأمثال الشعبية، وكل فتاة بأبيها معجبة، إلى أن يبلغ الإعجاب إلى سدِّ منافذ الفهم والإحساس ويصل إلى الإغلاق التام حتى "ولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون". ولهذا ورد في بعض المأثور عن الرسول (ص): "وكيف تعدل مع القريب". فمن هنا كانت شهادة الأقارب لبعض أو على بعض مرفوضة، التعصب للأب والعشيرة والقوم والدين واللون. ولهذا كان من الصعوبة رؤية الحق أو الباطل المتعلق بالآباء، وكان مرجع المعترضين جميعاً على الأنبياء هو الاحتجاج بالآباء. ومع أن القرآن يدين الذين يقلدون آباءهم فإن المسلمين يستثنون أنفسهم من فكرة الآبائية كأنهم ليسوا بشراً من البشر وكأن آباء الآخرين هم المدانون فقط، وكأن المجتمعات التي تقلد آباءها هي المخطئة فقط.

عندها تلوى الأعناق وتزيغ الأبصار ويشتبه الحق بالباطل. لهذا الأمر من الله بأن نكون قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسنا والأقربين أمر ثابت وصارم. وعلينا أن نخضع آباءنا لقانون التاريخ الذي لا يرحم الزبد. وخير للناس والأبناء والأحفاد أن يذهب الزبد جفاءً وخير للجميع أن يمكث في الأرض ما ينفعهم

فكيف سيقرأ الذين من بعدنا بحوثنا هذه وكيف سيحكمون علينا. إن حكم التاريخ أليم شديد. ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [هود: ١٠٢]

ونسأل الله العلي القدير أن يعلمنا الاعتبار، فنغير مواقفنا. يكفي ما ذقنا من العذابات حتى نتعلم الاعتبار من التاريخ.

وفي جوابه عن حركة التاريخ ومسؤولية الإنسان المسلم فيها كتب يقول:

"إن التاريخ مثل الكمبيوتر في جانب ما. فالكمبيوتر لا ينفعل وإنما بكل برود يقول: هذا خطأ، كرر محاولتك مرة أخرى. التاريخ هو العقل. ونحن عقلنا في أزمة؛ لأننا في أزمة مع التاريخ. إن بعض عباراتي في هذا الموضوع تقول: إن من لا يعلم التاريخ لا يُوثق بعلمه".

القرآن يقول إن الذي سيشهد له هو التاريخ، انظروا إلى عاقبة الذين يكذبون هذا، ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ٢٥﴾ [الزخرف: ٢٥] التاريخ مصدر المعرفة كما شهد بذلك وعلى ذلك محمد إقبال. وفي القانون من أثبت الدعوى فهو الشاهد والقرآن يقول أن الذي يشهد له بالحق والصدق هي آيات الآفاق والأنفس. إذن، مرجع القرآن هو التاريخ، وهي آيات الآفاق والأنفس، وهي أيام الله. ﴿وَذَكِّرۡهُم بِأَيَّٰمِ ٱللَّهِ﴾ [إبراهيم: ٥] الأيام التي قصمت فيها ظهر البعير، الأيام التي انكسر فيها من انكسر، وانهزم فيها من انهزم، وهلك فيها من هلك. "وتلك بيوتهم خاوية لم تسكن من بعدهم إلا قليلاً، ولكن كيف يمكننا تجاوز الأزمة؟

يمكننا ذلك بالاعتبار بالذين من قبلنا وبالذين يعيشون معنا كيف كانوا في أزمة مثلنا وأسوأ. كيف كان العالم الغربي يذيق بعضه بأس بعض في حروب قومية ومذهبية وعالمية، كيف أذاق بعضهم البعض العذاب الهون وكيف رجال الدين المسيحيين الذين يتلون في كتابهم، "أحبوا أعداءكم"، أذاقوا بعضهم البعض العذابات. ثم كيف هم الآن تجاوزوا هذه الأزمة والأزمات؟ "إن في ذلك لعبرة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد."

إن لم نعتبر ونوحد مصالحنا بالأسلوب الذي يوحد به الأوربيون مصالحهم فسنضطر أن نفعل ذلك اعتباراً بعد أن نشبع عذاباً وخساراً. يجب أن نوحد من غير أن يخسر أحد شيئاً ويربح الجميع ونختزل التاريخ بأسلوب سلمي وعلمي. وإن لم نتعلم فسيعلمنا التاريخ، ولكن تعليم التاريخ بالعذاب. "وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد". علينا أن نتابع الحدث الأوربي. إنه حدث جديد في تاريخ العالم. لم يحدث مثل هذا التجمع في البشرية من قبل. وكل شيء يحدث مرة فمعناه أنه صار علماً وسنة وقانوناً يمكن تكراره وإعادته مع الناس كلهم بتوفير قوانينه وتسخيره. لهذا كان واجباً علينا، ولا يزال يجب علينا، دراسة الحدث الأوربي من بداياته إلى نهاياته، وكيف تحت سمعنا وبصرنا يحدث ما يحدث ولكن لا نسمع ولا نبصر كأنه لا يعنينا ولا يفيدنا ولا عبرة لنا فيها. كيف تحملت ألمانيا الوحدة الجديدة، كيف تحملوا الخسارة الآنية لأنهم يبصرون الريح الآتي، كيف فتحوا الحدود، كيف يوحدون العملة. هذه لم تنزل من السماء، ولا رجال الدين هم الذين يعملون هذا. وإنما رجال العلم والتاريخ وعلماء الاجتماع وعلماء الإحصاء الذين يقدمون البيانات. إلى الآن العلم عندنا محقر والقوة هي المحترمة. إن ما يفعلونه أعظم من تفجير القنبلة النووية. ولكن لا يشترط لعمل مثل ذلك أن نصنع قنبلة نووية. فليس من الضروري أن نعمل مثلهم ونمر بنفس المراحل حتى نصل إلى ما وصلوا إليه.

يبقى جودت سعيد أوضح من أفصح عن مشاكلنا، ونجح في ربط القيام والعثار في تجارب الأمم، وأكد أن الأمة الإسلامية سياق في التاريخ وليست استثناء منه، وقد أكسبته نظافة قلبه ولسانه وكفه ثقة كبيرة لدى محبيه وناقديه على السواء، وما تزال أفكاره تنير للجيل الآتي من أبناء الصحوة الإسلامية خصوصاً كثيراً من الأفهام التي تصنع الوئام بين المسلم والعالم.

روبرت كرين

الاسم الكامل	روبرت كرين، وقد تسمَّى بعد إسلامه: فاروق عبد الحق
التاريخ	ولد 1926 أطال الله عمره
الولادة والارتحال والوفاة	عاش في أمريكا ودرس الحقوق في هارفارد وعمل سفيراً لأمريكا في الإمارات ثم مستشاراً للرئيس نيكسون واعتنق الإسلام 1980
أهم الكتب التي ألفها	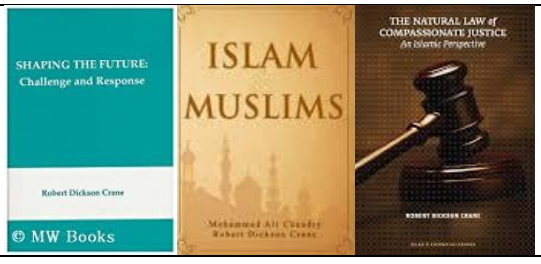
أبرز أفكاره في التجديد	• الإسلام شريك في الحضارة ينظم ولا يحكم، يعمر ولا يدمر • القداسة رتبة لكل من عمل صالحاً من البشر • الحرية رتبة إيمانية ولا يجوز الخضوع إلا لله

الإمام روبرت كرين

قد يكون أبرز أمريكي يختار الإسلام خلال هذا القرن.

ولعلك تعترض على تسمية الإمام، فقد ألفنا الأئمة هم المتخصصون من رجال الفقه والدين، وهم أولئك المعتكفون في المحراب يقودون الشعائر، أو يتفوقون في الفتوى، فمتى كان روبرت كرين إماما.

وفي الواقع فإنني على يقين إن صديقنا الذي نعرِّف به اليوم جدير بهذا اللقب والمكانة، فهو على درجة من العلم والاستقامة قل ان يبلغها آخرون، وقد أحاط إلى جانب قيم الدين بمعارف العصر، ولست أدري لم يجب ان يكون الأئمة قد ماتوا قبل ألف عام، ولم يجب ان يكونوا قد درسوا على المشايخ جثواً على الركب، ولم لا يتسع نادي الأئمة لأولئك الذين طافوا رحلة طويلة في البحث عن الهدى والنور ثم وقفوا على أرض من يقين ومعهم تراث وخبرات وتجارب تؤهلهم لأدق الإجابات عما يبحث عنه الحائر والسالك.

تخرج من هارفارد ثم أصبح رئيس الجمعية القانونية في جامعة هارفارد، ثم المستشار السياسي للرئيس نيكسون 1973 سفير الولايات المتحدة في الإمارات 1981 ثم نائب مدير مكتب الأمن القومي في الولايات المتحدة...

بعد مشوار طويل اختار روبرت كرين عام 1981 أن يعتنق الإسلام...

وفي إرادة واضحة للتعرف إلى الإسلام أكثر، رحل كرين من الولايات المتحدة إلى دمشق وعاش أياماً روحية غامرة في جامع أبو النور، واستضافه الشيخ أحمد كفتارو في مزرعته، ولكنه أصر أن يكون مع الطلبة ولقد كنا نشاهده وهو يقف بكل حبور وفرح في طابور الطلبة من الأفارقة والشيشان حين توزيع وجبة الغداء أو العشاء!

أهم أفكار كرين كانت في وجوب إصلاح الفهم المتبادل بين الإسلام والغرب، وأن الغرب ليس من مصلحته أبداً الإنصات إلى دعوات الكراهية ضد الإسلام، وكذلك فإن على المسلمين ألَّا تثيرهم صيحات الكراهية؛ لأن المشترك كثير وبإمكاننا أن نبني بستاناً واسعاً لحضارتينا بعيد عن الحدود الدموية التي يرسمها الاستئصاليون في الجانبين.

وكان يعتبر الآباء المؤسسين لأمريكا توماس جيفرسون وفرانلكين روزفلت وأبراهام لنكولن أعظم الناس إيماناً، وأشار بوضوح أنه يعتبر مشروعهم في العدالة والحرية والمساواة مشروعاً إسلامياً بامتياز، على الرغم من أن الكهنة اعتبروهم ضالين وملحدين.

يصرح كرين أن ما شدَّه إلى الإسلام هو نصف الشهادة الأول وهو لا إله، فقد كان يرى أن الخضوع لأي إله هو نوع من الذل والخضوع لكاهن يختبئ في عباءته ديكتاتور خادع، ولكنه اكتشف لأول مرة أن الإله الذي يدعو له الإسلام ليس بشراً ولا نبياً ولا بطريركاً إنما هو القانون الكلي في العالم، هو العلاقة الروحية الغامرة بين الإنسان والعالم، وهو الحقيقة التي يسجد لها الإنسان في العالم كله راضياً او راغماً، وهو الإله الحق الذي لا يحق لأحد أن ينصب نفسه نائباً عنه على الأرض.

صحبته طويلاً في الشام والتقيته في مكة وفي قطر وأخيراً قبل شهر في أبو ظبي وقد تجاوز التسعين بارك لله في حياته.

قال لي يوماً: "تعلم يا محمد! إن أكثر ما شدني إلى الإسلام هو اسم الله، أنا أنتمي إلى الأمريكان الأصليين الذين تسمونهم الهنود الحمر، لقد درست تراث أهلي وثقافتهم وتعرفت إلى آلهتهم الكثيرة حيث لكل شيء إله : الشمس والقمر والرعد والليل والوحش والتنين والبطاطا والبطيخ... ولكل إله أيقونة ورمز ومعبد...هناك

إله واحد يعبده الهنود الحمر اسمه (يا الله) هذا الإله ليس له معبد ولا له أيقونة وحين سألت عنه قالوا هو ليس كالآلهة ليس كمثله شيء يدرك الأبصار ولا تدركه الأبصار."

هذه الفكرة أكدت عند كرين الأصول الإسلامية للهنود الحمر وهي نظرية معروفة في الولايات المتحدة وبشكل خاص في أمريكا الجنوبية يقول كرين: "وهذا ما شكَّل لدي دافعاً كبيراً للبحث عن الإله المفقود ولشد ما كانت المفاجأة أنني وجدته في الإسلام تماماً كما كنت أبحث عنه في خاطري وضميري من قبل.

في موقف آخر تحدث كرين عن طبيعة الرسالة الإسلامية وقال فيما قال: "لا أعرف مجتمعاً كان أكثر فوضى ومظالم من مجتمع مكة، لقد كانت العرب تباهي بالغزو والسلب وكانت تعد ذلك من الرزق المشروع، ويكفي أن تكون أقوى حتى يعد ما غنمته حلالاً، لقد اختار الله تلك البلاد وأرسل فيها رسوله وبالفعل نجح في صناعة مجتمع آمن، وقناعتي أن النجاح في بيئة مكة يعني أن هذا البرنامج يمكن أن ينجح إذن في أي مكان في العالم.

ومع أن كرين لم يقدم نفسه كمصلح إسلامي ولكن مواقفه ومشاركاته تجعلنا نطمئن إلى خطاب رجل فريد يرى في الإنسان أخاً للإنسان، ويرى القدسية ذاتها التي نراها في جيل الأنبياء والصحابة والتابعين في جيل الآباء المؤسسين، فهو يلقي نوعاً من القداسة على كل أولئك الذين أحسنوا إلى البشرية وأعانوا في جعل عالمنا أفضل، كما أنه يندفع بشكل كبير نحو إخلاص العبادة لله، فلا يكون فيها وسيط ولا شفيع، ولا كهنوت ولا رهبنة، وإن تحقيق التوحيد ان ندرك انه لا شيء ابداً يستحق أن نصرف له العبادة والخضوع إلا الله.

وحيد الدِّين خان

الاسم	وحيد الدين خان
الولادة والوفاة	2021-1924
البلاد والارتحال	ولد في الهند وارتحل طويلاً بين أوروبا وأمريكا والعالم الإسلامي رفض منطق الحركات الجهادية التي تبرر العنف للوصول إلى الحاكمية، وكتب في وجوب الالتزام بالسلم في كلِّ عمل دعوي.
أهم الكتب التي ألفها	
أهم أفكاره في الإصلاح الديني	• التوسع في باب أنتم أعلم بأمور دنياكم • اللاعنف منهج وحيد للدعوة إلى الله • الإسلام ليس دين ودولة بل دين ودعوة • وجوب وقف تغول الكهنوت على حياة المسلم

وحيد الدين خان
1925-2021

يمكن القول إن وحيد الدين خان بات منذ مطلع هذا القرن أكبر فقهاء الإسلام في القارة الهنديَّة التي يعيش فيها أكثر من ستمئة مليون مسلم، وهو دون شك أكثر مفكريها غزارة وإنتاجاً واطلاعاً وانتشاراً، وكانت إحاطته بالثقافة الإسلامية لا تقل عن إحاطته بالثقافة الغربية، وكان يكتب كتبه بالإنكليزية ثم تترجم إلى العربية والفرنسية والفارسية والتركية والملايو وغيرها.

ولكن ما هي فرادة هذا المفكر الكبير وما مكانته في سماء الفكر الإسلامي؟

لقد قاد وحيد الدين خان حركة إصلاحيَّة دقيقة في الهند، خالف فيها منهج القيادات التقليديَّة للحركة الإسلاميَّة التي يمثلها المودوديُّ والنَّدويُّ وقاضي حسين، الذين كانوا يطالبون بحاكمية الشريعة ويشتبكون باستمرار مع الدولة الوطنية لإرغامها على تطبيق الحدود والجهاد وفق رؤية السلف الأول دون اعتبار لتطور الحياة ومرونة الشريعة وقواعد القانون الدَّوليّ.

وعلى الرغم من مكانته المعروفة في علوم الشريعة ولكنه تعرَّض لحملة قاسية من خصومه بعد أن أعلن موقفا مختلفاً في وعيه بالإسلام، وفي حين رفع أبو الأعلى المودودي شعار "الإسلام دين ودولة"، فإن وحيد الدين خان رفض ذلك كلَّه ونادى بأن "الإسلام دين ودعوة".

لقد أنجز وحيد الدين خان إصلاحاً كبيراً في الوعي الإسلاميّ وتحمَّل في سبيل ذلك كثيراً من العداوات، ولكنه تمسك بموقفه وأسس لمجتمع مسلم متسامح لا يسعى لفرض إرادته على الآخرين، ولا يؤمن بالجهاد سبيلاً لنشر الإسلام، بل يراه

فعلاً دفاعياً للحفاظ على الأمن والحياة، ويمكنني أن ألخص إصـــلاحه الديني في نقطتين أساسيتين:

الأولى: نادى وحيد الدين خان بنبذ العنف كلِّه، واقترب كثيراً من منهج المهاتما غاندي في اللاعنف، ورفض وجود السلاح بيد الأفراد مهما كان علمهم وفقههم، ورفض كل تبرير لاستخدام العنف تحت عنوان إقامة حاكمية الله، ودعا إلى استلهام السيرة النبوية، فالرسول الكريم قام بخمس محاولات لبناء دولته في مكة والطائف والحبشة والحيرة والمدينة، وقد أخفق في أربع منها ونجح في الخامسة ولكن المؤرخين كلَّهم من مسلمين وغير مسلمين أكدوا أنَّ الرسول لم يستخدم في محاولاته كلِّها أيَّ لون من السلاح ولا حتَّى سكين مطبخ، وظلت رسالته الكلمة والحكمة، على الرغم من أن أعداءه مارسوا ضده التوحش والعنف.

وفي مغازيه التي يفرح المؤرخون بسردها وتسميتها ويبلغون بها 28 غزوة و32 سرية فإن وحيد الدين خان يؤكد أن هذا الرقم مضلّل تماماً وأن الرسول لم يلتحم مع أعدائه إلا في ثلاثة أيام فقط، وكان مرغماً على القتال للدفاع عن نفسه وهي أيام بدر وأحد وحنين، ولم يزد القتال عن اثنتي عشرة ساعة في كل مرَّة ويجزم بأن طول المعارك التي خاضها الرسول لم يتجاوز 36 ساعة تحديداً فيما كانت أيامه الأخرى كلُّها سلاماً ومحبة. ولا أدري لمَ لم يذكر يوم خيبر. وعلى كلٍّ حال فالمعارك لم تزد عن أربعة والباقي كلّه تفاوض ومصالحات وحوارات.

ويأسف وحيد الدين خان للولع الذي مارسه كتاب السير في تسمية أيامه بالغزوات والسرايا وهي لم تكن على الإطلاق حروباً ولا غزوات ولا معارك.

ورفض وحيد الدين خان بشدة تربية الجهاد الذي تمارسه الحركات الإسلامية في باكستان والهند؛ إذ يتم تبرير العنف ضدَّ الأنظمة لفرض حاكمية الشريعة التي

عدُّوها نقيضاً مطلقاً لحاكمية البرلمان، وعدِّ الأسلوب البرلماني مناقضاً للشريعة، وهو الاتجاه الذي أسس به المودودي للإسلام السياسي في الهند ومنها انتقل إلى مصر والبلاد العربية وقد بات في عداء مستمر مع الحكومات الوطنية، يرفض أيَّ تطوير للإسلام ويطالب بشدَّة بتطبيق الإسلام الحرفي وفق فهم السلف الأول.

الثانية: أمَّا الإصلاح الجوهري الثاني فقد نادى وحيد الدين خان بصراحة بدور أكبر للعقل في تطوير الشريعة، ورفض تغول رجال الدين الذين عدُّوا كلَّ مسألة من مسائل الحياة حكماً شرعياً، وبات لزاماً على المسلم أن ينتظر رأي رجل الدين في الصحة والاقتصاد والمعاملات والاستنساخ وكروية الأرض ودورانها، وفي هذا الجانب شنَّ وحيد الدين خان حرباً ضارية على هذا المنطق الذي يمارسه رجال الدين، واعتبر أن الإسلام جاء أصلاً ليقضي على ثقافة الكهنوت التي تصر على عجز الإنسان وحاجته للوحي في كل شيء، وربط هذه الممارسة بالمنطق اليهودي التوراتي الذي كان ينتظر من الوحي بيان لون البقرة وطولها وعرضها ووصفها، حتى صار الإنسان بليداً خمولاً عاجزاً لا يستطيع أن يتحمل مسؤوليته في اختيار قرار حرٍّ مسؤول في معاملاته وحاجاته، وأكد أنَّ هذا ما جاء الإسلام ليحاربه وليس ليكرسه بوساطة رجال الدين، وتأسّف وحيد الدين خان أن الفقهاء فتحوا باب الاجتهاد في العبادات وأغلقوا باب الاجتهاد في المعاملات وهذا عكس ما جاءت الشريعة تبشر به وتدعو إليه.

وفي توضيح ذلك قال في كتابه تجديد الدين: إن الإنسان الواعي المتحرر لو ألقى نظرة على مكتبتنا الإسلامية سيجد فرقاً شاسعاً بين "الدين المَنَزَّل" و"الدين المدَوَّن".!

إنَّ الاتجاه الذي سار فيه تدوين الدين لم يكن صحيحاً، وإنَّ تحويلَ كلِّ أمر في حياة المسلمين، سواء من قِبَلهم أم مِن قبل الفقهاء ودور الإفتاء، إلى "مسألة شرعية" ليس من الإسلام في شيء، وإنما هو اليهودية المحَرَّفة الذي جاء خاتم النبيين للقضاء عليها.!

إن المفْتِين، غالباً، كلُّ أمرٍ عندهم هو "مسألة شرعية"، فيبحثون عن جزئية في كتب الفقه ليَرُدُّوا إليها "المسألة الشرعية الجديدة"، أو ليفهموها في ضوئها!

إن أمتنا اليومَ تَئِنُّ تحت "الإصر والأغلال"؛ إذ أضاف المشايخ إلى الإسلام ما يُشْبِه تلك الإضافات التي أضافها فقهاءُ اليهودِ والفَرِيسيون، التي شوهت الشريعة الموسوية، وأوَّل واجبٍ لتجديد الإسلام اليومَ هو تطهيره من كلِّ هذه الإضافات، ودون القيام بهذا الواجب، لا يمكن لنا أن نخطو خطوةً واحدة إلى الإمام في سبيل "إحياء الإسلام" في عصرنا هذا.

إن هذا الدين "الفني، التقني، القانوني، التفصيلي" جافٌّ يسبب القسوةَ في القلوب، ويَحْرِمُ الإنسان من المشاعر اللطيفة النبيلة.

"الدين الإلهي" يوجه الإنسانَ نحو الحقائق والمعاني، بينما "الدين الفني" يَشْغلنا في الجزئيات.

وبينما يفتح رجال الدين أبواب الجدال العقيم دون حدود، يعلم الدين الإلهي الإنسانَ الفكرَ والتدبرَ.

لقد رحل وحيد الدين خان، وما تزال معظم كتبه بالإنكليزية لم يترجم للعربية منها إلا نحو عشرة كتب، أبرزها كتابه "تجديد الدين" وهو رؤية تطويرية متقدمة تؤمن بأن الدين كائن حي، ومن حقه أن يتطور ويستمر، وأن يغتني بتجارب الأمم، وليس أن يتحنط في تطبيق السلف الصالح، وأن السلف الصالح لو شهدوا عالمنا

المتسارع لأنكروا علينا الموقف السلفي وطالبوا بفقه جديد يستنير بالقرآن ولكنه يعمل لمصالح الأمة.

رحيل وحيد الدين خان سيطرح هذه الأسئلة من جديد، فهل سيدرك مشايخنا أن المستقبل لصوت العقل والبرهان وليس لتقليد السلف، وأن السلفية مرحلة زمنية عابرة وليس من العقل أن تحكم عالمنا اليوم، ومن حقنا أن نقول: إن الآية المباشرة التي نزلت في السلف الصالح هي قول الله تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ١٣٤﴾ [البقرة: ١٣٤]

وفي رحيله يوم 2021/4/22 كتبت هذه الكلمات

رحل أمس العلَّامة المفكر وحيد الدين خان عن عمر يناهز المئة عام ملأ فيها العالم الإسلامي بفكره وعطائه، وقد كتبت في رحيله هذه الكلمات:

مولانا وحيد الدين خان في ذمة الله وقد أكمل مائة عام هجري....

أستاذي الكبير ومعلمي وملهمي

أبرز فقهاء الإسلام في القارة الهندية وأبرز دعاة الإخاء والسلام في الأرض...

استيقظت على يديه في كتابه المجيد "الإسلام يتحدى قبل أربعين عاماً"، فوجدت السكينة والطمأنينة من رياح القلق، ثم قرأت له كتابه "تجديد الدين"، فبعث في روحي إخاء الأديان وكرامة الإنسان، وعلمني أن الله أكبر من أن تحده أمة أو دين، وأن خزائنه الملأى تنتشر بين كلِّ عباده، وتبلغ أهل اليابان كما تبلغ أهل القرآن، ويشرق بها سور الصين العظيم كما تشرق بها بطحاء مكة

وحين يشرق النور في قلبك فستعلم أنه في كل قلب نور.

لقد أدركت أنني أمام أعظم مجددي الإسلام في القارة الهندية.

كان حلمي في الحياة لقاؤه، وجثوت بين يديه مرتين، مرة في لوس أنجلس في مؤتمر السيرة النبوية، والثانية في أبو ظبي حينما كرّمَ بجائزة الإمام الحسن بن علي للسلم العالمي...

حين يعصف بي القلق في رسالتي المريرة في إخاء الأديان وكرامة الإنسان، وفي البحث عن إسلام بلا حروب، وعن نصٍّ يهدي ولا يأسر، أتذكر أن هنالك في آخر الدَّرب هذا العملاق الهائل (مولانا وحيد الدين)

وحين ألقى ما ألقاه من صدود وتزاحم الفتاوى في التكفير والزندقة تطل في روحي عيناه الحائرتان ترويان لي صبر الأنبياء وثبات القديسين.

وحين أقرأ ما شنَّه عليه خصومه بعد خروجه من عباءة المذهب ودخوله في دين العالم وجنة الإنسان أشعر بأنها درب واحدة، ولا ينبغي أن توحشك قلة السالكين، ففي آخر الدرب ستجد هذه الروح الطاهرة النقية.

وحيد الدين خان إمام المسلمين جميعهم، ولكنه بالنسبة إليَّ المعلم الأكثر إلهاماً، ولا أعرف فكرة أتحدث بها اليوم إلا وقد قرأتها لأحد المعلمين العظيمين جودت سعيد ووحيد الدين خان.

رحمة الله على روحك النبيلة أيها الجبل الشامخ.

لقد حاربوك طويلاً، وحين أدركوا صدق نصحك تزاحموا على بابك بأرقى الجوائز، ويا سعد من تقبلت منهم، فإنهم هم الفائزون.

اللهم اجعل الجنة له داراً والنبي له جاراً والملائكة له زواراً.

في مواقف التشدد من رجال التنوير

ونختتم هذا الكتاب بهذه الفقرة التي كتبها الشيخ ناصر الفهد وهو أحد شيوخ السلفية المعروفين فكَّ الله أسره، وهو يعد علماء الإسلام جميعاً زنادقة وضالين ومضلين، وقد أردنا من خلالها أن نقترب أكثر من الرؤية التي يمارسها المتشددون ضدَّ أعلام الحضارة الإسلامية.

وقد كتب السلفية طويلاً في التشكيك بأعلام التنوير واتهامهم في دينهم، وهذا أمر متوقع منهم، فالقوم كانوا بالفعل ثورة على التقليد والاتباع وأطلقوا بوضوح دعوة للاجتهاد الحر فيما تنادي السلفية بوجوب الاتباع التَّام لعصر السلف وتحريم أيِّ اجتهاد يخالف اختياراتهم.

وأختار لك هنا ما كتبه مقال للشيخ ناصر الفهد موثق بالأدلة من كتب التراث يثبت فيه أن علماء الحضارة الإسلامية مرتدون وكفرة وزنادقة... ولا يوفر منهم أحداً :

جابر بن حيان والبتاني وابن سينا والفارابي والكندي والخوارزمي وابن الهيثم وابن باجه وابن رشد وابن طفيل والجاحظ ومسكوية والمجريطي والإدريسي وأبناء موسى بن شاكر والبيروني والطوسي وعباس بن فرناس وابن جبير وابن بطوطة... وكلهم يعني كلهم.

ثم قال: هذا مختصر، وما زال كثير...

السؤال الآن: إذا كانت هذه بالفعل الثقافة التي يتلقاها أبناؤنا، فأي جيل ننتظر؟ ومتى نخرج من ظلمات القرون؟

متابعة سعيدة...

قال الشيخ السلفي ناصر الفهد: هذه قائمة بأشهر العلماء، وماقال أئمة الإسلام فيهم وفي عقائدهم، وقد تركت منهم أكثر مما ذكرت؛ لأن القصد التنبيه لا الحصر، وقد رتبتهم على حسب الوفاة.

ابن المقفع – عبد الله بن المقفع - [ت: 145 هـ]:

كان مجوسياً فأسلم، وعرّب كثيراً من كتب الفلاسفة، وكان يتهم بالزندقة.

لذلك قال المهدي رحمه الله تعالى: "ما وجدت كتاب زندقة إلا وأصله ابن المقفع"[59]

جابر بن حيان [ت: 200 هـ]:

أولاً: إن وجود جابر هذا مشكوك فيه.

لذلك ذكر الزركلي في ((الأعلام)) في الحاشية على ترجمته: "إن حياته كانت غامضة، وأنكر بعض الكتاب وجوده".

وذكر أن ابن النديم أثبت وجوده ورد على منكريه، وابن النديم هذا ليس بثقة – كما سيأتي إن شاء الله–

ومما يؤيد عدم وجوده [60]ما قاله شيخ الإسلام رحمه الله: "وأما جابر بن حيان صاحب المصنفات المشهورة عند الكيماوية؛ فمجهول لا يعرف، وليس له ذكر بين أهل العلم والدين"[61]اهـ.

---

[59] انظر سير أعلام النبلاء: 208/6، البداية والنهاية: 96/10، لسان الميزان: 449/3.
[60] الأعلام: 103/2.
[61] مجموع الفتاوى: 374/29.

ثانياً: ولو أثبتنا وجوده، فإنما نثبت ساحراً من كبار السحرة في هذه الملة، اشتغل بالكيمياء والسيمياء والسحر والطلسمات، وهو أول من نقل كتب السحر والطلسمات – كما ذكره ابن خلدون[62]

الخوارزمي – محمد بن موسى الخوارزمي - [ت: 232 هـ]:

وهو المشهور باختراع **الجبر والمقابلة**، وكان سبب ذلك – كما قاله هو – المساعدة في حل مسائل الإرث، وقد ردّ عليه شيخ الإسلام ذلك العلم؛ بأنه وإن كان صحيحاً إلا أن العلوم الشرعية مستغنية عنه وعن غيره[63].

والمقصود هنا؛ إن الخوارزمي هذا كان من كبار المنجّمين في عصر المأمون والمعتصم الواثق، وكان بالإضافة إلى ذلك من كبار مَنْ ترجم كتب اليونان وغيرهم إلى العربية[64].

الجاحظ – عمرو بن بحر - [ت: 255 هـ]:

من أئمة المعتزلة، تنسب إليه **فرقة الجاحظية**، كان شنيع المنظر، سيئ المخبر، رديء الاعتقاد، تنسب إليه البدع والضلالات، وربما جاز به بعضهم إلى الانحلال، حتى قيل: "يا ويح من كفّره الجاحظ".

حكى الخطيب بسنده؛ أنه كان لا يصلي، ورمي بالزندقة، وقال بعض المعلماء عنه: "كان كذاباً على الله وعلى رسوله وعلى الناس"

---

[62] المصدر السابق، وانظر مقدمة ابن خلدون: ص496 - 497.
[63] انظر مجموع الفتاوى: 214/9 - 215.
[64] انظر تاريخ ابن جرير: 24/11، البداية والنهاية: 308/10، عيون الإنباء في طبقات الأطباء: ص483، حاشية1.

ابن شاكر – محمد بن موسى بن شاكر - [ت: 259 هـ]:

فيلسوف، موسيقي، منجّم، من الذين ترجموا كتب اليونان، وأبوه موسى بن شاكر، وأخواه أحمد والحسن؛ منجمون فلاسفة أيضاً.

الكندي – يعقوب بن اسحاق - [ت: 260 هـ]:

فيلسوف، من أوائل الفلاسفة الإسلاميين، منجّم ضال، متهم في دينه كإخوانه الفلاسفة، بلغ من ضلاله أنه حاول معارضة القرآن بكلامه.

عباس بن فرناس [ت: 274 هـ]:

فيلسوف، موسيقي، مغنٍ، منجّم، نسب إليه السحر والكيمياء، وكثر عليه الطعن في دينه، واتهم في عقيدته، وكان بالإضافة إلى ذلك شاعراً بذيئاً في شعره مولعاً بالغناء والموسيقى.

ثابت بن قرة [ت: 288 هـ]:

صابئ، كافر، فيلسوف، ملحد، منجّم، وهو وابنه إبراهيم بن ثابت وحفيده ثابت بن سنان؛ ماتوا على ضلالهم.

قال الذهبي رحمه الله تعالى: "ولهم عقب صابئة، فابن قرة هو أصل الصابئة المتجددة بالعراق، فتنبه الأمر"

اليعقوبي – أحمد بن اسحاق - [ت: 292 هـ]:

رافضي، معتزلي، تفوح رائحة الرفض والاعتزال من تاريخه المشهور، ولذلك طبعته الرافضة بالنجف.

الرازي – محمد بن زكريا الطبيب - [ت: 313 هـ]:

من كبار الزنادقة الملاحدة، يقول بالقدماء الخمسة الموافق لمذهب الحرانيين الصابئة – وهي الرب والنفس والمادة والدهر والفضاء – وهو يفوق كفر الفلاسفة القائلين بقدم الأفلاك، وصنّف في مذهبه هذا ونصره، وزندقته مشهورة –نعوذ بالله من ذلك–

البتّاني – محمد بن جابر الحراني الصابئ - [ت: 317 هـ]:

كان صابئاً.

قال الذهبي: "فكأنه أسلم".

فيلسوفاً، منجّماً.

الفارابي – محمد بن محمد بن طرخان - [ت: 339 هـ]:

من أكبر الفلاسفة، وأشدهم إلحاداً وإعراضاً، كان يفضّل الفيلسوف على النبي، ويقول بقدم العالم، ويكذّب الأنبياء، وله في ذلك مقالات في انكار البعث والسمعيات، وكان ابن سينا على إلحاده خير منه، نسأل الله السلامة والعافية.

المسعودي – علي بن الحسين - [ت: 346 هـ]:

كان معتزلياً، شيعياً.

قال شيخ الإسلام عن كتابه "مروج الذهب": (وفي تاريخ المسعودي من الأكاذيب ما لا يحصيه إلا الله تعالى، فكيف يوثق في كتاب قد عرف بكثرة الكذب؟) اهـ.

المجريطي – مسلمة بن أحمد - [ت: 398 هـ]

فيلسوف، كبير السحرة في الأندلس، بارع في السيمياء والكيمياء، وسائر علوم الفلاسفة، نقل كتب السحر والطلاسم إلى العربية، وألف فيها "رتبة الحكيم" و "غاية الحكيم"، وهي في تعليم السحر والعياذ بالله، {وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ}، نسأل الله السلامة.

مسكويه – محمد بن أحمد - [ت: 421 هـ]:

كان مجوسياً، فأسلم، وتفلسف، وصحب ابن العميد الضال، وخدم بني بويه الرافضة، واشتغل بالكيمياء فافتتن بها.

ابن سينا – الحسين بن عبد الله - [ت: 428 هـ]:

إمام الملاحدة، فلسفي النحلة، ضال مضل، من القرامطة الباطنية، كان هو وأبوه من دعاة الإسماعيلية، كافر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم بالآخر.

مساوئ لو قسمن على الغواني لما أمهرن إلا بالطلاق

قال ابن القيم رحمه الله تعالى:

أو ذلك المخدوع حامل راية الـ ... إلحاد ذاك خليفة الشيطان
أعني ابن سينا ذلك المحلول من ... أديان أهل الأرض ذا الكفرانِ

ابن الهيثم – محمد بن الحسن بن الهيثم - [ت: 430 هـ]:

من الملاحدة الخارجين عن دين الإسلام، من أقران ابن سينا علماً وسفهاً وإلحاداً وضلالاً، كان في دولة العبيديين الزنادقة، كان كأمثاله من الفلاسفة يقول بقدم العالم وغيره من الكفريات.

ابن النديم – محمد بن اسحاق - [ت: 438 هـ]:

رافضي، معتزلي، غير موثوق به.

قال ابن حجر: "ومصنفه ((فهرست العلماء)) ينادي على مَنْ صنفه بالاعتزال والزيغ، نسأل الله السلامة" اهـ.

المعرّي – أبو العلاء أحمد بن عبد الله - [ت: 449 هـ]:

المشهور بالزندقة على طريقة البراهمة الفلاسفة، وفي أشعاره ما يدل على زندقته وانحلاله من الدين.

ذكر ابن الجوزي أنه رأى له كتاباً سماه ((الفصول والغايات في معارضة الصور والآيات))، على حروف المعجم، وقبائحه كثيرة.

قال القحطاني رحمه الله تعالى:

تعسَ العميُّ أبو العلاء فإنه قد كان مجموعاً له العَمَيانِ

ابن باجه – أبو بكر بن الصائغ، محمد بن يحيى - [ت: 533 هـ]:

فيلسوف كأقرانه، له إلحاديات، يعد من أقران الفارابي وابن سينا في الأندلس، من تلاميذه ابن رشد، وبسبب عقيدته حاربه المسلمون هو وتلميذه ابن رشد.

الأدريسي – محمد بن محمد - [ت: 560 هـ]:

كان خادماً لملك النصارى في صقليه بعد أن أخرجوا المسلمين منها، وكفى لؤماً وضلالاً.

وفي الحديث: "أنا بريء من كل مسلم يقيم بين أظهر المشركين".

ابن طفيل – محمد بن عبد الملك - [ت: 581 هـ]:

من ملاحدة الفلاسفة والصوفية، له الرسالة المشهورة "حي ابن يقظان"، يقول بقدم العالم وغير ذلك من أقوال الملاحدة.[50]

ابن رشد الحفيد – محمد بن أحمد بن محمد [51] - [ت: 595 هـ]:

فيلسوف، ضال، ملحد، يقول بأن الأنبياء يخيلون للناس خلاف الواقع، ويقول بقدم العالم وينكر البعث، وحاول التوفيق بين الشريعة وفلسفة أرسطو في كتابيه "فصل المقال" و "مناهج الملة"، وهو في موافقته لأرسطو وتعظيمه له ولشيعته؛ أعظم من موافقة ابن سينا وتعظيمه له، وقد انتصر للفلاسفة الملاحدة في "تهافت التهافت"، ويعتبر من باطنية الفلاسفة، والحادياته مشهورة، نسأل الله السلامة.

ابن جبير – محمد بن أحمد - [ت: 614 هـ]:

صاحب الرحلة المعروفة بـ ((رحلة ابن جبير))، ويظهر من رحلته تلك تقديسه للقبور والمشاهد الشركية، وتعظيمه للصخور والأحجار، واعتقاده بالبدع والخرافات وغيرها كثير.

الطوسي – نصير الدين محمد بن محمد بن الحسن - [ت: 672 هـ]

نصير الكفر والشرك والإلحاد، فيلسوف، ملحد، ضال مضل، كان وزيراً لهولاكو وهو الذي أشار عليه بقتل الخليفة والمسلمين واستبقاء الفلاسفة والملحدين، حاول أن يجعل كتاب "الإشارات" لابن سينا بدلاً من القرآن، وفتح مدارس للتنجيم والفلسفة، وإلحاده عظيم، نسأل الله العافية.

قال ابن القيم رحمه الله تعالى:

وكذا أتى الطوسي بالحرب الصريح بصارم منه وسل لسانِ

عَمَرَ المدارس للفلاسفة الألى كفروا بدين الله والقرآنِ

وأتى إلى أوقات أهل الدين ينقلها إليهم فعل ذي أضغانِ

وأراد تحويل "الإشارات" التي هي لابن سينا موضع الفرقانِ

وأراد تمويل الشريعة بالنواميس التي كانت لدى اليونان

لكنه علم – اللعين – بأن هذا ليس في المقدور والإمكانِ

إلا إذا قتل الخليفة والقضاة وسائر الفقهاء في البلدانِ

ابن البناء – أحمد بن محمد - [ت: 721 هـ]:

شيخ المغرب في الفلسفة والتنجيم والسحر والسيمياء.

ابن بطوطة – محمد بن عبد الله - [ت: 779 هـ]:

الصوفي، القبوري، الخرافي، الكذّاب، كان جل اهتماماته في رحلته المشهورة؛ زيارة القبور والمبيت في الأضرحة، وذكر الخرافات التي يسمونها "كرامات" وزيارة مشاهد الشرك والوثنية، ودعائه أصحاب القبور وحضور السماعات ومجالس اللهو، وذكر الأحاديث الموضوعة في فضائل بعض البقاع، وتقديسه للأشخاص، والافتراء على العلماء الأعلام، وغير ذلك .

وبعد...

فهذه دراسة في أربع وعشرين شخصية إسلامية أحسبها أثرت بشكل كبير في تنوير العقل الإسلامي واجتهدت أن يطلق الفكر والعقل إلى الغاية وأن تجمع في بناء الحياة بين قيم الإيمان ومسؤولية العقل وروح الإنسان.

إنني أعلم أنني لم أوف هذه القامات حقها الذي تستحق، ولكنه جهد المقل، وهي في معظمها مقالات كنت قد نشرتها من قبل في صحف مختلفة ورأيت أن من المفيد ان يطلع المسلم اليوم على هذه الشخصيات المؤثرة في تاريخنا وحاضرنا الإسلامي.

إن القلق الذي يراود شباب الوعي الإسلامي اليوم عندما يقرؤون ما نكتب أنه إذا كانت هذه الحقائق التي نطرحها في إخاء الأديان والمذهب الإنساني في الإسلام، ولزوم تقديم العقل على النقل، إذا كانت صادقة كما تدعي فلماذا تنكب عنها كل العلماء عبر التاريخ؟

وعلى براءة السؤال فإنه لا جواب عن التساؤل حتى نحدد من هم العلماء، وحين يكون الجواب عنه بأنهم رجال الدين فالسبب مفهوم تماما، ولكن حين يكون المقصود بالعلماء هم المسلمون الذين يملكون حججاً برهانية وعقلية وموضوعية لتطوير الخطاب الديني وإنجاز الوئام مع العالم فإن الجواب سيختلف تماماً.

فهذه الأسماء التي نتخيرها هي أسماء كبيرة بالغة الشهرة والتأثير في التاريخ الإسلامي، وقد كان لكل علَم منهم مؤيدون ومعارضون وهذا شأن الحياة، ولكن يجب القول إن عدداً كبيراً من الناس كانوا ولا يزالون يسجلون لهؤلاء الأعلام قدراً كبيراً من الاحترام والتقدير، وهذا يعزز ما نكتب فيه كل يوم أن من شرط صواب الكلمة أن يتلقاها قدر كبير من الناس بالقبول والرضا، وليس من شرطها أن يتلقاها جميع الناس كذلك.

الفهرس

تمهيد.....1
عمر بن الخطاب 5
عائشة بنت أبي بكر.....27
عمر بن عبد العزيز: 41
غيلان الدِّمشقيّ.....49
أبو حنيفة 55
المعتزلة.....69
الفارابي 77
ابن سينا 83
إخوان الصفا 89
ابن طفيل 95
البيروني 99
ابن حزم.....107
ابن رشد 115
ابن عربي 125
جلال الدين الرومي 133

الطوفي 147
الأمير عبد القادر الجزائري 151
جمال الدين الأفغاني 155
محمد عبدو 159
محمد إقبال 171
مالك بن نبي 179
غارودي 183
الترابي 199
الصادق المهدي 209
جودت سعيد 223
روبرت كرين 231
وحيد الدِّين خان 235
في مواقف التشدد من رجال التنوير 243
وبعد... 253

أعلام التنوير في الإسلام

يأتي هذا الكتاب جواباً على السّؤال التّقليديّ الذي يواجه تيار الإصلاح الدينيّ في دعوته لاتباع العقل واحترام النقل: من قال بهذا القول من قبلك؟ وهل كان الناس جاهلين وأغبياء من قبل حتّى فاتتهم هذه المعرفة؟

تهدف هذه الدراسة إلى تقديم مساهمة في التعريف بمجموعة من الرّجال والنّساء الذين يعتبرون أبرز رجال التنوير خلال التّاريخ الإسلاميّ من عصر النبوة إلى عصرنا الحاضر.

وقد تمّ اختيار الرّجال والنّساء في هذه القائمة من أولئك الذين قدّموا شجاعة استثنائيّة، واستطاعوا أن يقدموا فكراً حرّاً يتّبع العقل ويحترم النقل ويقدّس الإنسان.

لا شكّ أنّ الأسماء كثيرة، والتجارب الإصلاحية متعددة ومتتابعة، وهي لم تنقطع خلال التاريخ، ومع أنها واجهت عسف السياسة ومكر التنافس وقوة النّصّ، لكنها نجحت في إحياء موجات ثقافيّة وعلميّة وتنويريّة بارزة.